جامع السعادات

للشيخ الجليل أحد أعلام المجتهدين

محمد مهدي النراقي

المتوفي سنة 1209 هجرية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حياة المؤلف (1128 - 1209 هجرية) [1]

هو العالم الجليل (محمد بن أبي ذر النراقي) , أحد أعلام المجتهدين في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجري ، وصاحب المؤلفات القيمّة و من مشاهير علماء القرنين .

وهو عصامي , لا يُعرف عن والده (أبي ذر) إلا أنه كان موظفاً في الدولة الإيرانية في قرية(نُراق) , وله ولد عالم أيضاً هو : (أحمد النراقي) وله مؤلفات مهمة أيضاً ، وهو صاحب (مستند الشيعة) المشهور بالفقه ، وهو أحد أقطاب العلماء في القرن الثالث عشر ، وكفاه فخراً أن أحد أساتذته الشيخ العظيم (مرتضى الأنصاري) .

لعلّ النراقي الإبن هو من أهم أسباب شهرة والده وذيوع صيته ، لأنه كان بنفس دقة النظر وجودة التأليف ، وقد حذا حذوه في تأليفاته ، فالأب ألَّف في الفقه (معتمد الشيعة) والابن ألَّف (مستندها) ، وذاك ألَّف في الأخلاق (جامع السعادات) هذا الكتاب الذي نقدمه ، وذاك ألَّف (معراج السعادة) في اللغة الفارسية .

<u>مولده ووفاته:</u>

ولد الشيخ (النراقي) في (نُراق) هي قرية من قرى كاشان بإيران حوالي سنة 1128 للهجرة ، أما وفاته فكانت عام 1209 هجرية في النجف الأشرف ، وقد دفن فيها .

<u>نشأته العلمية وأساتذته:</u>

عاش (النراقي) كما يعيش عشرات الآلاف من طلاب العلم ، فقير الحال ، مهاجر ، لا يعرفه إلا أقرانه في مدرسته ، ولا يميزه إلا بذّته التي أَلِف منظرها آلاف الطلاب .

أستاذه في أصفهان كان (إسماعيل الخاجوئي) وهو من أساتذة الفلاسفة المعروفين وهو تلميذ (صدر الدين الشيرازي) صاحب الأسفار .

ولما فرغ الشيخ النراقي من التحصيل في كربلاء ، رجع إلى بلاده ، وأسس في كاشان ، مركزاً علمياً ينشد إليه الرحال وقد إستمرت من بعده ، مركزاً من مراكز العلم في إيران .

ثم رجع إلى النجف لزيارة المشاهد المقدسة ، وتوفي هناك ، ومن فيها ، وكان معه ولده فبقي ليدرس العلم يومئذ على أساتذة أعلام كبحر العلوم وكاشف الغطاء .

---

[1] (ص 5)

مؤلفاته

للشيخ النراقي عدة مؤلفات :

في الفقه:

1- (لوامع الأحكام في فقه شريعة الإسلام)

(2) (معتمد الشيعة في أحكام الشريعة)

(3) (التحفة الرضوية في المسائل الدينية)

(4) (أنيس التجار)

(5) (أنيس الحجاج)

(6) (المناسك المكية)

(7) (رسالة صلاة الجمعة)

في أصول الفقه:

(8) (تجرد الأصول)

(9) (أنيس المجتهدين)

(10) (جامعة الأصول)

(11) (رسالة الإجماع)

في الحكمة والكلام:

(12) (جامع الأفكار)

(13) (قرة العيون)

(14) (اللمعات العرينة)

(15) (اللمعة) وهي مختصر اللمعات،

(16) (الكلمات الوجيزة) وهو مختصر اللمعة

(17) (أنيس الحكماء)

(18) (أنيس الموحدين) في أصول الدين

(19) (شرح الشفا) في الإلهيات

(20) (الشهاب الثاقب) في الإمامة.

<u>في الرياضيات:</u>

(21) (المستقصى) (في علوم الهيئة) قال عنه في رياض الجنة " لم يُعلم أبسط وأدق منه في علم الهيئة ، ولقد طبق فيه أكثر البراهين الهندسية بالدلائل العقلية " .

(22) (المحصل) مختصر في علم الهيئة .

(23) (توضيح الأشكال) (شرح تحرير أقليدس الصوري في الهندسة)

(24) (شرح تحرير) " أكراثاذوسينوس " .

(25) (رسالة في علم عقود الأناقل) .

(26) (رسالة في الحساب)

<u>في المتفرقات:</u>

(29) (محرق القلوب) في مصائب أهل البيت (فارسي) .

(30) (مشكلات العلوم) في المسائل المشكلة في علوم شتى مطبوع على الحجر بإيران.

(31) (نخبة البيان) .

(32) (معراج السماء).

مقدمة المؤلف

الحمد لله الذي خلق الإنسان ، وجعله أفضل الأكوان ، أظهر فيه عجائب قدرته، وأودع فيه داوعي الخير والشر ، وعجنه من مواد متخالفة ، وجمع فيه القوى والأوصاف المتناقضة ، ثم ندبه إلى تهذيبها ، وحثّه على تحسينها ، بعد أن سهَّل له السبيل ، والصلاة والسلام على نبيّنا الذي أوتي جوامع الكلم ، وعلى آله مصابيح العلم ومفاتيح أبواب السعادة والكرم صلى الله عليهم أجمعين .

أما بعد .

يقول طالب السعادة الحقيقية(مهدي بن أبي ذر النراقي) بصَّره الله بعيوب نفسه ، وجعل يومه خيراً من أمسه . إن الغاية من وضع النواميس والأديان ، وبعثة المصطفين من عظماء الإنسانية هو سوق الناس من مراتع الشياطين ، وإيصالهم إلى روضات العليين.

ولا يتيسر ذلك إلا بالتخلي عن ذمائم الأخلاق والتحلّي بأشرف الصفات ، وفضائلها.
فيجب على كل عاقل ، أن يأخذ أهبته ، ويبذل همته ، في تطهير قلبه من أوساخ الطبيعة وأرجاسها ، وتغسيل نفسه من أقذار الجسمية وأنجاسها ، قبل أن يتيه ويهوي في مهاوي الضلال ، إذ لا تنفعه ندامة ولا حسرة .

وتزكية النفس ، موقوفة على معرفة الصفات المهلكة ، والصفات المنجية ، والعلم بأسبابها ومعالجاتها ، والوصول إلى الحكمة الحقة الموجبة للسعادة الأبدية السرمدية .

كان الحكماء القدامى ، يبالغون في جمعها وتدوينها ونشرها ، على ما أدَّت إليه ، قوة أنضارهم وأفكارهم . ولما جائت الشريعة النبوية ، على صاحبها ألف صلاة وتحية ، حثَّت على تحسين الأخلاق وتهذيبها ، وبينَّت دقائقها ، وتفاصيلها، إضمحلَّ في جنبها ، ما قررّه أساطين الحكمة والعرفان ، وغيرهم من أهل الملل والأديان .

ولكن ما ورد منها منتشر في مواد مختلفة ، ومنغرقاً في مواضع متعددة ، تعسَّر أن يحيط به الكلل ، فلا بد من ضبطه في موضع واحد، فجمعت هذا الكتاب ، خلاصة ما ورد في الشريعة الحقّة ، مع زبدة ما أورده أهل العرفان والحكمة على نهج تقرُّ به أعين الطالبين ، وتسر به أفئدة الراغبين .

المقدمات[2]

- إنقسام حقيقة الإنسان وحالاته بالإعتبار.

- تجرد النفس وبقاؤها .

- لذة النفس وتأملها .

- فضائل الإخلاق ورذائلها .

- الأخلاق الذميمة تحجب عن المعارف .

- حصول الملكات بتضاعف الأعمال .

- العمل نفس الجزاء .

- القول بتجسد الأعمال والملكات .

- التضاد بين الدنيا والآخرة .

- للجبلة والمزاج دخل في جودة الملكات ورداءتها .

- حقيقة الخلق وماهية الملائكة .

- الأقوال في تبدل الأخلاق والملكات .

- شرف علم الأخلاق .

- تعريف النفس وأسمائها بإختلاف الإعتبارات .

- الإشارة إلى إعتبار مدافعة القوى الأربع .

- إختلاف الصفات يوجب إختلاف النفوس .

- إئتلاف حقيقة الإنسان من الجهات المتقابلة .

- حقيقة الخير والسعادة ، والجمع بين الأقوال المختلفة فيها .

- شرائط حصول السعادة- غاية ما يمكن الوصول إليه من السعادة .

- تقسيم الذات واللآلام .

---

[2] (ص27)

- اللذة في الحقيقة هي العقلية دون الحسية - موعظة ونصيحة .

- التنبيه على أن الفائت لا يتدارك .

حقيقة الإنسان وحالاته [3]

حقيقة الإنسان منقسمة إلى روح وبدن ولكل منهما ، ما يلائمه وما يضرُّه . ما يضر البدن الآلام والأمراض الجسمية ، وما يلائمه وينفعه هو الصحة ، والمتكفل بذلك هو الطب .
أما الروح فما يضرها هو الأخلاق السيئة وتسبب في هلاكها وشقائها ، والرجوع إلى الفضائل تسعدها وتنجيّها ، والمتكفل لمعالجة هذه الأمراض ، هو علم الأخلاق .
وعلينا أن نعلم أن البدن فانٍ والروح باقية ، فإن إتصف الإنسان بالأخلاق الشريفة الفاضلة ، كان من السعداء أبداً ، ومن إتصف بالسيئات والرذائل ، كان من الأتقياء المخلدَّين .

تجرَّد الروح وبقائها [4]

إن ما يدل على تجرد النفس وبقائها ، بعد مفارقتها البدن أمور عدَّة ؛ منها :

- النفس تلتذ بما ليس له علاقة بالبدن ، مثل السرور والبهجة بمعرفة العلوم الحقة وغير ذلك من المشاعر ، وقد تغفل عن حالة الجسم كلياً ، وتستغرق في أمور معرفية بالكامل ، بحيث لا تشعر أن لها بدناً ، فكأنها منخلعة عنه ، فهذا يدل على أنها من عالم آخر غير عالم الجسم وقواه .

- والنفس هي التي تعلم بذاتها ، وهي التي تدرك معقولاتها ، وهذا العلم هو من جوهرها ، ولا علاقة للبدن فيه.

- ومنها أننا نشاهد البدن وقواه ، يضعفان في الأفعال والآثار، ولكن النفس تقوى في الإدراك والصفات ، فلو كانت متعلقة بالجسم ، لكانت تابعة له في الضعف والقوة .

- والنفس باقية ، بعد مفارقة الجسد ، وهي مجردةٌ عنه ، وهذا المجرَّد، لا يتطرق إليه الفساد لأنه حقيقة ، والحقيقة لا تباد .

النفس تسعد وتتألم [5]

إذا عرفنا أن النفس باقية أبداً ، فعلينا أن نعلم أن هذه النفس ، إما متنعمة دائماً ، أو متعذبة متألمة أبداً ، وهذه السعادة تتوقف على كمال هذه النفس وتتعلق بقوتان : نظرية وعملية .

فكمال القوة النظرية ، هو الإحاطة بحقائق الموجودات وإدراك مراتبها الكلية والعليا . وبعد ذلك :

---

[3] (ص27)
[4] (ص28)
[5] (ص29)

الأطلَّاع على الجزئيات ، والترقيَّ إلى معرفة المطلوب الحقيقي ، حتى الوصول إلى معرفة الله الحقَّة ، والتخلص من الوساوس الشيطانية ؛ وهذا ما يسمى : (بالحكمة النظرية) .

ثم بعد ذلك علينا أن لا نكتفي بهذه العلوم النظرية ، فالقوة العملية هي بالتخليَّ عن الصفات الرديئة، والتحليَّ بالأخلاق الحميدة ، ثم الترقيَّ إلى تطهير النفس من كل الأوهام والتخيلات الباطلة ، وهذا يسمى (بالحكمة العملية) .

فضائل الأخلاق ورذائلها [6]

من أهم الواجبات العملية ، هو التخليَّ عن الأخلاق الذميمة ، والتحليَّ بالأخلاق الفاضلة . فيجب على كل عامل، أن يجتهد ولا يقصَّر في السير على الطريق المستقيم ، وأن لا ينحرف حتى لا يصل إلى الشقاء الأبدي .

(من كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضلُّ سبيلاً)[7] ؛ ومن لم تحصل له تخلية النفس ، من الأوهام والتخيلات الدنيوية ، لن يتم للنفس الفيوضات القدسية ، كما المرآة ، إن لم تنظَّف من الكدورات والأوساخ عنها ، لن تعكس الصورة الحقيقية .

المواظبة على الطاعات الظاهرة ، لا تنفع ما لم تتطهر النفس من الصفات المذمومة ، كالكبر ، والحسد ، والرياء، وطلب الشهرة .

وأي فائدة من تزيين الظواهر مع إهمال البواطن . ومثل من يواظب على الطاعات الظاهرة ، فهو يشبه قبور الموتى ، ظاهرها مزيَّن ، وباطنها جيفة . أو كمن يقطع العشب الفاسد ، ويبقي الجذور الفاسده في باطن الأرض ، لأنها ستنبت من جديد .

الأخلاق الذميمة في القلب ، هي مغارس المعاصي ، فمن لم يطهَّر قلبه منها ، لم تتم له الطاعات

الظاهرة ، فالمريض بالجرب لن ينفعه الطلاء الخارجي ما لم يأخذ الدواء الشافي وعندما تتخلى النفس ، عن مساوئ الأخلاق ، نظرياً وعملياً ، تستعد لقبول الفيض من رب الأرباب ولا يبقى بينها وبينه حجاب ، فترتسم فيها صور الموجودات ، وتفهمها بشكل كليّ ، وبالحدود اللازمة .

وعند ذلك ، يصح الإنسان موجوداً تاماً ، أبدى الوجود سرمدي البقاء ، فائزاً بالمرتبة العليا ، والسعادة القصوى ، وقابلاً للخلافة الإلهية ، ويصل إلى اللذات الحقيقة ، والإبتهاجات العقلية .

الأخلاق الذميمة تحجب المعارف [8]

---

[6] (ص30)
[7] (الإسراء 72)
[8] (ص31)

الأخلاق المذمومة ، هي الحجب المانعة عن المعارف الإلهية والنفحات القدسية ، إذ هي كالغطاء والحجاب للنفوس ، فإن لم ترتفع عنها ، لم تتضح الأمور ، فالقلوب المشغولة بأمور شتى مختلفة مشوشة للعقل ، وللقلب ولا يرجى منها الفائدة ، هذه القلوب لا تدخلها معرفة الله وحبه وأنسه , وقد أشار النبي (ص) إلى ذلك بقوله : " لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماوات والأرض ".

فبقدر ما تتطهر القلوب من هذه الخبائث ، بقدر ما تدخل الأنوار الإلهية ، وتتضح لها الحقائق . وقد قال الرسول(ص) : " إن لربكم في أيام دهركم نفحات فتعَّرضوا لها ولا تعرضوا عنها " , فالقلوب عندما تتطهر من كدورات الأخلاق الرديئة ، فكل إقبال على طاعة ، وإعراض عن سيئة ، يوجب جلاءً ونوراً للقلب ، يستعد به لإفاضة علم يقيني ، ولذا قال الله عز وجل : (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا)[9] ؛ وقال الرسول (ص): " ومن عَمل بما علِم أورثه الله عِلم ما لا يعلم " , فالقلب إذا صفى من كدورات الطبيعة بشكل كليّ ، يظهر له من المزايا الإلهية والإفاضات الرحمانية ، ما لا يمكن لأعاظم العلماء .

وقد قال سيد الرسل : " إن لي مع الله حالات لا يحتملها ملك مقرَّب ولا نبي مرسل" , وكل سالك إلى الله ، يظهر له من الألطاف الإلهية والنفحات الغيبية على قدر إستعداده . والرحمة الإلهية غير محجوبة عن أحد ، ولكن حصولها موقوف على قدر تصقيل مرآة القلب وتصفيتها من الخبائث ، فإن تراكم الصدأ على القلوب ، يمنع هذه الأنوار ، لا لبخل من الله عزَّ شأنه عن ذلك ، بل الإحتجاب بسبب إشتغال هذه القلوب ، بما يمنع دخول الأنوار الإلهية .

إن ما يظهر للقلب من العلوم ، بعد تطهيره ، هو العلم الحقيقي النوراني الذي لا يقبل الشك . يقول الله تعالى : (إنما هو نور يقذفه الله في قلب من يشاء من عباده) .

يقول أمير المؤمنين(ع): " إن من أحب عباد الله إليه ، عبداً أعانه الله على نفسه ، فإستشعر الحزن ، وتجلبب الخوف ، فازدهر مصباح الهدى في قلبه " .

ثم قال : " لقد خلع سرابيل الشهوات ، وتخلَّى عن الهموم إلا هماً واحداً إنفرد به ، فخرج من العمى ومشاركة أهل الهوى ، وصار من مفاتيح الهدى ، ومغاليق أبواب الردى ، قد أبصر طريقه ، وسلك سبيله ، وعرف مناره ، وقطع غماره ، وإستمسك من العرى بأوثقها ، ومن الحبال بأمتنها ، فهو من اليقين على مثل ضوء الشمس " .

وفي كلام آخر قال(ع): " قد أحيا قلبه وأمات نفسه ، حتى برق له لامع كثير البرق ، فأبان له الطريق وسلك به السبيل ، وتدافعت به الأبواب ، إلى باب السلامة، ودار الإقامة ، وثبتت رجلاه لطمأنينة بدنه ، في قرار الأمن والراحة ، بما إستعمل قلبه وأرضى ربه ".

وقال(ع) : في وصف الراسخين في العلم :

---

[9] (العنبكوت 69)

" هجم بهم العلم على حقيقة البصيرة، وباشروا روح اليقين وإستلانوا ما إستوعره المترفون ، وأنسوا بما إستوحش منه الجاهلون ، وصحبوا الدنيا بأبدانٍ، أرواحها معلَّقةٌ بالمحلّ الأعلى".

إن العمل نفس الجزاء [10]

النفوس الإنسانية في أوائل فطرتها ، تكون صحائف خالية من النقوش والصور ، ولكن بعد ذلك ، يكون لكل قول أو فعل أثر في النفس ، وإذا تكررت هذه الأفعال والأقوال تصبح ملكات راسخة في النفس .

فتعليم الأطفال وتأديبهم يكون سهل ، ولكن تعليم الراشدين وردَّهم عن الصفات الحاصلة لهم يكون أصعب ؛ لإستحكامها ورسوخها . فإذا كانت هذه الملكات فاضلة ، كانت النفس خيرَّة ، مبتهجة ، وإن كانت رديئة ، تكون النفس متعذبة متألمة . وقول الله تعالى :

(وإن جهنم لمحيطة بالكافرين) [11] , أي في الدنيا والآخرة معذَّبة .
وقوله عز وجل: (لا تجزون إلا ما كنتم تعملون)[12] , إن الإنسان ، إذا حان وقت سفره إلى دار القرار، كُشِفَ عن بصره : (فكشفنا عنك غطائك فبصرك اليوم حديد)[13] . و يشاهد ثمرات أفكاره وأعماله ، فمن كان في غفلة ، عن أحوال نفسه ، مضيعاً لساعات يومه . يقول الله عز وجل :

(ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه، ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً) .

إن تحول الملكات الأخلاقية إلى صور روحانية باقية أبد الدهر ، موجبة إما للبهجة واللذة ، وإما للألم والعذاب , (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره)
في صحيفة نفسه . إن أسوء الناس حالاً ، من لم يعلم حقيقة الدنيا والآخرة ، وتضادهما ، وأفنى عمره في طلب الدنيا ، فكأنه يعلم خلوده فيها ، ولا يعتقد بما يرجوه المؤمنون من الخير الدائم في الآخرة ، فإن أدركه الموت ، مات على حسرة وندامة قائلاً : (يا حسرتي على ما فرطت في جنب الله) .[14]

التربية على الأخلاق [15]

الخُلقُ عبارة عن ملكة للنفس ، تقوم بالأفعال بسهولة دون حاجةٍ إلى تفكر ، فهو عندها سجيَّة ، وهذه الملكة هي كيفية نفسية بطيئة الزوال ، والخُلقُ هو مزاج طبيعي وسجية ، وإما مكتسب .

---

[10] (ص33)
[11] (التوبة 49)
[12] (يس 54)
[13] (ق22)
[14] (الزمر56)
[15] (ص37)

إن كل خُلقٍ قابل للتغيير ، فإنا نجد الشرير يصبح ، بمصاحبته الخيِّر خيِّراً ، والخيِّر بمجالسة الشرير شريراً ، والتأديب له أثرٌ عظيم في زوال الأخلاق السيئة ، ولولا ذلك ، لبطلت لغة الشرائع والديانات ، ولما قال الله تعالى : (قد أفلح من زكاها) . ولما قال النبي (ص) " حسّنوا أخلاقكم " ولما قال : " بعثت لأتمم مكارم الأخلاق " , ولبطل علم الطب للأمراض النفسية .

إن التغيير ممكن حتى للبهائم ، إذ ينتقل الكلب من حالة التوحش إلى حالة التأدب بيد صاحبه ، والفرس تتحول من الجماح إلى الإنقياد ، فكيف لا يمكن ذلك ، في حق الإنسان .

المراد من التغيير ليس إلغاء الغرائز كليَّاً ، كالغضب والشهوة ، فذلك محال ، لأنهما مخلوقتان لفائدة ضرورية في الحياة ، إذ لو إنقطع الغضب كلياً ، لم يدافع الإنسان عن نفسه في حالة الخطر ، ولما كان هناك جهاد ضد الكفار ، ولو إنعدمت شهوة الطعام لإنعدمت الحياة ، ولولا شهوة الجنس لضاع النسل ، بل المراد أن لا يكون إفراط ولا تفريط ، حالة الوسط بين الأمور ، ويمكن تعديل هذه القوى بترويض النفس والمجاهدة . فعلى الآباء تأديب الأطفال بترك الرذائل ، وعمل الفضائل ، والمؤدب الأول هو القانون الإلهي ، وتعليم المعارف الإسلامية والمواعظ الحكمية .

شرف علم الأخلاق وغايته [16]

علم الأخلاق هو الباعث للوصول إلى أعلى مراتب الإنسانية وهو أشرف العلوم وأنفعها .
إن علم الطب الأجسام يعالج الجسد ، الذي هو فانٍ في النهاية ولكن طب النفوس والأرواح ، والعروج من حالة الغرائز البهيمية إلى مقام الملائكة ، هو العلم الأسمى والأهم ، لذلك كان الحكماء يسموّن هذا العلم بالأكسير الأعظم . ويعتقدون أن المتعلِّم ، ما لم يهذب أخلاقه ، لا تنفعه سائر العلوم . إذا بالغنا في تغذية البدن أسأنا إليه ، كذلك النفس الغير نقية من الأخلاق الذميمة لا يزيدها تعلم العلوم إلا فساداً ، لذلك نرى أن أكثر الذين ، يدّعون أنهم علماء ، هم أسوأ حالاً من العوام وتجد أكثرهم منحرفين عن الأيمان والإسلام ، إما لشدة حرصهم على جمع المال ، أو لحب الجاه والمنصب ، أو لوقوعهم في الحيرة والشك والشبهة ، أو الميل لكثرة الجدال والمراء ، إظهاراً لتفوقهم

على الأقران ، وتجريحهم لكبار العلماء والحكماء ، وكأنهم لا يعلموا ، أن العلم بدون عمل مطابق لحسن الأخلاق هو ضلال , ولم يتذكروا قول النبي (ص) : " قَصَمَ ظهري عالم منتهك وجاهل متنسك " ؛ كل ذلك إلا لعدم سعيهم في تهذيب الأخلاق وتحسينها ، وعدم الإمتثال لقول الله تعالى : (وآتوا البيت من أبوابها)[17] .

النفس وأسماؤها وقواها الأربع [18]

---

[16] (ص40)
[17] (البقرة 189)
[18] (ص41)

النفس هي جوهر ملكوتي ، يستخدم البدن في حاجاته ، وهي حقيقة الإنسان وذاته ، والأعضاء والقوى آلاتُها التي يتوافق فعلها عليها .

لهذه النفس ، قوى أربع : قوة عقلية ، وقوة غضبية ، وقوة شهوية ، وقوة وهمية .

القوة العقلية: هي لإدراك الحقائق والأمور ، والتمييز بين الخيرات والشرور .

والقوة الغضبية: وهي إن لم تُهذَّب صارت أفعالها ، أفعال السباع ، من غضب وتوثّبّ على الناس بأنواع الأذى .

والقوة الشهوية : إذا بقيت بدون ترويض ، كان همُّها الجماع والأكل كالبهائم .

والقوة الوهمية : هي إستنباط المكر والحيل للوصول إلى أغراضها من ملذات ومظاهر دنيوية .

فإذا سيطرت القوة العاقلة على الثلاث الأُخر ، صارت " النفس مطمئنة " لسكونها تحت الأوامر والنواهي . وإذا لم تتم غلبتها ، كان بينها تنازع وتدافع ، وقد تحصل للنفس ندامة ، وتسمى " النفس اللوَّامة " , وإذا إنتصرت هذه القوى الثلاث وهزمت القوى العاقلة أصبحت النفس " الأمارة بالسوء " , وهذه الأسماء أُشير لها في القرآن الكريم : النفس المطمئنة ، والنفس اللوامة ، والنفس الأمَّارة بالسوء " .

القوة الغضبية : تدعو النفس إلى الظلم والإيذاء ، والعداوة والبغضاء .
والقوة البهيمية : تدعو إلى المنكر والفواحش والحرص على الأكل والجماع والقوة الشيطانية تهيج كلتاهما ولو كانت هذه القوى بأسرها تحت حكم العقل ، وقعت المسالمة والممازجة بين الكل ، وصار الجميع كالواحد تُستعمل كل واحدة منها ، في الأوقات المناسبة ، ويصدر عن كل منها ، ما خُلِقت لأجله ، فتصلح النفس وقواها , وينطبق عليها قول الله تعالى : (قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دسَّاها) [19] , وقال أمير المؤمنين (ع): " إن الله خصَّ الملائكة بالعقل دون الشهوة والغضب ، وخصَّ الحيوانات بالشهوة فقط ، وشرَّف الإنسان بإعطائه الجميع ، فإذا إنقادت شهوته وغضبه لعقله , صار أفضل من الملائكة ".

عندما يسيطر العقل ، لا ينخدع بخدائع الطبيعة ، ولا يحزن على فقد محبوب ، ولا فوق مطلوب ، وزالت عنه العوارض النفسية المؤلمة ، وصارمستعداً لتلقي المعارف الإلهية ، وصار يرى الحقائق بعقله وقلبه ، كما كان بفطرته السليمة . وإذا بلغ هذه المرتبة ، فقد فاز ووصل إلى كماله ، وفي نهاية المطاف إلى ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . يقول عز وجل : (فلا تعلم نفس ما أُخفي لها من قرة أعين)[20] .

الأقوال في الخير والسعادة [21]

[19] (الشمس 10)
[20] (السجدة 17)
[21] (ص46)

الغاية من تهذيب النفس عن الرذائل ، وتكميلها بالفضائل هو الوصول إلى الخير والسعادة , وقد قسم السلف من الحكماء ، الخير إلى قسمين :

الخير المطلق : و هو وصول كل شخص بحركته الإرادية إلى كماله الكامن في جبلته ، والفرق بين الخير والسعادة ، هي أن حقيقة الخير لا تختلف بالنسبة إلى الأشخاص ، ولكن السعادة تختلف بالقياس عليهم , يقول : " أرسطو طاليس " إن الخير المطلق هو الكمالات النفسية .

والخيرالمضاف : هو العلم والصحة وأمور أخرى منها الثروة .

أما الحكماء الأقدمين فقد حصروا السعادة في الأخلاق الفاضلة وكانت حُجتهم ، هي أن الإنسان هو النفس الناطقة والبدن آلة لها ، ولكن " أرسطو " وأتباعه قالوا إن السعادة ، هي تكون راجعة إلى الشخص ، سواء تعلقت بنفسه أو بدنه ، لأن كل ما يلائم جزء معين ، فهو سعادة جزئية بالنسبة له ، ويجب أن تحصل عوامل كثيرة عند الشخص من الأمور التي تحيط به ، كالأعوان والحظ السعيد وأمور خارجية مساعدة ، لا ترجع إلى النفس ذاتها ، وأيضاً الصحة والمزاج المعتدل والحكمة والأخلاق الحميدة ، وبقدر ما تنقص هذه الأشياء من حياة الإنسان ، يحصل النقص في السعادة وقالوا أيضاً أن قمة وكمال هذه السعادة ، هي أن يفيض الله سبحانه وتعالى على عباده المواهب والإشراقات العلمية والعقلية بدون سبب ظاهر ، ثم إن الأقدمون قالوا لا علاقة للبدن بالسعادة ، وإن السعادة العظمى لا تحصل للنفس ما دامت متعلقة بالبدن ، وملوثة بكدورات الطبيعة المادية .

والمعلم الأول (أرسطو) وأتباعه قالوا أن السعادة العظمى تحصل للنفس مع تعلقها بالبدن ، ولكن عندما تستجمع الفضائل كلها , وتبدأ العمل لتوصل هذا الكمال إلى غيرها ، ومن القبح أن يقال أن الإنسان لا يستطيع الوصول إلى الكمال إلا بعد الموت ومفارقة الجسد ، فالسعادة لها مراتب ، ويحصل للنفس الترقيّ في مدارجها بالمجاهدة ، إلى أن تصل إلى تمام كمالها ، وقد يحصل ذلك قبل الموت ، وتكون باقية بعد الموت .

أما حكماء الإسلام المتأخرون ، فقد قالوا إن السعادة ، لا تتم إلا بإجتماع ما يتعلق بالروح والبدن , وبعد الموت تبقى السعادة متعلقة بالنفس بالملكات الفاضلة والعلوم الحقة اليقينية ، ومعرفة الله ، إن السعادة التي تتحقق للأبدان ، من مال وأعوان وغير ذلك ، فهي آلة لتحصيل السعادة الحقيقية ؛ ولا يقول عاقل ، أن الصحة الجسمية والحطام الدنيوي هو سعادة ، إذا جعلت وسيلة لإكتساب سخط الله وعقابه وأضحت , حجاباً تمنع الوصول إلى دار كرامة الله وثوابه .
وظهر أن الجميع يقولون ، بأن الخير والسعادة ، هي بالمعارف الحقَّة ، والأخلاق الفاضلة ، ويترتب عليها الأنس والسعادة العقلانية واللذات الروحية .

لا تحصل السعادة إلا بإصلاح جميع الصفات والقوى

لا تحصل السعادة إلا بإصلاح جميع الصفات والقوى بشكل دائم ، فلا تحصل بإصلاحها بعضاً دون بعض ووقتاً دون وقت . فالسعيد المطلق ، من أصلح جميع صفاته وأفعاله على وجه الثبوت والدوام ، بحيث لا يغيّره تغيُر الأحوال والأزمان ، فلا يزول صبره بحدوث المصائب والفتن , ويشكر ربه في النوائب والمحن ، ولا يذهب يقينه ، بكثرة الشبهات ، ولا رضاه بأعظم النكبات ، ولا إحسانه إلى من ساء إليه ، ولو أصابه ما أصاب أيوب النبي (ع) لشهامة ذاته ، ورسوخ أخلاقه وصفاته ، وعدم مبالاته بعوارض الطبيعة ، وإبتهاجه بنورانيته وملكاته الشريفة ، فهو متعال ، ومتجرد عن كل ما هو مادة أو جسم ، حتى تأثير الكواكب والأجرام ، وربما بلغ تجرد هؤلاء إلى مرتبة تحصل لهم ، ملكة الإقتدار على التصرف في الكائنات والأفلاك ، كما حصل لفخر الأنبياء وسيد الأوصياء صلوات الله عليهما من شق القمروردّ الشمس ؛ السعادة الواقعية إنما هو صيرورة الأخلاق الفاضلة ملكات راسخة ، لا تغيرها المتغيرات ظاهراً وباطناً .

غاية السعادة [22]

وصف الحكماء ، بأن غاية السعادة ومراتبها ، هو التشبه بالجميل المطلق ، لا لجلب منفعة أو دفع مضرَّة ، وإنما التطهر من جميع الخبائث النفسية ، والإمتلاء بالأنوار الإلهية ، والمعارف الحقيقية الواقعية ، فيصير الشخص عقلاً محضاً ، وحينئذ يكون له أسوة حسنة بالله سبحانه ، وتصير أفعاله شبيهة بأفعال الله تعالى ، وتصبح أفعاله حسنة بمقتضى الحُسن ، ولا يصدر عنه إلا الجمال من دون داع خارجي ، فتكون ذاته غاية فعله ، وإن ترشحت منه الفوائد الكثيرة على الغير ، بالقصد الثاني وبالعرض .

وعندما يصل إلى هذه المرتبة يشمئز طبعة من اللذات الحسيَّة الحيوانية ، لأن من أدرك اللذة الحقيقية ، علم أنها لذةٌ ذاتية ، أما اللذة الحسيَّة فهي ليست لذة واقعية ، لأنها تذهب وتندثر ، وهي لرفع حاجة جسدية مؤقتة .

القوى الأربع لها لذة وألم [23]

عرفنا أن في النفس قوى اربعة ، العقلية ، والوهمية ، والغضبية ، والشهوية ؛

لكل واحدة من هذه القوى لذةٌ وألم .

غريزة العقل : خُلقت لمعرفة حقائق الأمور ، ولذّتها في المعرفة والعلم ، وألمها في الجهل .

غريزة الغضب : لذّتها الغلبة وألمها في عدم الإستطاعة .

---

[22] (ص49)

[23] (ص49)

غريزة الشهوة : لذّتها بالغذاء وألمها في عدم نيله .
غريزة الوهم والخيال : لذتها ببعض الأمور الظاهرية ، وألمها في عدم الحصول عليها .

إن أقوى اللذات ، هي اللذة العقلية ، لأنها فعلية ، وغير متعلقة بالجسد وغير زائلة بتغير الأحوال وأما بقية اللذات ، فهي زائلة ، إما بالضعف ، وإما بالفناء ، ويظهر متجهاً عند العقل ، في حال أدرك المراتب العالية من الأخلاق السامية ، وتتزايد القوة العقلية لتصل إلى أقصى المراتب ، ولا يكون نقص ولا زوال ، وبعد حصولها ، يظهر حسنها وشرفها . والعجب ممن يظن ، أن اللذّة الحسيَّة هي سعادة للإنسان ؛ والعجب أيضاً ممن ظن , أن لذات الآخرة هي في الجنَّة والحور العين والغلمان والقصور المشيدَّة ، وكيف يكونوا هؤلاء من أهل التقرُّب إلى الله ، وكأنهم لم يدركوا ، أن الإبتهاجات الروحية ، ولذّة المعرفة هي بالله وحبَّه وأنسه .

ولم يسمعوا قول سيد الموحدين أمير المؤمنين (ع) يقول :

" إلهي ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنتك ولكن وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك " .

وكيف يرضى الإنسان العاقل ، أن يجعل نفسه الشريفة ، خادمة للنفس البهيمية الخسيسة . ومما يدل على قبح اللذات الحيوانية ، أن أهلها يكتمونها ويخفون إرتكابها ، ويستحون من إظهارها ،

فالبديهية تحكم بأن هذه اللذات الحسيَّة ليست حقيقية ؛ إن الكمال الحقيقي ، والخير المطلق ، هو ما يكون كمالاً وخيراً أبداً . إن من كان عاقلاً غير عدوّ لنفسه ، وجب عليه أن يصرف جلَّ وقته وهمَّه في تحصيل السعادة العلمية ، والعمليّة ، وإزالة النقائص الكامنة في نفسه ، ويقتصر على حاجات جسمه بقدر الضرورة , وأن يبادر إلى تحصيل السعادات قبل أن تستحكم فيه ، الملكات المهلكة ، والعادات المفسدة .

وقد قال الشيخ الفاضل " أحمد بن مكويه " وهو أستاذ علم الأخلاق ، وأقدمهم في تدوينه :

" إني تنبهت من نوم الغفلة بعد الكِبَر وإستحكام العادة وتوجهت ، إلى تربية نفسي ، وجاهدت جهاداً عظيمًا ، حتى وفقني الله ، في إستخلاصها عما يهلكها ، فلا ييأس أحد من رحمة الله ، فإن النجاة لكل طالب مرجوَّة ، وأبواب الإفاضة مفتوحة " من العلي القدير .

الباب الثاني [24]

تفصيل أقسام الأخلاق : إذا كانت حركات النفس الأربعة : العاقلة ، والعاملة ، والشهوية ، والغضبية ، على وجه الإعتدال ، وكانت الثلاث الأخيرة مطيعة للأولى ، وإقتصرت من الأفعال على ما تعيَّن لها ، حصلت لها فضائل ثلاث ؛ وهي : الحكمة ، والعفة ، والشجاعة .

الحكمة : وهي معرفة الموجودات على ما هي عليه .

والعفّة : هي إنقياد القوة الشهوية للعاقلة ، تأمرها وتنهاها للتخلص ، من أسر عبودية هوى النفس.

[24] (ص45)

والشجاعة : وهي سيطرة القوة العاقلة ، على القوة الغضبية وأمرها بالإقدام أو الأحجام ، وعدم الإضطراب ، والصبر المحمود .

أما العدالة : فهي إئتلاف جميع القوى وإتفاقها ، وإمتثالها للعقل ، بحيث يرتفع التخالف والتجاذب ، وتحصل لكل منها الفضيلة المختصة بها ، وهو كمال لجميعها ؛ والعدالة إنقياد العقل العملي ، للعقل النظري , وقد أدرج تحت عنوان العدالة : الوفاء والصداقة والعبادة ؛ وإذا حصلت الملكات الثلاث: العفة ، والحكمة ، والشجاعة , حصل للعقل العملي قوة الإستعلاء والتدبيرعلى جميع القوى بحيث كانت منقادة له وعند ذلك تضبط قوتي الغضب والشهوة تحت إشارة العقل .

إنقياد العقل العملي للعقل النظري

إن الرذائل والفضائل متعلقة بإحدى قوى النفس , فالجهل والعلم متعلقان بالقوة العاقلة ,

والغضب والحلم بالقوة الغضبية , والحرص والقناعة بالقوة الشهوية ؛ ومن الرذائل مثلاً : حب الجاه وطلب المنزلة في القلوب ، إن كان المقصود منه الإستيلاء على الخلق والتفوّق عليهم ، كان من رذائل قوة الغضب ، وإن كان المقصود طلب المال لتحقيق الشهوات ، كان من رذائل الشهوة ، وكذلك الحسد ، وهو تمني زوال النعمة عن الغير ، فهو من القوة الغضبية , والغرور وهو سكون النفس إلى ما يوافق الهوى ، وتميل النفس إليه بخدعةٍ من الشيطان ، وإن كانت النفس تميل إلى الشهوة ، وإعتقدت جهلاً بأنه خيراً لها ، كان ذلك من رذائل قوة الشهوة .

العقل النظري هو المدرك للفضائل والرذائل

إن كل واحد ، من العقل العملي ، والعقل النظري هو رئيس مطلق من وجه .
فالعقل العملي ، هو إستعمال جميع القوى على النحو الأصلح ، موكول إليه وهو المنفذ ,
وأما العقل النظري ، فهو التحلي بمعرفة الحقائق وإدراك الخير والصلاح ، وهو المرشد والدليل للعقل العملي ، في تصرفاته وإن كمال العقل العملي ، يعتمد على إكتمال العقل النظري .

الفضائل بمنزلة الوسط والرذائل بمنزلة الأطراف [25]

إن مقابل كل فضيلة ، رذيلة ضدها فالفضائل بشكل عام أربعة ، والرذائل أربعة ,
فالحكمة : ضدها الجهل ؛ والشجاعة : ضدها الجبن ؛ والعفة : ضدها الشره ؛ والعدالة : ضدها الظلم والجور ؛ وعند التحقيق ، يظهر أن لكل فضيلة ، حدّاً معيناً ، والتجاوز عنه بالأفراط أو التفريط يؤدي إلى الرذيلة ، فالفضائل بمنزلة الأوساط ، والرذائل بمنزلة الأطراف ، والوسط واحد معيَّن ، والأطراف غير متناهية .

الفضيلة بمنزلة مركز الدائرة ، والرذائل حولها ؛ ومجرَّد الإنحراف عن الفضيلة في أي طرف ، يوجب الوقوع في الرذيلة . والثبات على الفضيلة والإستقامة ، يكون سلوك وسير

[25] (ص60)

على خط مستقيم , وهو أقصر الخطوط الواصلة بين نقطتين ، وهو لا يكون ، إلاً واحداً ، ونهج واحد ، والإنحراف له مناهج غير متناهية ، ولذلك غلبت دواعي الشر على بواعث الخير .

وقد أمُر الرسول (ص) في قوله تعالى : (فإستقم كما أمُرت)[26]؛ فالصراط المستقيم ، الممدود كالجسرعلى الجحيم ، صورة لتوسط الأخلاق ، والجحيم صورة لأطرافها ، فمن ثبَّت قدمه على الوسط هنا في الدنيا ، لم يزل على الصراط هناك ، ووصل إلى الجنَّة التي وعدها الله للمتقين ، ومن مال إلى الأطراف هنا ، سقط هناك في جهنم التي أحاطت بالكافرين ؛ فالوسط والإعتدال مطلوب ، للملكات الأخلاقية ، بلا إفراط أو تفريط ، بحيث يصبح الشخص باقياً على كماله اللائق به ، وعُدَّ ذلك من الأوساط والفضائل ، بحيث لا يظهر خلل في أفعاله .

الرذائل وأنواعها

الإنحراف عن الوسط ، إما إلى طرف الإفراط ، أو إلى طرف التفريط . ومقابل كل فضيلة نوعان من الرذيلة , مثلاً :

مقابل الحكمة : تكون السفسطة ، والجهل .

السفسطة : هي إستعمال الفكر في ما لا ينبغي ، والزيادة في ذلك ، وهو إفراط .

والجهل : تعطيل القوة الفكرية ، وعدم إستعمالها فيما ينبغي أو أقل منه ، وهو تفريط .

لأن حقيقة الحكمة ، هو العلم بحقائق الأشياء ، على ما هي عليه ، ويعتمد في ذلك على القوة العاقلة ، فإذا صار خارجاً عن الإعتدال ، يخرج عن الحد اللائق ، ويستخرج أموراً غير مطابقة للواقع ، والعلم بهذه الأمور هو ضد الحكمة , وهو إفراط .

الفرق بين الفضيلة والرذيلة [27]

إن للفضائل ملكات ، لها آثار معلومة ، وربما صدر عن الناس ، أفعال شبيهة بالفضائل ، ولكنها ليست كذلك ؛ مثلاً : فضيلة الشجاعة , فالخوض في الحروب العظيمة وعدم المبالاة بمصير الناس والقتل لتحصيل المال والجاه فهذه لا تصدر عن ملكة الشجاعة ، ولكن منشأها حب الشهوات ، وحب السيطرة ، وطبيعة القوة وحب الغلبة . أما الشجاعة الحقيقية ، فهي بالجهاد والذودّ عن الدين والعقائد الحقَّة ، والشجاع يكون إيمانه صحيح وثابت ، وهويقاتل ليدافع عن المظلومين والمستضعفين ، ويضحي بنفسه من أجل غيره ؛ وأكبر مصداق عن الشجاعة هو أمير المؤمنين , وسيد الشجعان(ع) الذي يقول : " أيها الناس إن لم تُقتلوا تموتوا ، والذي نفس إبن أبي طالب بيده ، لألف ضربة بالسيف أهون من ميتة على الفراش " ؛ فالشجاعة هي فضيلة ، عندما تكون في موقعها

[26] (سورة هود 112)
[27] (ص68)

الصحيح ، والشجاع عنده قوة التحمل والصبر على المصائب والشدائد ، لا يضطرب عند الصعوبات ، وإذا غضب لا يتهور ، بل يكون فعله مقصوراً على ما يستحسن عقلاً وشرعاً .

العدالة أشرف الفضائل [28]

العدالة أشرف الفضائل ، بل هي كل الفضائل ، كما أن الظلم هو كل الرذائل ؛ العدالة هي حالة يقتدر صاحبها ، على تعديل جميع الصفات ورد الزائد والناقص إلى الوسط . ومنع الإختلاف بين القوى المتعادية ، فيمتزج الكل بفضيلة واحدة ، فجميع الفضائل مترتبة على العدالة ، ولذا قال أفلاطون : " إذا حصلت العدالة للإنسان ، أشرقت نفسه وإستضاءت من مبدعها وخالقها " .

ومن خواص العدالة ، أنها اقرب إلى الوحدة ، فتصير المختلفات متحدة ، وإذا توحدت كملت ، فالصفات المتقابلة ، متناسبة مسالمة ، والنغمات والإيقاعات منسجمة . إن اشرف الموجودات ، هو الواحد الحقيقي الذي هو موجد الكل ومُبدؤه ، صفاته متناغمة ومتحدة ، وتعلق النفس الربانية بالبدن ، إنما هو لحصول هذا الإعتدال ، ولذلك يزول تعلقها به بزوال العدالة ، والنفس عاشقة تلك النسبة الشريفة أينما وجدت .

الكثرة والنقصان والزيادة ، تفسد الأشياء ، إذا لم يكن بينها تناسب يحفظها بالإعتدال والوحدة ، ومقام العدالة ، تفوح منه نفحات قدسية ، تهتز فيها النفوس الطاهرة الزكية .
العدالة هي العمل بالمساواة ، وتتعلق هذه المساواة ، بالأخلاق والأفعال ، وبالكرامات والأموال ، وبالأحكام ، والسياسات . والعادل يجعل التساوي ، بين كل واحد من هذه الأمور ، برد الأفراط والتفريط إلى الوسط ، والعدالة مشروطة بالعلم ، وهذا العلم لا يتيسر إلا بالرجوع إلى الميزان الإلهي , وهو ميزان الشريعة . فالعادل يجب أن يكون حكيماً عالماً بالنواميس الإلهية الصادرة من عند الله سبحانه ، لحفظ المساواة .

وقد ذكر العلماء أن العدول ثلاثة :

- العادل الأكبر وهو الشريعة الإلهية .

- والثاني الحاكم العادل الذي هو خليفة الله .

- والثالث هو توزيع الثروة والحقوق بالعدل والمساواة .

والإنسان مدنيّ، بطبعه يحتاج افراده بعضهم إلى البعض الآخر ، فالمزارع يحتاج إلى التاجر ، والنجار يحتاج إلى الدهَّان ، ويجب أن يكون مساواة وعدل بين الجميع ، كل حسب موهبته ومهنته ، حتى لا يحصل الخلاف .

---

[28] (ص70)

وقد أشير إلى العدول والعدل في الكتاب الإلهي بقوله سبحانه : (وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس)[29] , أي أنزل الله مع الأنبياء الكتاب وهو إشارة إلى الشريعة والميزان ، يعني إلى إقامة العدل بين الناس ، والحديد يدل إلى سيف الحاكم العادل ، المقوَّم للناس ، لتعمِّ العدالة ، التي هي حالة الوسط بين الأمور والمساواة .

إصلاح النفس قبل إصلاح الغير [30]

حقيقة العدالة ، هو أن يغلب العقل الذي هو خليفة الله على جميع القوى ، حتى لا يفسد النظام العالمي الإنساني ، فإذا تضادت القوى وتغالبت ، أحدثت بإضطرابها وإختلافها ، أنواع الشر , كل واحد منها يجذب الآخر حسب هواه ، فتنقطع القوى وتندثر .

فعلى كل إنسان ، أن يجاهد حتى يغلب عقله الذي هو الحكم العدل ، ويقيم الجميع على الصراط المستقيم ؛ ثم إن كل شخص لم يعدل بين قواه وصفاته ، لم يتمكن من أن يعدل بين شركائه في المنزل والبلد ، إذ أن العاجز ، عن إصلاح نفسه ، كيف يقدر إصلاح غيره ,
أما من عدَّل قواه وصفاته ، وإجتنب الأفراط والتفريط ، وإستقر على جادة الوسط ، فهو خليفة الله في أرضه ، فإذا كان حاكماً عادلاً ، صلحت به أمور العباد ، ودامت بركات السماء والأرض ,
ومع جور الحاكم ، تتكاثر الفتن والمحن ، لذلك لو نظرنا إلى زماننا هذا , لم نجد بين الناس إلا القليل الذي تمكن من إصلاح نفسه ، وكان يومه خير من أمسه ، بل لا تجد صاحب دين إلا وهو باكٍ على فقد الإسلام وأهله , وهذا ما أخبر عنه سيد الأنام وعترته الأبرار عليهم السلام :
" أنه لا يبقى من الإسلام إلا إسمه ولا من القرآن إلا رسمه " .

لا حاجة للعدالة مع رابطة المحبة [31]

لو إستحكمت رابطة المحبة ، وعلاقة المودة بين الناس لم يحتاجوا إلى احكام العدالة وقوانينها ، فإن أهل المحبة والإيثار ولو كان بهم خصاصة ، فكيف يجور بعضهم على بعض، لأن رابطة المحبة أقوى من رابطة العدالة ، فالمحبة السلطان المطلق ، والعدالة نائبها وخليفتها .

إكتساب الفضائل بالتدرج [32]

عندما يولد الطفل ، تكون في البداية عنده قوة الشهوة ، ثم قوة الغضب ، ثم قوة التمييز ,
علينا أن نأخذ نفس الأسلوب في الخلق الطبيعي ، فنهذب أولاً قوة الشهوة ، لنكسب العفةّ ، ثم قوة

---

[29] (الحديد آية 25)
[30] (ص75)
[31] (ص76)
[32] (ص77)

الغضب ، لنكتسب الشجاعة ، ثم قوة التمييز لنكتسب الحكمة . فمن حصل على هذا الترتيب في تحصيل الفضائل ، فلا يظن أن تحصيلها بدون ترتيب متعذر ، فهو ممكن ولكن يتم بصعوبة أكبر.

ثم إن بعد الحصول على الفضيلة، علينا أن نحفظها ، ونبقيها ، إن حفظ الفضائل ودفع الرذائل ، مشابه لعلم الطب ، من حيث إنقسامه إلى قسمين ، الطب الروحاني والطب الجسماني فالطب الروحاني ، هو العمل على إكتساب الفضائل ، والمحافظة عليها ، والطب الجسماني ، في الوقاية من المرض ، وعلاجه ، وقد كتب جالينوس إلى روح الله عيسى (ع) :
" من طبيب الأبدان إلى طبيب النفوس ".

الباب الثالث [33]

طرق الحفاظ على إعتدال الاخلاق والحصول عليها .

من هذه الطرق :

- إختيار مصاحبة الأخيار ، وإجتناب مجالسة الأشرار وذوي الأخلاق السيئة.

- مصاحبة من هو الأقوى في الثبات على أخلاقه وصفاته الجيدة ، فالطبع يسترق ، من الطبع الآخر ، كلاً من الخير والشر ، والسبب أن النفس الإنسانية ، ذات قوى ، بعضها يدعو إلى الخيرات والفضائل ، وبعضها يدعو إلى الشرور والرذائل ؛ ولكن دواعي الشر أكثر من دواعي الخير، والميل إلى الشر أسهل ، ولذا قيل أن تحصيل الفضائل بمنزلة الصعود إلى الأعالي ، وكسب الرذائل بمنزلة النزول منها . ولذلك يقول الرسول (ص) " حُفَّت الجنة بالمكاره ، وحُفَّت النار بالشهوات " , والحفاظ على الخلق الحسن ، يقتضي المواظبة على الأفعال الحسنة ، فالذي يريد أن يحافظ على ملكة الجود والكرم ، عليه أن يواظب على إنفاق المال وبذله للمستحقين ، ويقهر نفسه عندما يجدها تميل إلى البخل . والذي يريد أن يحافظ على الشجاعة ، عليه أن يقدم على المخاطر ولكن بشرط طاعة العقل والشرع ، وأن يغضب على نفسه في حالة الجبن ، وهكذا الحال في سائر الصفات ، وهذا هو ترويض النفس ، وهي بمثابة الرياضة الجسمانية في حفظ الصحة البدنية.

- وأن يكون متروَّياً في كل ما يفعله ، لئلا تصدر عنه أفعال خلاف ما تقتضيه الفضيلة ، وليؤدب نفسه بعمل أشياء مضادة لكل ما يضرُّه . فليؤدب نفسه بالصوم إذا إستسلم أحياناً لشهوة الأكل ، وإذا صدر عنه غضب مذموم ، فليؤدب نفسه بدفع مال ، بنذرٍ أو صدقة .

---

[33] (ص79)

- وينبغي ألا يترك السعي في تحصيل الفضائل ، لأن التعطيل يؤدي إلى الكسل ، وإلى إنقطاع الفيوضات الإلهية .

- وأن يبعُد عن الكذب ، وينفُر من الباطل ، ويتصاعد في مدارج الكمالات ومراتب السعادات ، حتى تنكشف له الأسرار الإلهية ، وينخرط في سلك الملائكة ، وأن يكون سعيه في أمور الدنيا بقدر الضرورة ، ويحرِّم على نفسه تحصيل الزائد منها ، لأن صرف الوقت الثمين على الحصول لحطام زائل ، يفوِّت على نفسه الكثير من الأمور التي هو بحاجة إليها لسعادته في الدنيا والآخرة .

- وأن يحترز مما يهيِّج شهوته ، وغضبه ، إن كان رؤيةً أو سماعاً ، أو تخيُّلاً .

- وأن يتقصى خفايا عيوب نفسه وإذا عثر على شيئ منها إجتهد في إزالته ، ولأن النفس عاشقة لذاتها وأفعالها فكثيراً ما يخفى عليها بعض عيوبها ، وعلى كل ساعٍ وطالب لتربية نفسه وتهذيبها، أن يختار بعض أصدقائه الموثوق بهم أن يفتشوا عن عيوبه ويخبروه بما إطلعوا عليه ، وإذا أخبروه بشئ منها فليفرح ، وليبادر إلى إزالتها ، حتى يثقوا به وينصحوه ، وليعلم إن إهداء شيئ من عيوبه إليه أحسن عنده من كل ما يحب ويهواه ، وربما كان العدوّ في هذا المجال أحسن من الصديق ، لأن الصديق ربما يستر العيب ولا يظهره ، ولكن العدوُّ يُصرّ على إظهاره ، فإذا أظهر الأعداء عيوبه فليشكر الله على ذلك ، وليبادر إلى رفعها وقمعها .

ومما ينفع في هذا المجال ، ملاحظة عيوب الغير ، فإذا كان يراها قبيحة ، فليحمي نفسه منها .

قانون العلاج في الطب الروحاني [34]

إن للطب الروحاني قانون كما للطب الجسماني ، في معالجة الأمراض. في البداية يجب أن يعلم جنس المرض أولاً ، ثم الأسباب والعلاقات ، ثم يبين كيفية العلاج ؛ والعلاج عادة يكون إما كلِّي أو جزئي يختص بمرض معين .

طريق معرفة الأمراض النفسية

الأمراض النفسية هي إنحرافات الأخلاق عن الإعتدال ، وطريق معرفتها : قد سبق وعلمنا أن القوى النفسية ثلاثة :

قوة التمييز ، وقوة الغضب ، وقوة الشهوة ، وإنحراف كل واحدة منها ، إما بالكمية أو الكيفية ، أي بالزيادة أو بالنقصان . ومرض كل واحدة من هذه القوى يظهر :

[34] (ص81)

فالإفراط في قوة التمييز ، مثل السفسطة ، والدهاء ، والمبالغة في التنقير ، وكثرة الإنتقاد ، والوقوع في الشبهات الواهية ، وإعمال الذهن في إدراك ما لا يمكن إدراكه .

والتفريط : كالبلاهة ، وقصور النظر في إدراك الواجبات ، والرداءة كالسفسطة في الإعتقاد ، والميل إلى العلوم الغير يقينية ، كعلم الجدل والخلاف أكثر من الميل إلى اليقينيات ، وإجراء أحكام المحسوسات على المجردات الغيبية .

أما الإفراط في الغضب : حب الإنتقام ، والغيظ ، بحيث يتشبهَّ بالسباع أو التفريط : كعدم الحميَّة والغيرة ، وعدم حمل المسؤولية ، والتشبه بالأطفال في الأخلاق والصفات .

والإفراط في قوة الشهوة : الحرص على زيادة الأكل وممارسة الجنس أو التفريط ، كالفتور عن تحصيل القوت الضروري ، وخمود الشهوة بحيث ينقطع عنه النسل .

أسباب الأمراض النفسية

أسباب إنحراف الأخلاق يكون ، إما وراثة ، وإما مكتسبة والسر في ذلك ، إن النفس متعلقة ومرتبطة بالبدن ، كل واحد يتأثر بالآخر ، وكل كيفية تسري في البدن تؤثر في الروح , فالغضب مثلاً يسبب إضطراب البدن وإرتعاشه ، وهذا يسبب إضطراب الروح والنفس .
إن بعض الأمراض السوداوية ، كالخوف ، والجبن ، وسوء الظن ، والتهور ، تسبب رداءة الأخلاق ، وفساد الإعتقاد ؛ و العلاج : إذا كان المرض جسمياً ، فيجب معالجته بالطب والغذاء والرياضة والحميَّة ؛ وكذلك معالجة الأمراض النفسية ، تكون بإزالة كل ملكة أخلاقية سيئة ، والعمل على إكتساب فضيلة مقابلها ، وهذا يتطلب مجاهدة النفس وترويضها على مخالفة هواها .

معالجة السفسطة

وهي خروج الفكر والذهن عن الحد اللائق ، وينتج عنه أمور غير مطابقة للواقع ، وعدم الوصول إلى الحق ، وربما أدى ذلك إلى الإلحاد وفساد الإعتقاد ، بل إلى نفي حقائق الأشياء وإلى الوسوسة , وعلاجه يكون بتكلف النفس على الإستقامة ، حسب الأدلَّة المعتبرة عند أولي العقول المستقيمة ، وعدم التجاوز عن معتقدات أهل الحق المعروفين بالصدق والثبات ، والمثابرة على القيام بهذه المعتقدات الحقة ، على طريق الإعتدال والوسط .

الجهل البسيط : الجهل هو خلو النفس من العلم ، والجاهل يعلم بحاله أنه ، لا يعرف أمور كثيرة ومنها المعتقدات والمعارف الأخرى ، وهو لم ينهض لتحصيلها ، والثبات على هكذا حاله ، هو من المهلكات العظيمة والطريق إلى إزالة هذه الحالة يكون :

- أن ينتبه الشخص إلى قبح الجهل لأنه منقصة للعقل ، وعليه أن يعلم أيضاً أن الجاهل ، ليس إنساناً بالحقيقة لأن فضل الإنسان على الحيوان ، إنما هو بالإدراك والعلم ، ولأن الإنسان يشارك الحيوان في أمور كثيرة ، ولكنه يختلف عنه بالعلم وإدراك الحقائق ، فالجاهل يخرج عن حدود الإنسانية ، ويقترب من حدود البهيمية ، فعلى كل إنسان لم يحصّل العلم وأن يستيقظ من الغفلة ، ويجتهد في تحصيل العلم من أهله .

فضل العلم [35]

العلم هو أفضل وأشرف الكمالات والفضائل ، وهو إحدى الصفات الإلهية ، وهو الموصل إلى معرفة الله ، وإلى السعادة الأبدية ، وقد اثبت العلماء والفلاسفة والحكماء ، أن العلم والروح متلازمان ، فكلما إزداد الإنسان علماً ، كلما إزدادت النفس تجرداً وعلواً ، وأصبحت تحلق في عالم الملائكة . ومن جملة العلوم معرفة الله خالق كل شيئ ، وهو يقول في الحديث القدسي : " كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق " .

ولن نعرف الله إلا بالعلم ، والعلم لذيذ في نفسه محبوب في ذاته ، والسر في تلك اللذة ، أن إدراك الأشياء والإحاطة بها نوع من التملك لها والتصرف فيها . نقول أن الله مالك الملك ، والنفس تصبح على نحو ما مالكة لبعض هذا الملك ، لانها سنخ من عالم الربوبية ,
(ونفخت فيه من روحي) , ومن معاني الربوبية ، الكمال والإقتدار والغلبة على الأشياء ، ثم إن فوائد العلم في الدنيا ، العز والإحترام عند الأخيار والأشرار ، فإن أطباع البشر مجبولة على تعظيم أهل العلم وتوقيرهم ، ووجوب طاعتهم، وإحترامهم ، بل إن جميع الحيوانات والبهائم والسباع مطيعة للإنسان مسخَّرة له ، لإختصاصه بقوة الإدراك والتمييز، ولو راقبنا الناس ، إن ما من أحد تفوق على غيره في جاه أو مال أو حكمة ، إلا لأن ذلك يرجع لإختصاصه لمزيد من العلم ، إن الآيات القرآنية والأخبار والروايات عن الرسول والأئمة وأهل العلم , أكثر من أن تحصى : يقول الله تعالى : (إنما يخشى الله من عباده العلماء) , ويقول تعالى :
(وهل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون)[36] , وقوله تعالى : (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون) [37].

وقال الرسول (ص) : " جلوس ساعة في مذاكرة العلم أحب إلى الله من قيام ألف ليلة ,

يصلي في كل ليلة الف ركعة ، وأحب إليه من ألف غزوة في سبيل الله ، ومن قراءة القرآن كله ، وطالب العلم يحبه الله والملائكة والنبيون ولا يحب العلم إلا السعيد ، ويصبح ويمسي ,
وهو في رضا الله " . و قال أيضاً : " طلب العلم فريضة على كل مسلم ، فاطلبوا العلم من مضانَّة ، فطلبه عبادة ، والعمل به جهاد ، وتعليمه من لا يعلمه صدقة ، فهو الدليل على السراء والضراء ,

---

35 (ص85)
36 (الزمر 9)
37 (العنكبوت 43)

والسلاح على الأعداء ، العلم أحياء القلب من الجهل ، وضياء من الظلمة ، وقوة الأبدان ، به يطاع الرب ويعبد , وبه توصل الأرحام , و يُعرف الحلال و الحرام , يُلهمه السعداء، ويُحرمه الأتقياء , فطوبى لمن لم يحرمه الله من حظهِّ " .

وقال أمير المؤمنين(ع) : إن كمال الدين ، في طلب العلم والعمل به وإن طلب العلم أوجب من طلب المال ، وإن المال مقسوم ومضمون لكم ، قسَمةُ عادل بينكم ، والعلم مخزون عند أهله فإطلبوه " ؛ و قال : " إذا مات المؤمن وترك ورقة واحدة عليها علم تكون له حجاب من النار " , وقال زين العابدين(ع) : لو يعلم الناس ما في طلب العلم لطلبوه ، ولو بسفك المهج وخوض اللجج " .

وعن الباقر(ع) : عالم ينتفع في علمه أفضل من سبعين عابد " ؛ وقال الصادق (ع) : " لو يعلم الناس ما في فضل معرفة الله تعالى ، ما مدّوا أعينهم إلى ما مُتَّع به الأعداء من زهرة الحياة الدنيا ونعيمها ، إن معرفة الله أنس من كل وحشة ، وصاحب في كل وحدة ، وشفاء من كل سقم ، قد كان قوم من قبلكم يُقتلون ويُحرقون ، ويُنشرون ، وتضيق عليهم الأرض بما رحبت ، فما يردهَّم عما هم عليه شيئ مما هم فيه وما نقموا منهم , (إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحكيم) [38] , فإسألوا ربكم درجاتهم ، وإصبروا على نوائب دهركم تدركوا سعيهم" .

آداب التعلم والتعليم [39]

آداب التعلم :

- منها : أن يجتنب المتعلم إتباع الشهوات وهوى النفس ، فالبصيرة إذا كانت محجوبة بالشهوات والهوى، فهي محرومة من إدراك الأنوار الإلهية .

- أن يكون الهدف من العلم ، التقرب إلى الله ، والفوز بالسعادات الأخروية ، وأن لا يكون الهدف من العلم ، الوصول إلى الجاه والمال ، أو المباهاة والمفاخرة ، والتفوق على الآخرين وأن يكون الدافع هو خدمة الناس . قال الباقر (ع) : " من طلب العلم ليباهي به العلماء أو يماري السفهاء ، فليتبوأ مقعده في النار ، الرئاسة لا تصلح إلا لأهلها ، وإن من عمل بما يعلم هداه الله إلى ما لايعلم ". وقال الإمام الصادق(ع): " العلم مقرون بالعمل ، والعلم يهتف بالعمل ، فإن أجابه، وإلا إرتحل " .

وقال زين العابدين(ع): " مكتوب في الإنجيل : لا تطلبوا ما لا تعلمون إن لم تعملوا بما علمتم ، فإن العلم إن لم تعمل به ، لم يزد صاحبه إلا بعداً عن الله , وعن النبي(ص) : من أخذ العلم من أهله نجا، ومن أراد به الدنيا فهي حظهُ , وقال الإمام الصادق (ع): أطلبوا العلم وتزينوا معه بالحلم والوقار ، وتواضعوا لمن تعلَّمونه ، وتواضعوا لمن طلبتم منه العلم ، ولا تكونوا علماء جبارين ، فيذهب باطلكم بحقكم .

- ومنها : أن يكون العالم مشفقاً على المتعلم ناصحاً له ، مقتصراً في الإفادة على قدر فهمه ، متكلماً معه باللين والهشاشة لا بالغلظة والفظاظة .

---

[38] (البروج 8)

[39] (ص 87)

- أن لا يبخل العالم بالعلم عمَّن يريده ، وأن لا يبذله لمن لا يريده ، لأن بذل الحكمة للجهال ظلم عليها ، ومنعها من أهلها ظلم عليهم .

- أن يقول ما يعلم ، ويسكت عماً لا يعلم ، حتى يرجع إليه ويعلمه ، وأن لا يخبر المتعلم خلاف الواقع وهذا لا يختص بالمعلم فقط ، بل يعمّ كل من تصُدر عنه المسائل العلمية ، كالمفتي ، والقاضي وأمثالهما . قال الباقر (ع) : " حق على العباد أن يقولوا ما يعلمون ويقفوا ، عندما لا يعلمون ",

وعن الإمام الصادق (ع) : خصَّ الله تعالى عباده بآيتين من كتابه ، أن لا يقولوا حتى يعلموا ، وأن لا يجيبوا ما لم يعلموا . فقال سبحانه : (ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق)[40], وقال : (بل كذَّبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولماّ يأتهم تأويله) [41].

وعن الإمام الصادق(ع) : " إذا سُئل أحدكم عماّ لا يعلم ، فليقل ، لا أدري .
وقال الباقر (ع) : من أفتى الناس بغير علم ولا هدى ، لعنته ملائكة الرحمة وملائكة العذاب , ولحقه وزر من عمل بفتواه .

وهناك آداب أخرى لمن يريد تعلم فن الأخلاق ، ولكن العارف بأهل زماننا ، يعلم أن آداب التعلم

والتعليم كسائر الآداب والفضائل فيهم مهجورة ، وقد وصف بعض اهل العرفان بقوله : " قد فسد الزمان وأهله ، وتصدَّى للتدريس من قلَّ علمه ، وكثر جهله ، فانحطت مرتبة العلم وأصحابه ، وإندرست مراسمه بين طلابه ".

علم الأخلاق والفقه أشرف العلوم [42]

العلم كله كمال للنفس وسعادة ، ولكن فنون العلم متفاوتة في وجوب التحصيل منها .

- إن أشرف العلوم هو العلم الإلهي الذي يُعرَّف بأصول الدين .

- وعلم الأخلاق المعرَّف لمنجيات النفس ، ولسعادتها .

- وعلم الفقه المعرَّف لكيفية العبادات والمعاملات وهذه العلوم الثلاثة لها مقدمات ، كعلم اللغة العربية ، وعلم المنطق . فعلم الأخلاق واجب أخذه وجوب مؤكدَّ ، وقد أوضحت الشريعة ذلك ، وأوضحه علماء الأخلاق .

- وعلم الفقه واجب أخذ بعضه ، إما بالدليل ، أو بالتقليد من مجتهد حي. وتارك الطريقين غير معذور

قال الإمام الصادق(ع) : " عليكم الثقفة بدين الله ، ولا تكونوا أعراباً جاهلية ".

---

[40] (الأعراف 169)
[41] (يونس 39)
[42] (ص90)

وقال: " إن آية الجاهل ، أن يخبرك خبر السماء والأرض والمشرق والمغرب ، فإذا سألته عن حرام الله وحلاله ، لم يكن عنده شيئ يعلمه " .

- أما أصول العقائد فيجب أخذها من الشرع والعقل ، وهما متلازمان، لا يتخلف أحدهما عن الآخر ، فالعقل حجة الله الواجب إمتثاله ، والحاكم الشرعي العادل ، يجب أن لا يرد حكمه ، ولولاه لما عرف الشرع ، ولذلك ورد : " إنه ما بلغ فضل جميع العابدين , ما بلغ فضل العقل والشرع فهما متعاضدان ومتظاهران ، وما يحكم به أحدهما , حكم به الآخر أيضاً ، وكيف يكون الشرع مخالفاً للعقل ، فالعقل هو الشرع الباطن ، والشرع هو النور الداخل .

وما يظهر بعض الأحيان ، من التخالف بينهما ، إنما يكون إما لقصور العقل ، أو لعدم ثبوت ما ينسب إلى الشرع ، فليس كل عقل تاماً ، وليس كل ما ينسب إلى الشرع ثابتاً أنه من العقل، فالعقل الكامل ، هو ما يثبت عنه قطعاً من الشريعة. وإن أصح العقول وأقواها واصفاها وأمتنها ، هو عقل صاحب الوحي ، والذي يدركه بأنواره ، لا سبيل لأمثال عقولنا إلى إدراكه ، كتفاصيل نشأة الآخرة ، فالواجب أن نأخذه منه إذعاناً ، وإن لم نعرفه بعقولنا .

أصول العقائد المجمع عليها

إن ما أجمعت عليه الأمة ، من أصول العقائد هو :

إن الله سبحانه موجود ، وإنه واحد في الألوهية ، وبسيط عن شوائب التركيب ، و منزه عن الجسمية وعوارضها ، وأن وجوده وصفاته عين ذاته ، وأنه متقدم على الزمان والمكان ، ومتعالٍ عنهما ، وأنه حيٌّ قديم أزليّ ، قادر عالم بجميع الأشياء ، وأن علمه بإيجادها كعلمه قبل وجودها ، ولا يزداد بإحداثها علماً ، وإن قدرته عامةً بالنسبة إلى جميع الممكنات ، وأنه يخلق ما يشاء ويفعل ما يريد ، ولا يكون شيئ إلا بمشيئته ، وإنه عدل في حكمه ، صادق في وعده ، ومستجمع لجميع الصفات الكمالية ، وليس كمثله شيئ ، ولا يتصوَّر عقل ، ولا وهمٌ مثله ، بل هو تام فوق التمام ؛ وأن القرآن كلامه ، ومحمد(ص) رسوله ، وما أتى به من أمور نشأة الدنيا ونشأة الآخرة ، من الجنة والنار والحساب والثواب ، والعقاب ، والصراط ، والميزان ، والشفاعة ، وغير ذلك مما ثبت في شريعته المقدسة حق ثابت ، فيجب على كل مؤمن أن يأخذ بجميع ذلك ، ويتشبث به .

ثم إن المكلفّين مختلفون في كيفية التصديق والإذعان للعقائد المذكورة ، فبعضهم على يقين مثل ضوء الشمس , بحيث لو كشف عنهم الغطاء ما إزدادوا يقيناً ، مثل قول الإمام علي(ع) عندما قال : " لو كشف لي الغطاء ما إزدت يقيناً " , وبعضهم على يقين دون ذلك ، وأقل هؤلاء أن تصل مرتبة يقينهم إلى إطمئنان لا إضطراب فيه ، وبعضهم عندهم تصديق ظنيّ يتزلزل عند الشبهات .
وإلى هذا الإختلاف، أشار الإمام الباقر(ع) بقوله : " إن المؤمنين على منازل ، منهم على واحدة ، ومنهم على إثنتين ، ومنهم على ثلاث ، ومنهم على أربع ، ومنهم على خمس ، ومنهم على ست ، ومنهم على سبع ، فلو أردت أن تحمل على صاحب الواحدة إثنتين لم يقوى ، وعلى صاحب الإثنتين

لم يقوى وهكذا إلى بقية المنازل ". ويقول الإمام الصادق(ع) : " إن للإيمان حالات ودرجات فمنه التام ، ومنه الناقص البيِّن نقصانه ، ومنه الراجح الزائد رجحانه ".

ولا شك أن تحصيل ما يطمئن به القلب من العقائد الواجبة لا بد منه لكل مكلَّف ، ومجرد التصديق من غير إطمئنان القلب غير كاف للنجاة ، والوصول إلى مراتب المؤمنين والدار الآخرة .

ومع حصول الإطمئنان ، تحصل النجاة والفوز بالفلاح ، وإن لم يكن حصوله بالبراهين والدلائل الكلامية ، بل كان حاصلاً بالإقتناع .

إن الشرع الشريف لم يكلَّف بأكثر من التصديق والحزم بظاهر العقائد المذكورة ، ولم يكلَّف البحث والتفتيش عن كيفياتها ؛ فلو حصل لأحد الطمأنينة والإيمان بأن الله يتصف بجميع الصفات الكمالية ، وصدَّق أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ثم صدَّق الرسول بما أوحى الله له بتعيين الإمام المعصوم ، وكل ما يشتمل عليه القرآن من غير مزيد برهان ، وبأن الله حي عالم قادر ليس كمثله شيئ وهو السميع البصير ، وآمن بالآخرة ، وبالجنة والنار والصراط والميزان والحساب , والشفاعة وغيرها مما في كتاب الله العزيز ، فهو مؤمن ، وإن مات ، مات على الإيمان ، وإن غلب عليه شك ، أو إشكال فيمكن إزالته بكلام قريب من الفهم .

وقد تبقى عند البعض شبهات ليظنها صحيحة ، لقصوره عن إدراك جوابها ، لأن الجواب الدقيق لا يحتمله عقله ، ولذا ورد الزجر عن البحث والتفتيش في الكلام ، وهذا الزجر لعوام الناس، وأما أئمة الدين فلهم الخوض في الإشكالات ، وهو كمنع الأطفال عن شاطئ البحر خوفاً من الغرق ، والرخصة للأئمة والعلماء العظام ، هي رخصة الماهر في السباحة، وهناك من يظن أنه يقدر على إدراك الحقائق كلها ، فيخوض ويغرق في بحر الجهالات من حيث لا يشعر قال رسول الله (ص) : " حين رأى أصحابه يخوضون في القرآن : فغضب حتى إحمرَّت وجنتاه وقال : أفبهذا أمرتم تضربون كتاب الله بعضه ببعض ، إنظروا فيما أمركم الله ، وإفعلوا ما نهاكم عنه ، فهو منهج الحق" .

والذي لا شك فيه ، أن حصول اليقين ، وإطمئنان القلب لا يحصل عن طريق الجدال والكلام ، ولا من التلقين ، بل هو يتوقف على ملازمة الورع والتقوى ، وفطام النفس عن الهوى ، وإزالة كدرها وصدأها.. (وقد افلح من زكاها) , ومجاهدة النفس وتطهيرها من الصفات الذميمة ، حينها يقذف الله في قلب المؤمن نور إلهي، تتكشف به الحُجُب عن حقائق هذه العقائد , والحديث النبوي الشريف يقول : " وكلٌّ ميسَّر لما خُلق له ".

إن الإعتقاد الراسخ بظواهر تلك العقائد ، والتصديق بها ، والقيام بالوظائف و الطاعات ، وإعطاء وقت معيَّن لعمل العبادات ، والمواظبة على فهم القرآن وتلاوته ، والإحتراز من مخالطة اولي المذاهب الفاسدة ، وذوي الآراء الباطلة ، وإجتناب مرافقة ارباب الهوى ، وأصحاب الشر والشقاء ، ومصاحبة اهل الورع واليقين ، ومجالسة الأتقياء والصالحين ، فهم معروفون بسيماهم وسيرتهم وهيئاتهم في الخضوع لله والإستكانة له ؛ فيكون التلقين عند ذلك ، كإلقاء البذر في الصدر ،

وهذه الأمور التي ذكرناها ، كالماء الذي تسقى به ، والتربية له ، فينمو ذلك البذر بها ويتقوى ويزداد رسوخاً ، حتى يرتفع شجرةً طيّبة راسخةً ، اصلها ثابت وفرعها في السماء . ثم إن من وصل إلى مقام العقيدة الجازمة ، وإن إشتغل بالأمور الدنيوية ، ولم يشتغل بالرياضة والمجاهدة ، إذا مات مات مؤمناً على الحق وسلِم في الآخرة , وإذا إشتغل بتصقيل النفس وترويضها ، إنشرح صدره ، وإنفتح له باب الإفاضة ، ووصل إلى المراتب الأولى .

أنواع الرذائل [43]

وهي على أنواع , منها : الجهل المركَّب , وهو خلو النفس من العلم ، مع الإعتقاد بأنها عالمة،فصاحبها لا يعلم أنه لا يعلم ، ولذا سُمي مركباً ، وهو أشد الرذائل وأصعبها ، وإزالته في غاية الصعوبة ، وقد إعترف أطباء النفوس بالعجز في معالجته .

قال عيسى (ع) : " إني لا أعجز عن معالجة الأكمة والأبرص ولكني أعجز عن معالجة الأحمق ".

والسر في ذلك ، أن الشخص المصاب بالجهل المركب ، لا يعرف ولا ينتبه لنقصان نفسه من العلوم الحقة ، ولا يتحرك في الطلب ، فيبقى في الضلالة ؛ وقد ينفع معه في بعض الأحيان تعلم الرياضيات ، من الهندسة والحساب ، فهي تجعل الذهن مستقيم ، ولأن الذهن يألف اليقينيات بالفطرة ، فينتبه إلى خلل الإعتقاد ، فيصير جهله بسيط وينهض للطلب . وقد يكون الجهل المركّب ، بسبب خطأ في الإستدلال ، فعليه حينئذ ، أن يوازن ويستدل ، بأهل العلم المشهورين بالإستقامة بالفكر , وقد يكون السبب تقليد موروث ، أو عصبية ، فليسارع ويعمل على إزالتها .

ومنها : الشك والحيرة , فالشك هو عجز النفس ، عن تحقيق العدالة وإحقاق الحق وإبطال الباطل ، بدافع باطني خفي ، ينافي اليقين الذي لا يتحقق الإيمان بدونه . والشك يهُلك النفس ويفسدها قال أمير المؤمنين (ع) : " لا ترتابوا فتشكوُّا ، ولا تشكوُّا فتكفروا " , وقال الإمام الباقر(ع) : " لا ينفع مع الشك والجحود عمل " ؛ وسئل الإمام الصادق (ع) عن قول الله تعالى : (الذين آمنوا ولم يُلبسوا إيمانهم بظلم)[44] , أجاب أن الظلم هو الشك ؛ إن الشك في الإعتقاد ، يُضعف الإيمان ويُزيل اليقين ، والشك مع الجحود يؤدي إلى الكفر . على الذي يشك ، أن يتذكر أولاً قضية بديهية هي أن النقيضين لا يجتمعان ، وأن أحد إنحرافات العقل الباطلة ، بينما مهمات العقل الباقية ثابتة غير منحرفة ، فعليه أن يفتش بمنطق سليم ، عن الخطأ في سبب الإنحراف عن الحق والحقيقة ، وقد يكون السبب في التفكير بأسلوب السفسطائية المشتملة على المغالطات ، وعليه إزالة هذا المرض ، وإذا لم يستطع ، فليواظب على قراءة القرآن ، ومطالعة الأحاديث ، وسماعها من أهلها ، ويجالس الصلحاء والمثقفين ، وأصحاب الورع واهل اليقين ، ليستنير عقله ، ويدفع ظلام الشبهة والشك .

---

[43] (ص93)
[44] (الأنعام 82)

اليقين [45]

اليقين هو ضد الجهل المركب والشك ، وأول مراتبه إعتقاد ثابت جازم للواقع ، وغير زائل بشبهة وإن قويت ، فالإعتقاد الذي لا يطابق الواقع ليس يقيناً ، وإن جزم به صاحبه وإعتقد أنه مطابق للواقع , بل هو جهل مركّب ينشأ من إنحراف في الفكر ، أو خطأ في الإستدلال ، أو حصول مانع من إفاضة الحق ، بسبب تقليد خاطئ ، أو عصبية أو غير ذلك .

من لوازم اليقين ، الإعتقاد بأن الله موجود بصفاته الكمالية ، وبالنبوة ، وبالآخرة ، وغيرها من حقائق الأشياء التي لا يتم الإيمان بدونها ، ولا ريب أن الوصول إلى اليقين هو من اقوى أسباب السعادة . واليقين هو من أعلى المراتب الكمالية ، والنجاة في الآخرة ، لا تحصل إلا به , وهو أشرف الفضائل الخُلقية وأهمها ، وافضل الكمالات النفسية وأعظمها ، لا يظفر به إلا أعاظم العرفاء واكابر الحكماء ، ومن وصل إليه فاز بالرتبة العليا ، والسعادة العظمى وهو على درجات .
وقد قال سيد الرسل محمد(ص) : " إن أقل ما أوتيتم من اليقين وعزيمة الصبر فلا يبالي ما فاته من صيام النهار وقيام الليل" , وقال أيضاً : " اليقين هو الإيمان كله " , وقال : ما من أحد إلا وله ذنوب ولكن من كانت غريزته العقل ، وسجيته اليقين ، لم تضره الذنوب ، لأنه كلما اذنب ذنباً ، تاب وإستغفر وندم ، فتكُفرَّ ذنوبه ، وله فضل يدخل به الجنة ، وقال الإمام الصادق(ع) : " إن العمل الدائم القليل على يقين ، أفضل عند الله تعالى ، من العمل الكثير على غير يقين ".
وعنه أيضاً : " إن الله تعالى بعدله وقسطه جعل الروح والراحة في اليقين والرضا ، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط ".

علامات أهل اليقين [46]

إن لصاحب اليقين علامات :

منها : ألا يلتفت في أموره لغير الله سبحانه ، ولا يرى لنفسه أو لغيره من البشر قدرةً على شيئ ,

وأن يعلم أن ما قُدَّر له من الخير والشر سيساق إليه ، فتستوي عنده حالة الوجود والعدم ، والزيادة والنقصان ، والمدح والذم ، والفقر والغنى ، والصحة والمرض ، والعز والذل .
قال الإمام الصادق(ع): " من ضعف يقينه تعلَّق بالأسباب ، ومن قوي يقينه لم يخف مع الله شيئاً " ,

وقال أيضاً: (لو أن أحدكم فرَّ من رزقه كما يفر من الموت، لأدركه رزقه " .

ومنها : ان يكون مستجاب الدعوات ، بل له الكرامات ، والسر في أن النفس كلما إزدادت يقيناً ، إزدادت تجرداً ، فتحصل لها ملكة التصرف بالكائنات . وهذه الكرامات تزداد بإزدياد اليقين ، والأنبياء مع جلالة مقامهم متفاوتون في قوة اليقين .

---

[45] (ص95)
[46] (ص 96)

مراتب اليقين [47]

اليقين جامع للفضائل كلها وله مراتب :

أولها : علم اليقين ، وهو إعتقاد ثابت جازم للواقع ، وهو يحصل بالإستدلال ، مثل أن اليقين بوجود النار هو مشاهدة الدخان .

وثانيها : عين اليقين ، وهو مشاهدة المطلوب ورؤيته بعين البصيرة والباطن ، وهو أقوى في الوضوح والجلاء من المشاهدة بالبصر ، وإلى هذه المرتبة اشار أمير المؤمنين(ع) بقوله :
" لم أعبد رباً لم أره ", بعد سؤال دعلب اليماني له : أرأيت ربك ؟
وهذه المرتبة من اليقين تحصل من الرياضة والتصفية , وحصول التجرد التام للنفس .

وثالثها : حق اليقين ، وهو أن تحصل وحدة معنية وربط حقيقي ، بين العاقل والمعقول ، بحيث يرى العاقل ذاته رشحة من المعقول ومرتبطاً به غير منفك عنه ؛ ويشاهد ببصيرته الأنوار والآثار ، ومثاله ، اليقين بوجود النار والدخول فيها من غير إحتراق ، وهذا يكون لكمّل العارفين بالله ، والصديقون ، الذين لا يروا انفسهم ، و إنما يروا الله وحده ، ويروا أنفسهم وسائر الموجودات ، رشحات فيضه الأقدس .

وحصول هذه المرتبة ، يتوقف على مجاهدات ورياضيات شاقة ، وقطع اصول الشهوات المادية ، وقلع الخواطر النفسية والشيطانية ، والتطهر من أدناس الطبيعة ، والتنزه عن زخارف الدنيا ولا ريب أن اليقين الحقيقي النوراني , المبرأ من الظلمات الأوهام والشكوك ، لا يحصل بالفكر والإستدلال ، بل توقف حصوله ، على الرياضة والمجاهدة ، وتصقيل النفس وتصفيتها من كدورات ذمائم الاخلاق وصدأها ، وتطهيرها من التعصب والتقليد ، عندها ترتفع الحجب .

ولولا هذه الأسباب المبالغة للنفوس من إفاضة الحقائق اليقينية إليها ، لكانت عالمة بجميع الأشياء المرتسمة في العقول الصافية من الأوهام والتخيلات الباطلة , إذ أن كل نفس بما أنها أمراً ربانياً ، وجوهراً ملكوتياً ، فهي بحسب الفطرة صالحة لمعرفة الحقائق ، ولذا إمتازت عن سائر المخلوقات ، وهي قابلة لحمل الأمانة الإلهية ، التي هي المعرفة والتوحيد ، فحرمان النفس من معاينة الموجودات الحقيقية ، هو بسبب هذه الموانع ، وقد أشار سيد الرسل (ص) إلى مانع التعصب والتقليد ، بقوله : " وكل مولود يولد على الفطرة ، حتى يكون أبواه يهودانه أو يمجسانه أو ينصرانه " , ويقول أيضاً : " لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماوات والأرض" ؛ فلو إرتفعت عن النفس الحجب من السيئات والتعصب ، وتوجهت نحو الله ، لتجلت لها صورة عالم الملك والشهادة بأسره ، وهي اسرار غائبة عن مشاهدة الأبصار ، ولكنها مختصة بإدراك البصائر ، إذ أن ليس في الوجود ، سوى الله تعالى وأفعاله وآثاره .

---

[47] (ص 98)

ولا يمكن للنفس أن تحيط بكله ، بل يظهر لها منه بقدر قوتها وإستعدادها ، وبقدر ما يحصل للنفس من التصفية والتزكية ، وما يتجلى لها من الحقائق والأسرار ، وكلما حصلت النفس على المعرفة بصفات الله الجلالية والجمالية ، تحصل لها السعادة والبهجة واللذة ولذا لا تستقر النفس في مقام من المعرفة والكمال حتى تصل إلى جنة النعيم ويكون الفوز العظيم .

الشرك [48]

الشرك هو أن يرى الإنسان أن في الوجود مؤثراً غير الله ، سواء كان كوكباً ، أو إنساناً ، أو شيطاناً ، وإن لم يعبده ، ولكن طاعته له فيما لا يرضي الله ، هو شرك طاعة .

إن عبادة الأصنام أو الكواكب شرك ظاهر ، أما طاعة إنسانٍ أو شيطان فهو شرك خفي .
وتشير الاية الشريفة إلى ذلك فتقول : (ما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون)[49] ,

والشرك شعبة من شعب الجهل وهو من أعظم الكبائر ، وضده التوحيد ، والوصول إلى التوحيد الصحيح والحقيقي ، يكون عن طريق المعرفة والعلم واليقين .

التوحيد

هو ضد الشرك ، وهو توحيد الأسماء والصفات الإلهية ، وتوحيد افعاله ، بحيث لا يكون هناك مؤثر في الوجود غير الله ، والمخلوقات كلها فيض من آثاره ، الوجود كله هو الله وللتوحيد مراتب :

أولها : قول لا إله إلا الله باللسان ، والقلب لا يعلم شيئاً وهو غافل ، كتوحيد المنافقين ، ولا فائدة لصاحبه منه .

ثانياً : تصديق القلب بمعنى كلمة لا إله إلا الله ، كما هو شأن معظم المسلمين ، وهو إعتقاد العوام من الناس ، وصاحبه موحَّد ، بمعنى أنه معتقد به ، وإن قلبه إنعقد عليه ، وهو لا يوجب إنشراحاً وإنفتاحاً وصفاءً ، ولكنه يحفظ صاحبه من العذاب في الآخرة ، إن مات عليه ، ولم يضعفه بالمعاصي .

المرتبة الثالثة : أن يشاهد ويكشف بواسطة نور الحق عن طريق بصيرته ، الأشياء كلها صادرة عن الله الواحد الأحد ، وقد إنكشف له الحق كما هو عليه ، فلا يرى في الوجود مؤثراً إلا الله ، وصاحبه موحد وهو من المقربيِّن .

المرتبة الرابعة : ويسميها اهل المعرفة " الفناء في الله " , بمعنى انه اصبح مستغرقاً في الله , لا يرى نفسه ، وهو جزء من الله والوجود ، وهذه المرتبة العليا من التوحيد ، وهي لا تكون إلا للصديقين والأولياء والأنبياء .

---

[48] (ص100)
[49] (يوسف 106)

التوكل [50]

لا يمكن التوكل الحقيقي على الله تعالى ، إلا ببلوغ المرتبة الثالثة من التوحيد ، لأن المرتبة الأولى ، هي مجرد نفاق لا يفيد شيئاً ، والثانية وهي التوحيد بالإعتقاد ، لا تعطي حالة توكل كما ينبغي ، وهي حال معظم المسلمين .

في المرتبة الثالثة من التوحيد ، ينكشف للعبد بنور الحق ، أن لا فاعل ولا مؤثر في الوجود إلا الله ، وأن كل موجود ، من خلقٍ ورزقٍ ، وعطاء ومنع ، وغنى وفقر ، وصحة ومرض وعز وذل ، وحياة وموت ، وغير ذلك ، هي من الله وأنه لا شريك معه . وإذا إنكشف له هذا الأمر ، أصبح خوفه ورجاؤه ، وثقته وتوكله على الله وحده ، ويرى أن بقية الكائنات مسخرَّون لأمره لا إستقلال لهم ، ولا يستطيعون تحريك ذرة من ملكوت السماوات والأرض ، وينفتح له باب المعارف ، ويتضح له إتضاحاً تاماً ، أن الشيطان هو الذي يصدُّ عن التوحيد ، ويوقع في قلبه شائبة الشرك ، بالإلتفات لبعض الوسائط الدنيوية... كالإعتماد على الناس بإستجلاب الرزق مثلاً ، أو بالتغلب على الأعداء بكثرة العدد والعدّه , ويقول عز وجل :
(<u>ما رميت إذ رميت ولكن الله رمى</u>) .[51]

الخواطر النفسية والوساوس الشيطانية [52]

الخواطر والأفكار ، إذا كانت تدعو إلى الشر سمّيت وسوسة ، وإذا كانت تدعو إلى الخير ، سميَّت إلهاماً ، والقلب هو من يتلقى هذه الخواطر ويتفاعل معها ؛ وهذه الخواطر والأفكار ، هي التي تحرك الإرادة والعزم على الفعل ، فالأفعال هي في البدء افكار الدنيا ونوايا , فمنها ما يرجع إلى أمنيات ، سواء كانت ممكنة أو محالة ، وسواء كانت جيدة أو سيئة .

ومنها متشائمة ، فيتخيل الشخص فقدانه لعزيز فيحزن لأجله ، أو يخطر له أنه أصبح فقيراً , أو مريضاً وغير ذلك من الأمور التي تجعل النفس حزينة ومنكسرة ، وهذه تعتبر وساوس رديئة ، وربما كان المنشأ لبعضها ، إختلال في بعض وظائف الدماغ ، والنتيجة هي صدُّ النفس عما خُلقت له .

ومنها يدعو إلى التفاؤل ، وهذا جيِّد لطمأنينة النفس ، طالما هي في طاعة الله عز وجل والخواطر والتخيلات ، إما أن تكون في أمور ماضية لا نفع منها ، وإما لمستقبل لم يحصل ما هو مقدّر له ، وهذا يعني تضييع الوقت الثمين ، إذ أن آلة العبد قلبه ، وبضاعته عمرة ، فإذا غفل القلب عن ذكر الله ، ونسيَّ ما هو مطلوب منه ، من معرفة الله والعمل بطاعته ، ولم يكن همّه إلا الأمور الدنيوية ، من ملذات وشهوات ، فهو خاسر ومجنون ، وقد قال أمير المؤمنين(ع) : " من تساوى يوماه فهو مغبون " ، ومن إستسلم للخواطر والوساوس الشيطانية ، بقي في شغل دائم مضيّع لدينه ودنياه .

---

[50] (ص103)
[51] (الأنفال 17)
[52] (ص109)

المطاردة بين جنود الرحمن وبين جنود الشيطان [53]

النفس في بداية فطرتها ، قابلة للتأثر بالخير والشر على السواء ، وإن ترجيح أحدهما يكون حسب متابعة الهوى ، أو ملازمة التقوى والورع ، فإذا مالت النفس إلى الشهوة وإلى الغضب ، وجد الشيطان طريقاً له للدخول والوسوسة ، وإذا إنصرفت إلى ذكر الله وطاعته ، إنغلقت أمامه مسارب الدخول ، ودخلت الملائكة بالإلهام ، فلا تزال المطاردة بين جنود الرحمن وجنود الشيطان في معركة النفس ، بسبب هذه القابلية التي خلقت النفس بها ، إلى أن يغلب أحد الفريقين ، فإذا غلب الشيطان وجنوده ، أصبحت النفس مرتعاً له ، وفي حزبه ، وإذا غلب الورع والتقوى ، صارت النفس ، مستقرٌّ للملائكة ، ومهبط لجنود الرحمن ؛ قال الله عزوجل عن لسان الشيطان : (لأقعدنَّ لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم)[54] , وقال الرسول(ص) : " إن الشيطان ليجري من بني آدم مجرى الدم " ؛ إذن ، الخلاص من الشياطين ، يحتاج مجاهدة عظيمة ، ورياضة شاقة ، و إلا أصبح الإنسان هدفاً للشياطين ووساوسهم ، بل أصبح جندياً من جنودهم , قال الله تعالى : (ولهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها) (الأعراف 179).

اساليب الشيطان ووساوسه [55]

إن طرق الباطل كثيرة ، وطريق الحق واحدة ، وأبواب الشيطان كثيرة ، وباب الملائكة واحد ، ولذا روي أن النبي(ص) خطَّ لأصحابه خطاً وقال : " هذا سبيل الله " , ثم خط خطوطاً عن يمينه وشماله ، وقال هذه سبلٌ ، على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه ", ثم تلا قول الله تعالى: (إن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبُل فتفرّق بكم عن سبيله)[56] . ثم أن لسهولة ميل النفس إلى الباطل ، وصعوبة إنقيادها إلى الحق ، تكون الطرق المؤدية إلى الباطل جليَّةً ظاهرة ، وأبواب الشيطان مفتوحة أبداً ، والطرق المؤدية إلى الحق خفيَّة .

ومن الصعوبة ، على إبن آدم ، أن يسد أبواب الشر الكثيرة المفتوحة دائماً والمغرية ، ويفتش عن أبواب الخير الخفية ، وعند ذلك يتدخل الشيطان ، فيُلبس عليه الأمور ، ويزيِّن للإنسان الضعيف المحب لذاته ، والمتبَّع لهواه ، فينجر إلى طرق الشر دون أن يدري ، فيسعى وراء شهواته وملذاته ، وإلى حب الجاه والمال والرئاسة ، والرياء ليكسب قلوب الناس ، فيخالف الله ويظن أنه في طاعته ، ويعصيه ، ويحسب أنه يعبده ، فيدخل في حملة من قال الله فيهم : (قل هل أنبئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضلَّ سعيهم في الحياة الدنيا ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً)[57] , وقد يكون من هؤلاء المضلَّين علماء ومفكرين وفقهاء ، فهذا الأمر ليس مقصوراً على العوام من الناس والجهال ,

---

[53] (ص111)
[54] (الأعراف 16-17)
[55] (ص112)
[56] (الأنعام 153)
[57] (الكهف 103-104)

فلا سبيل إلى النجاة من مكائد الشيطان إلا بالمعرفة والعلم وببصيرة نورانية ربانية ، ومجاهدة للنفس دائمة .

العلامات الفارقة بين الإلهام والوسوسة [58]

من إستطاع التمييز بين الخير والشر ، سهُل عليه التفرقة بين الإلهام والوسوسة .

أولاً : العلم واليقين ومجاهدة النفس ، يقابلهما الشهوة وإتباع الهوى .

ثانياً : الإيمان بالعمل والآيات المحكمات والعلوم اليقينية ، مقابل السفسطة والتخيلات والأوهام والإيمان بالمتشابهات .

ثالثاً : طاعة الرسول (ص) والأئمة الأطهار ، يقابلها طاعة هل الجحود والإنكار ، وأرباب التعطيل والتشبيه والكفار ، فكل من سلك سبيل الهداية ، فهو بمنزلة الملائكة المقدسين الملهمين للخير، ومن سلك سبيل الضلال ، فهو بمنزلة الشياطين ، الغاوين بالشرور .

رابعاً : تحصيل العلوم ، كالعلم بالله وملائكته ، ورسله ، واليوم الآخر ، والبعث والقيامة ، ومثول الخلائق بين يدي رب العالمين ، وحضور الملائكة والنبيين والشهداء والصالحين ، ليقابله تحصيل العلوم التي هي من باب الحيل والخديعة ، والسفسطة ؛ فالسبيل الأول يوصل إلى التشبه بالملائكة الروحانيين ؛ وهم سكان العالم السماوي الملكوتي ، والأسلوب الثاني يوصل ، للتشبه بالأبالسة المطرودين ، عن باب الله ، الممنوعين ولوج السماوات ، والمحرومين من الإرتقاء ، والمحجوبين في الآخرة عن دار النعيم .

علاج الوسواس [59]

إذا كانت الوساوس تؤدي إلى الشرور والمعاصي ، فعلاجها هو التفكر بسوء العاقبة من العصيان وسوء خاتمته في الدنيا والآخرة ، وليتذكر الإنسان أن الصبر على مجاهدة النفس والإبتعاد عن المعاصي ، أسهل بكثير من الصبر ، الذي يعانيه في الدنيا والآخرة ، نتيجة هذه المعاصي ، فإذا تذكر وإستيقظ وإنتبه من الغفلة ، وسعى إلى معرفة الطرق المؤدية إلى الخلاص ، بنور المعرفة والعلم والإيمان ، قطع حبل الوساوس الشيطانية وعاد إلى رشده .

قال الرسول(ص) : " من صلَّى ركعتين لم تتحدث نفسه فيهما بشيئ غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر" ، ولكن الإنسان لا يستطيع قطع الوساوس بالكامل ، لأن ذلك في غاية الصعوبة ، ولكن عليه أن يخفف منها ، بالمحاولات المتكررة وبالمجاهدة ، ومخالفة النفس ، فتسكن الشهوة ، وأما الأوهام والتخيلات ، فسكونها اصعب ، فلا يستطيع أحد أن يتخلى عن التخيلات والهموم

---

[58] (ص113)

[59] (ص114)

والخواطر ، إلا إذا تخلّى عن هموم الدنيا ومتاعبها ، وكان عنده هم واحد ، وهو معرفة الله وطاعته والحرص على رضاه عز وجل .

فكلما إنشغل القلب بالأمور الدينية ، تخلى عن الوسواس بقدر ذلك الإنشغال ، وأما لو غفل لحظةً واحدةً ، فليس له قرين وصاحب ، إلا الشيطان ووساوسه. قال الله تعالى: (ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيِّض له شيطاناً فهو له قرين)[60] ؛ والوسواس الخناس ، يجذب قلوب الناس من كل جانب ، وليس له علاج ، إلا قطع العلائق الدنيوية قدر المستطاع ، والإشتغال بالقراءة ، وبالتفكر ، والتذكر في آيات الله ، والدعاء ، والصلاة .

ما يتم به علاج الوسواس [61]

علاج الوسواس تتم بأمور ثلاثة :

الأول : سد أبواب الشيطان في القلب ، وهي الشهوة ، والغضب ، والحرص ، والحسد ، والعداوة ، والعجب، والحقد والكبر ، والطمع ، والبخل ، والجُبن ، وحب الدنيا ، والتسرع ، وخوف الفاقة والفقر ، والتعصب لغير الحق ، وسوء الظن بالخالق ، وبالخلق . وغير ذلك من الملكات الذميمة ، فهذه كلها أبواب عظيمة للشيطان ، فإذا وجد بعضها مفتوحاً ، دخل منه إلى القلب ، وملأه بالوساوس ، فإذا سُدتَّ هذه الأبواب ، لم يكن للشيطان طريق ، إلا الإختلاس أحياناً .

ثانياً : تطهير القلب من الرذائل ، وعمارته بالفضائل والأخلاق الشريفة ، والأوصاف الحميدة ، وملازمة الورع والتقوى ، والمواظبة على العبادة .

ثالثاً : كثرة الذكر بالقلب وباللسان . إذا قُلعت من القلب الصفات الذميمة ، زالت سلطة الشيطان ، إلا من بعض الحظرات ، والذكر يمنعها ؛ وإذا لم تسدّ الأبواب المذكورة ، لم ينفع الذكر اللساني ، فالشيطان مثل كلب جائع ، ووجود الصفات المذمومة ، مثل لحم أو خبز يشتهيها الكلب ، فإذا لم يكن شيئ منها ، يقال له إخسأ ، فيذهب . والقلب الخالي من قوت الشيطان ، يبتعد بمجرد الذكر ، وأما القلب المملوء بالملكات السيئة ، لا ينفع الذكر معه ، ما لم يُطهَّر القلب من الأخلاق الذميمة .

قال الله تعالى : (إن الذين إتقوا إذا مسّهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون)[62] , وقال سبحانه : (إن في ذلك لذكرى لمن كان له القلب) [63].

لو كان مجرد الذكر طارداً للشيطان ، لكان كل من يصّلي حاضر القلب في صلاته ، ولا يخطر بباله هذه الوساوس والهواجس الباطلة . إن من يراقب نفسه ، يجد الوساوس والخواطر تكثر وقت الصلاة ، اكثر من الأوقات الأخرى ، فتزدحم الأفكار في أمور الدنيا ومتاعبها ، وكلما

---

60 (الزخرف 25)
61 (ص116)
62 (الأعراف 201)
63 (ق 26)

تطهَّر القلب من الصفات الذميمة كلما صار الذكر اللساني يتفاعل معه أكثر , ومع ذلك فإن الذكر ينفع ، حتى مع القلوب الغافلة .

إن للذكر مراتب أربعة كلها تنفع الذاكرين :

أولاً : الذكر باللسان فقط .

ثانياً : الذكر باللسان والقلب ، مع المراقبة حتى لا يسترسل بالوساوس والخواطر السيئة .

الثالثة : الذكر القلبي المتمكن من القلب ومستولي عليه .

الرابعة : الذهول عن النفس كلياً ، فلا يلتفت المصلي إلى نفسه , ولا إلى الذكر ، لأن قلبه قد تعلَّق بالذي خلقه ، وهذه المرتبة هي المطلوبة ، لأن القلب أصبح سليماً ومطهرّاً وهذه الرتبة لا تكون إلا للأنبياء والأولياء .

قطع الوساوس [64]

عندما تقطع الوساوس بالكليَّة ، تحصل للعقل قوة الإستيلاء ، والإستعلاء ، على قوة الشهوة والغضب والوهم ، فلاّ تتأثر بها ، بل تؤثر فيها ، حب المصلحة الحقيقية ، فيتمكن العقل من صرف الوساوس والخواطر المضرَّة ، ولا يخطر بالفكر ، إلا خواطر الخير والإلهام ، حينئذ تستقر النفس في مقام الإطمئنان ، وتنسد أبواب الشياطين ، وتنفتح أبواب الملائكة ، فتضيئ النفس بالأنوار القدسية ، ويشملها الخطاب الإلهي : (يا ايتها النفس المطمئنة إرجعي إلى ربك راضية مرضية)[65] , وتصبح هذه النفس ، أحسن النفوس وأشرفها ، ويقابلها النفس الملوثة ، المملوءة بالأفكار والخواطر المضَّلة ، فتنفتح أبواب الشياطين وتنسد أبواب الملائكة ، وتظلم النفس ، ويطفأ نور اليقين ، ويضعف الإيمان حتى تخمد أنواره كليّاً .

وعلامة النفس الملوثة ، أنها لا تتاثر بالمواعظ والنصائح ، ولو سمعت الحق ، عميت عن الفهم ، وصمَّتت عن السمع ، وإلى هؤلاء تشير الآية الكريمة : (أرأيت من إتخذ إلهة هواه ، أفأنت تكون عليه وكيلاً) [66], ويقول تعالى :(ختم الله علي قلوبهم وعلي سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة) , (إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً)[67], ويقول تعالى : (سواء عليهم أنذرتهم أم لم تنذرهم

لا يؤمنون)[68], ويقول عز وجل: (لقد حقَّ القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون)[69].

---

[64] (ص117)
[65] (الفجر 27)
[66] (الفرقان 42)
[67] (الفرقان 44)
[68] (يس 10)
[69] (يس6)

والنفوس على مراتب : نفوس تسيطر عليها الشياطين وهي نفوس الكفار , والثانية تسيطر عليها الملائكة وهي نفوس الكُمَّل من المؤمنين ، وثالثة : مترددة ، متجاذبة بين الملائكة وبين الشياطين وهي نفوس أكثر المسلمين ولها مراتب ودرجات .

حديث النفس لا مؤاخذة عليه [70]

الوساوس تحدث ظلمة وكدرة في النفس ، ولكن إذا بقيت هذه الوساوس مجرد خواطر داخل النفس ، فلا مؤاخذة عليها ، ولا تكون معصية ، لعدم إختيار الشخص لها . روي في الكافي :

" أنه جاء رجل إلى النبيّ (ص) فقال : يا رسول الله ! لقد هلكت ، فقال له : هل أتاك اللعين ، فقال لك من خلقكُ ؟ فقلت الله تعالى ، فقال لك : الله من خلقه ؟ فقال الرجل : والذي بعثك بالحق لكان كذلك ، فقال رسول الله : ذاك والله محض الإيمان" . و رُوي أنه لما نزل قول الله تعالى :(وإن تبدو ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله)[71], جاء بعض الصحابة إلى رسول الله(ص) , قالوا: " كُلِّفنا ما لا نطيق ، إن أحدنا ليحدث نفسه مما لا يحب أن يثبت في قلبه , ثم يحاسب بذلك ؟ " , فقال رسول الله (ص) : لعلكم تقولون كما قال بنو إسرائيل ، سمعنا وعصينا ، بل قولوا سمعنا وأطعنا ، فقالوا سمعنا وأطعنا ، فأنزل الله الفرج بعد سنة بقوله تعالى : (لا يكلف الله نفساً إلا وُسْعها) [72].

وروي عن النبي أنه قال:

" وُضع عن أمتي تسع خصال : الخطأ ، والنسيان ، وما لا يعلمونه ، وما لا يطيقونه ، وما إضطروا عليه ، وما إستكرُهوا عليه ، والغيرة والوسوسة ، والحسد , ما لم يظهر بلسان أو يد .

وقال الله سبحانه : (لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم) [73],

وقال رسول الله (ص) : " إنما يحشر الناس على نياتهم ".

التفكر [74]

إذا كان القلب مشغول بالتفكر ، لا سبيل للوسوسة إليه . إما أن يكون ذِكر قلبي ، أو تدبُّر في العلوم والمعارف ، أو التفكر في عجائب صنع الله وغرائب عظمته ، أو ما يقرَّبه إلى الله تعالى .

لا يمكن لأحد أن يترقى من حضيض النقصان ، إلى أوج الكمال إلا بهذا السير ، وهو مفتاح الأسرار وأجنحة النفس للطيران ، إلى وكرها القدسي ، به تنكشف ظلمة الجهل ، وتنجلي أنوار العلم

---

[70] (ص118)
[71] (البقرة 284)
[72] (البقرة 286)
[73] (البقرة 225)
[74] (ص121)

وأسراره ، ولذا ورد الحث عليه والمدح به في الآيات , كقوله سبحانه : (أو لم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق)[75] ، وقوله تعالى : (إن في خلق السماوات والأرض وإختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب)[76] , وقوله تعالى : (الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم يتفكرون في خلق السماوات والأرض) [77], وقول رسول الله(ص) : " التفكر حياة قلب البصير " , وقوله : " تفكر ساعة خير من عبادة سنة " , وقوله : " أفضل العبادة إدمان التفكر في الله وقدرته " , وقول الإمام الرضا(ع) : " ليست العبادة في كثرة الصيام والصلاة ، إنما العبادة بالتفكر في أمر الله عز وجل " .

التفكر بالمخلوقات [78]

الموجودات بأسرها ، هي مواضيع للتفكر والنظر ، وكل موجود ومخلوق إن كان ماديّ، أو فلكي ، بشريّ ، بسيط أو مركب ، هو فعل الله وصنعه , وما من ذرَّةٍ من ذرآت العالم إلا وفيها من عجائب حِكمته وعظمته ، بحيث لو إجتمعت عقول العالم ، وحكماءه مدى العصور ، لما وقفت على معرفتها والعلم بها . ثم إن الموجودات ، منها ما لا يدُرك بالبصر ويسمى (الملكوت) , كالملائكة ، والجن ، والشياطين ، وهو عالم العقول المجرَّدة , ولها أجناس وطبقات ، ولا يحيط بها إلا من وجدها ؛ وهي ثلاثة أقسام :

عالم السماوات ، المشاهدة بكواكبها ونجومها ودورانها .

وعالم الأرض ببحارها وجبالها ووهادها ، ومعاونها وأنهارها ونباتها وحيوانها وجمادها .

وعالم الجو بسحبه وغيومه وأمطاره وثلوجه ، وشهبه ورياحه ، ورعوده .

وكل قسم من هذه الأقسام ، يتشعب إلى أقسام غير متناهية ، وكل ذلك ، أسباب للتفكر والتدبر والتحصيل للمعرفة ، وكلها شواهد عدل ، وبيِّنات صدق على وحدانية الله وحكمته وعظمته ، فمن فتح عين بصيرته ، وشاهد مملكة ربه الودود ، لظهر له في كل ذرة من ذرَّات الخلق عجائب خلقه وقدرته ، ثم إن طبقات العوالم المنظمَّة المرتبة ، على النحو الأصلح والأحسن ، بأمر مُوجِدها ، ومدبِّرها العليم الحكيم ، مبتدأه من الأشرف فالأشرف ، حتى ينتهي إلى أسفل العوالم وأدناها ، وهو عالم الأرض بما فيه ، من حيوانات ونبات ، وجماد ، ولكل جنس ما عليها اقسام وأصناف غير متناهية ، وأضعف أنواع الحيوان البعوضة والنحل ، وأشرف أنواعه الإنسان , وهنا نشير إلى نبذة ، من الحِكم والعجائب المودعة فيها ليقاس عليها الباقي , مثلاً :

البعوض ، فقد خلقه الله على صغرة على شكل الفيل الذي هو من أضخم الحيوانات , إذ خلق الله له خرطوماً ، وخلق له مع صغره جميع الأعضاء التي خلقها للفيل بزيادة جناحين ,وعرَّفه

---

[75] (العنكبوت 20)

[76] (آل عمران 19)

[77] (آل عمران 191)

[78] (ص123)

أن الإنسان يقصده ، فعلَّمه الله حيلة الهرب ، وسمعٌ يسمع حفيف حركة اليد ، مع أنها بعيدة عنه ، وخلق للبعوض والذباب وغيرهما من الحشرات الصغيرة ، يدين ، يمسح بهما حدقتيه ويطهرهما من الغبار .

أما النحل ، كيف أوحى الله إليها حتى إتخذت (ومن الجبال بيوتاً ومن الشجروومما يعرشون)[79] وإستخرج من لعابها الشمع والعسل ، وكيف تتناول الأزهار, وتشرب ماء الأنهار ، وتبتعد عن النفايات والأقذار .

أما الإنسان ، كيف كان قطرة ماء متفرّقه في جميع أجزاء البدن , فألقى الرغبة والمحبة بين الذكر والأنثى ، وقادهما بسلاسل الرغبة والمحبة إلى الإجتماع ، فإنعقد مني الرجل مع مني الأنثى وصارا جنيناً في رحم الأنثى ، ثم صوَّره ، وأحسن تصويره ، وكوَّن أعضاءه ، مما يبهر العقول من عجيب صنعه وعظمته . ثم ولد طفلاً ، وكيف هيأ له الغذاء ، من لبن إستخرجه ، من بين فرث ودم خاصاً سائغاً ، وهداه إلى الفطام ثدي أمه ، ثم لما كبر قليلاً أنبتت له الأسنان ، وحنن عليه قلوب الوالدين بالقيام بتربيته ، وتكفل رزقه . ثم لما كبر رزقه الإدراك والفهم والقدرة والعقل ، وأودع في نفسه أسراراً عجيبة ، ثم أخضع له جميع الموجودات . وكيف يتعجب الناس من أن الميت سيعود حيَّاً يوم القيامة مع أن بقايا الجسد موجوده ، ولا يتعجبون من بلوغ قطرة ماء ، إلى المراتب المعروفة ، وليس ذلك إلا لكثرة المشاهدة والإعتياد عليها ،

ولو نظروا بعين البصيرة لرؤا أن بلوغ النطفة إلى المراتب المذكورة ، أقوى وأشد من إحياء ميِّت . أما التفكر في ذات الله فهي ممنوعة لأنها من المحال ، ولكن الفكر في عجائب صنع الله وبدائع خلقه ، تقرَّب العبد إلى الله ، وتجعله يسعى للقيام بالطاعات ، والبعد عن السيئات والمعاصي ، المذكورة في كتب الأخلاق . والتفكر هو إعادة النظر دائماً بالأعمال والأفعال ، وبالفضائل والرذائل التي يعتادها في حياته ، فإن وجد قلبه خاوياً من بعض الفضائل المنجية ، فيبادر إلى علاجه ، وتحصيلها كاليقين ، والتوكل ، والصبر على البلاء ، والرضا بالقضاء ، والشكرعلى النعم ، وحسن الخلق .

وإن عثر على صدور شيئ من المعاصي ، وترِك شيئ من الفرائض فليتفكر في الأسباب الباعثة على ذلك ، من مصاحبة أقران سوء مثلاً أو غير ذلك ، فليبادر إلى قطع السبب ، ثم التوبة والندم لئلا يكون غدهُ مثل يومه . إن هذا النوع من التفكر ، إنما هو تفكر العلماء والصالحين ، وأما تفكرُّ الصدَّيقين ، فهو أعلى وأجلّ من ذلك ، فهم مستغرقون في حب الله وأنسه ، وفكرهم مقصور على جلال الله وجماله ، ساهون عن أنفسهم ، لا يشعرون بها .

المكر والحيل [80]

---

[79] (النحل 68)

[80] (ص142)

وهي إظهار المحبة والصداقة , وفي نفس الوقت ، الإيذاء والتهجم ، أو إظهار الورع والتدين والحقيقة هي النفاق . للمكر مراتب ودرجات لا تحصى من حيث الظهور والخفاء ، وصاحب المكر معصيته أشدّ من الذي يظهر العداء علانية ، فيحتاط الناس منه ، فالماكر يظهر بأنه محب ونصوح ، ولكن ضرره وكيده ، يؤذي الآخرين ، وخاصة الغافلين والطيبين .

لذلك قال رسول الله (ص) : " ليس منا من كان ماكراً مسلماً " ,

وقال أمير المؤمنين(ع) : " لولا أن المكر والخديعة في النار لكنت أمكر الناس " , وقال يمكرون بي ويعلمون إني بمكرهم عالم ، وإني أعرَف منهم بوجوه المكر ، ولكن أعلم أن المكر والخديعة في النار ، فأصبر على مكرهم ولا ارتكب مثل ما إرتكبوا" .

علاج المكر

هو أن يتأمل الإنسان الخاتمة ، وهي العقاب والنار ، ويتذكر أن كل مكر وحيلة ، يرجع في الدنيا إلى صاحبه ، كما تقول الآيات الكريمة (ويمكروا ويمكر الله والله خير الماكرين) .
والروايات عن الرسول والأئمة (ع) تقول ذلك ، وكما شهدت التجربة ، ثم تذكُرَّ الصدق والنصيحة في الظاهر وفي الباطن ، وإذا عثر الشخص على شيئ من المكر في أعماله ، فليتركه ويحاسب نفسه ، وعندما تكون النية صادقة ، بتطهير النفس فإن الله يوفقه ويعينه .

المقام الثاني

فيما يتعلق بالقوة الغضبية [81]

التهور

التهور هو الإقدام على أمور يمنعها العقل والشرع ، يقول الله تعالى : (ولا تلقوا بأيديكم في التهلكة) , وعلاج التهور ، أن يتذكر الإنسان النتائج السيئة المضرّة ويعوَّد نفسه على التروّي في بداية كل عمل يريد الإقدام عليه حتى لو سمح له العقل والشرع ، حتى يخُضع نفسه ، ويتعود على مخالفتها ، وإذا علم أن هذه الصفة زالت من نفسه ، عاد إلى القيام بأعماله بأسلوب معتدل وسطي وهو " الشجاعة ".

الجبن [82]

[81] (ص144)
[82] (ص 146)

وهو سكون النفس وكسلها ، عندما يكون عليها ، أن تطالب بحقها ، وهو يجعل النفس ذليلة خانعة ، وتُمكِّن الظالمين من الظلم ، والجبان لا يبالي حتى لو لحقه العار من تقصيره وجبنه .

قال رسول الله (ص) : " لا ينبغي للمؤمن أن يكون جباناً ولا نجيلاً والعلاج ، هو تحريك الحميَّة والغضب للحق ، الكامنة في نفسه ، وهي موجودة عند كل إنسان ، ولكنها تخف عند بعض الناس لأسباب عديدة ، وقد نقل عن الحكماء أنهم كانوا يلقون أنفسهم في المخاطر حتى لا يستسلموا ، ولا يتعودوا على الخوف والجبن للحصول على الشجاعة ، وهي الحالة الوسطية المطلوبة ، بين التهور والخوف ، وهي صفة شريفة ، يتصف بها الرجال العظماء ، وهي من أشرف الملكات ، وقد وصف الله الصحابة في قوله : (أشداء على الكفار رحماء بينهم)[83] , وأمر الله نبيه بقوله : (وأغلظ عليهم) [84] .

والشجاعة من صفات المؤمنين ، قال أمير المؤمنين(ع) عن المؤمن : " نفسه أصلب من الصلد " ؛ وقال الإمام الصادق(ع) : " المؤمن أصلب من الجبل ، والجبل يُستفلُّ منه والمؤمن لا يُستفلّ من دينه " .

الخوف [85]

الخوف هو غير الجبن ، فالجبن هو عدم القيام بما يسمى عقلاً وشرعاً من الدفاع عن النفس ، ورفع الظلم والجهاد في سبيل الله ضد أعداء الدين والظالمين . أما الخوف فهو مثل الخوف من ركوب السفينة ، أو النوم في البيت وحيداً ، أو حدوث بعض المكاره ؛
والخوف على نوعين : أحدهما مذموم والثاني ممدوح

الخوف المذموم

كالخوف من الموت ، وهو ناشئ عن الجهل ، إذ أن الموت ليس إلا قطع علاقة النفس عن البدن ، والنفس باقية أبداً ، كيف يمكن أن يجتمع العظماء من البشر كلهم ، كأهل الوحي ، وأساطين الحكمة والعرفان ، وهم الأنبياء والحكماء والأولياء ، على هذا الأمر ، ونحن ننكره ، وهو الجهل بعينه ، والخوف من الموت ، ومفارقة الأولاد والأموال والمناصب ، هذا ليس خوفاً من الموت نفسه ، إنما لمفارقة زخارف الدنيا ، ويجب التذكر ، انه لا يليق بالعاقل ، أن يرتبط قلبه بدنيا فانيه مع علمه أنه سيفارقها وينتقل إلى عالم آخر . فالموت هو تمام غير نقصان ، والإنسان

---

[83] (الفتح 29)
[84] (التوبة72)
[85] (ص147)

الكامل يشتاق إلى الموت ، لمعرفته أن الموت هو التمام والكمال ، وخروجه من ظلمة الطبيعة ، ومجاورة الأشرار إلى عالم الأنوار ومرافقة الأخيار من العقول المقدسة ، والنفوس الطاهرة ، وأي عاقل لا يرجح الحياة العقلية المجردة من الآلام و المصائب والأسقام ، ويذهب إلى الخوف المذموم إلى سعادة حقيقية ، فليسعى كل واحد منا إلى ذلك العالم ، والمقر الأصلي ، وينسلخ عن هذه الدنيا ، وينفض عن روحه المقدسة ، ما لصق بها من كدورات جسمية ، وليطهَّر نفسه الزكية من أدناس دار الغرور ، ويرتفع من حضيض الجهل والنقصان إلى أوج العزّة والعرفان .
ينبغي للعاقل ، أن يعلم يقيناً أن النظام الكلّي الإلهي ،هوالأصلح والأكمل ، وتغييره ينافي الحكمة , فيرضى بما هو واقع على نفسه وعلى غيره ، ثم إن من يتمنى طول العمر ، أما يعلم أن الشيب إذا أدركه ضعفت الأعضاء وإختلَّت القوى ، وزالت عنه الصحة ، التي هي عُمدة لذَّاته ، فلا يلتذ بأكل ولا جماع ، ولا يخلو من لحظة ألم ومرض ، وتتراجع قوته , يقول الله تعالى: (من نعمَّره ننكسه في الخلق)[86].

فطالب طول العمر ، هو بالحقيقة طالب لكل هذه النكبات المتزاحمة ، فإن لم يحصل على الفضائل الخلقية ، إستحكمت فيه الملكات المهلكة من الجهل وغيره فليكن سعيه ، في تحصيل الكمالات بقدر الإمكان ، والإهتمام بالإتصال بالله والقرب منه ، حتى يرتقي إلى عالم الحقيقة ، وحينئذ يشتاق للموت ، ولا يبالي بتقديمه أو تأخيره .

الخوف الممدوح [87]

إن إزالة الخوف ، هو في إختيار كل واحد منا ، بترك المعاصي ، وكسب الطاعات ، فالخوف هو سوط الله الذي يدفع إلى العمل والطاعة . والخوف الممدوح ، عندما يكون المؤمن ، قد وصل

إلى درجة كبيرة من المعرفة , لذلك يقول الله عز وجل : (إنما يخشى الله من عباده العلماء) [88] , وقال سيد الرسل: " أنا أخوفكم من الله ", كمال المعرفة تقتضي شدة الخوف ، وتوجب إختلاج القلب , والقلب يؤثر في الجوارح ، ويمنعها من المعاصي ، ويقيدها بالطاعات . والخوف هو ما يسمى " بالتقوى " , وهو سر العارفين والمطَّلعين ، إذ يقول عز وجل : (ويحذركم الله نفسه)[89], ويقول : (إتقوا الله حق تقاته) [90] ؛ وعدم الخوف من الله ، يسبب قسوة القلب ، والبطر والإستدراج بتواتر النعم ، والإغترار بالدنيا ..

---

[86] (يس 68)
[87] (ص159)
[88] (فاطر 28)
[89] (آل عمران 28)
[90] (آل عمران 152)

الخوف من الله أفضل الفضائل [91]

الخوف من الله تعالى ، منزلة من منازل الدين ، ومقام من مقامات الموقنين ، ومن أفضل الفضائل التي تؤدي إلى سعادة الدنيا والآخرة ، ولا سعادة ، كسعادة الإيمان بالله ومحبته وأنسه ، ولا يحصل ذلك إلا بالمعرفة ، وبالتفكر الدائم ، والذِكر ، ولا يتيسر الفكر والذِكر ، إلا بعدم التعلق بالدنيا ، والخوف من الله يساعد في الكف عن المعاصي ، والحث على الطاعات ، ثم بعد ذلك يتبدل الخوف ، بالأمن والأنس ، ويبلغ المؤمن مقام الرضا ، فيقول الله تعالى : (أولئك لهم الأمن وهم مهتدون)[92] ؛ وإذا ظهر الحق ، في النفوس ، لا يبقى فيها محل للخوف ولا لرجاء .

وللخوف من الله ، نتائج وكرامات كثيرة ، فقد جمع الله للخائفين العلم والهدى والرحمة والرضوان ، وهي مقامات أهل الجنة , فقال : (إنما يخشى الله من عباده العلماء) [93], وقال : (هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون)[94], وقال : (رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه)[95] , وقال: (الذين إذا ذُكر الله وجلت قلوبهم)[96] , وقال: (خافون إن كنتم مؤمنين)[97],
وقال: (سيذكّر من يخشى) (الأعلى 10) .

وقوله تعالى : (أما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى)[98]
وقوله : (لمن خاف مقام ربه جنتان)[99], وقال الرسول (ص) : " رأس الحكمة مخافة الله" ,

وقال : " من خاف الله أخاف منه كل شيئ ، ومن ولم يخف الله أخافه الله من كل شيئ " ,

وقال(ص) : " أتمكم عقلاً أشدَّكم لله خوفاً " .

خوف سوء الخاتمة [100]

إن أعظم المخاوف ، خوف سوء الخاتمة ، وله أسباب مختلفة , أهمها :

- أن يغلب على القلب عند سكرات الموت ، وظهور أهواله إما الجحود وإما الشك ، فتقبض الروح في تلك الحالة . قد يتعلق الجحود والشك ، ببعض العقائد الأصولية ، كالتوحيد ، وصفات الله

---

[91] (ص155)
[92] (الأنعان 82)
[93] (فاطر 28)
[94] (الأعراف 154)
[95] (البينة8)
[96] (الأنفال 2)
[97] (آل عمران 175)
[98] (النازعات 40)
[99] (الرحمن 46)
[100] (ص 161)

الكمالية ، أو بالآخرة أو النبوَّة أو بجميع العقائد ؛ فربما إعتقد الشخص بالله وصفاته وأفعاله ، خلاف ما هو الحق والواقع ، إما برأيه أو بالتقليد ، وعند الموت إنكشف له بطلان ما كان يعتقد , وقد ورد :

" أن أكثر أهل الجنة البله " , وهم الذين آمنوا بالله ورسوله واليوم الآخر إيماناً مجملاً راسخاً ، بمعزل عن خطر سوء الخاتمة ، وقد ورد المنع من البحث والنظر والخوض في الكلام ، والأخذ بظواهر الشرع ، مع الإعتقاد بأن الله منزَّهاً عن النقص ، متصفاً بصفات الكمال المطلق ، فهؤلاء البسطاء من الناس الذين أخذوا ما ورد من الشرع وإعتقدوا به ، وثبتوا عليه ، ولم يخطر في أذهانهم أي شبهة أوشك ، وكذلك عند الموت .

أما الآخرون عقائدهم من عقولهم القاصرة والخائضون في غمرات الشكوك والشبهات ، فربما ثبتت لهم عقيدة ، ثم يعرض لهم شك يضعفها , فهم دائماً في حيرة وإضطراب ، فإذا كان حالهم هذا وأخذتهم سكرات الموت ، فقد يكونوا شاكّين في بعض عقائدهم وقد نُقل عن (نصيرالدين الحلّي) , وهو من أعاظم العلماء ، أنه قال : " إني تفكرت في العلوم العقلية سبعين سنة ، وألَّفت فيها من الكتب ما لا يحصى ، لم يظهر لي منها شيء سوى أن لهذا المصنوع صانعاً ، ومع ذلك فإن عجائز القوم في ذلك أشد يقيناً مني " .

فالصواب هو تلقي أصل الإيمان والعقائد من صاحب الوحي ، مع تطهير الباطن من خبائث الأخلاق ، وعمل الطاعات وصالح الأعمال ، وعدم التعرُّض لما هو خارج طاقة الإنسان من التفكرّ في حقائق المعارف ، إلا من أيّده الله بالقوة القدسية ، والإستقامة ، وأشرق نور الحكمة في قلبه ، وشمله اللطف الإلهي ، فله الخوض في غمرات العلوم ، وعلى غيره أن يأخذ منه أصول عقائده

الواردة في الشرع .

والسبب الثاني للخوف من سوء الخاتمة ، هو ضعف الإيمان في الأصل ، وعندما يضعف الإيمان ، يضعف حب الله ، ويقوى حب الدنيا في القلب ، ويستولي عليه ، فلا يبقى في القلب موضع لحب الله ، فيظلِم القلب ويسودّ ، وتتراكم ظلمة الذنوب ، ويطفأ نور الإيمان كلّياً ، فإذا جاءت سكرة الموت ، وليس في القلب إلا حب الدنيا ، تألم ورأى أن الله هو من أماته ، وقد يشعر ببغض الله بدل الحب ، وإذا زهقت روحه في تلك اللحظة ، قد يختم له بالسوء . وقد ظهر أن السبب الذي يؤدي إلى الخوف من سوء الخاتمة هو حب الدنيا مع ضعف الإيمان الموجب لضعف حب الله ، فمن وجد في قلبه حب الله أغلب من حب الدنيا ، فهو أبعد عن الحظر ، وإن أحبّ الدنيا ، ومن وجد أن في قلبه عكس ذلك فهو قريب من هذا الحظر ، والسبب في قلَّة حب الله هو قلَّة المعرفة به ، إذ لا يحب الله إلا من عرفه ، وإلى هذا القسم من الناس الذين يخافون سوء الخاتمة أشار القرآن بقوله :
(قل إن كان أباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال إقترفتموها ، وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره)[101], فمن فارقته روحه ، في حالة كراهة فعل الله وبغضه له ، لأنه فرَّق بينه وبين أهله وماله وسائر ما يحب ، فيكون موته قدوماً على ما أبغضه وفراقاً لما أحبه ، فيقدم على الله قدوم العبد الآبق

[101] (التوبة 24)

المبغض لمولاه قهراً ؛ وأما الذي يموت على حب الله والرضا بفعله ، كان قدومه كالعبد المحسن المشتاق إلى مولاه ، فرحاً مسروراً .

والسبب الثالث للخوف من سوء الخاتمة , هو غلبة الشهوات وكثرة المعاصي ، لأن من كان قلبه أميل إليها منه إلى الطاعة ، فهذا الحظر قريب منه ، وإذا كان لا يميل إليها فهو بعيد عنه جداً والسرّ في ذلك أن عشية الموت ، شبيهة بالنوم ، والخواطر التي يراها الإنسان في منامه هي تماثل مشاهداته في اليقظة ، فربما مرَّت في ذهنه معصية تميل نفسه إليها وتقبض روحه ، ويكون ذلك سبب سوء خاتمته . فلا طريق ، إلا المجاهدة ، وفطام النفس نهائياً عن المعاصي والتوجه إلى الله ، والإكتفاء من الدنيا بقدر الضرورة ، وإلا من تجاوز ذلك فقد عرَّض نفسه للهموم وكثرة الغموم ، وأحاط به الشغل الدائم والعناء ، وأضاع أجمل أوقاته بالتعرف على الله والتقرب منه .

فعلى العاقل أن يراقب قلبه في جميع الأوقات ، ويكون همّهُ وشوقه إلى الأشرف والأكمل والأحسن والأنفع ، وهو حب الله ومعرفته لأنه الباعث للسعادة الأبدية .

التلازم بين الخوف والرجاء [102]

الرجاء هو إرتياح القلب وإطمئنانه بالحصول على ما يحب ، والخوف هو التألم من توقع ما يكره حصوله ، فالخوف والرجاء متلازمان ، وقد يغلب أحدهما نظراً لكثرة حصول أسبابه ؛ والخوف ممدوح عندما يبعث على العمل رهبة وخشية ، والرجاء أيضاً ممدوح لأنه يدفع ويبعث على العمل محبةً ورغبة بالثواب .

إن الدنيا مزرعة الآخرة ، والإيمان كالبذر ، والطاعات هي الماء الذي تُسقى به الأرض ، وتطهير القلب من المعاصي والأخلاق الذميمة ، بمنزلة تنقية الأرض من الأشواك ، والنباتات الخبيثة ، ويوم القيامة هو وقت الحصاد ؛ ويقاس رجاء العبد برجاء صاحب الزرع ، فالمزارع الذي يبذر في أرض طيبة ، ويسقيها في الوقت المناسب ، وينقيها من الشوك والأحجار ، ثم يجلس ينتظر كرم الله ولطفه مؤملاً أن يحصل على محصول وفير ، سميّ إنتظاره رجاء ممدوحاً ، وكذلك العبد الذي طهرَّ أرض قلبه من شوك الأخلاق الرديئة ، وبثّ فيها بذر الإيمان وسقاه بماء الطاعات ، ثم إنتظر فضل الله بتثبيته عند الموت وحسن الخاتمة والمغفرة ، كان إنتظاره رجاءً حقيقياً محموداً .

أما من تغافل عن الزراعة ، وإختار الراحة طوال السنة وألقى البذر في أرض سبخة مرتفعة ، لا يصل إليها الماء ، ولم يتعهد البذر ، وإصلاح الأرض من النباتات المفسدة للزرع ، ثم جلس ينتظر أن يحصد الزرع ، سمّي إنتظاره حمقاً وغروراً ؛ كذلك من كان منهمكاً في الشهوات والملذات ، ولم يتقيّد بالطاعات ثم إنتظر المغفرة ، كان إنتظاره تمنياً .

إذن الرجاء يصدق على من مهَّد جميع الأسباب التي هي تحت إختياره ولم يبق إلا ما ليس يدخل تحت إختياره ، وعلينا أن ننظر إلى حال الأنبياء والأولياء وإجتهادهم في الطاعات وصرفهم

---

[102] (ص 167)

العمر في العبادات ، إنهم كانوا أعلم بسعة رحمة الله ، ولكنهم علموا أن رجاء الرحمة من دون العمل غرور محض . ولكن الرجاء والنهي عن القنوط واليأس من رحمة الله وارد في الآيات القرآنية , كقوله تعالى : (يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله)[103],
وقول عليّ(ع) لمن أخرجه الخوف إلى اليأس لكثرة ذنوبه : " يا هذا ! يأسك من رحمة الله أعظم من ذنوبك " , وكما ورد عن يعقوب النبي(ع) أن الله تعالى أوحى إليه أتدري لما فرقت بينك وبين يوسف ؟ لقولك (وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون)[104] ؛ وأوحى إلى يعقوب أيضاً :
" لما خفت الذئب ولم ترجُني ؟ ولم نظرت إلى غفلة إخوته ولم تنظر إلى حفظي ؟
وقول الرسول عن الله تعالى : " لا يتكل العاملون على أعمالهم التي يعملونها لثوابي ، فإنهم لو إجتهدوا وأتعبوا أنفسهم وأعمارهم في عبادتي كانوا مقصرين غير بالغين في عبادتهم كنه عبادتي ، فيما يطلبون عندي من كرامتي ، والنعيم في جناني ، ورفيع الدرجات العلى في جواري , ولكن برحمتي فليثقوا ، وإلى حسن الظن بي فليطمأنوا ، وفضلي فليرجوا فإن رحمتي عند ذلك تدركهم ، ومني يبلغهم رضواني ومغفرتي تلبسهم عفوي ، فإني أنا الله الرحمن الرحيم وبذلك تسمّيت " .

وقال(ص) : " والذي لا إله إلا هو ، ما أعطي مؤمن قط خير الدنيا والآخرة إلا بحسن ظنه بالله ورجائه له ، وحسن خلقه ، والكف عن إغتياب المؤمنين ".

وقال الإمام الصادق(ع) : " لا يكون المؤمن مؤمناً حتى يكون خائفاً راجياً ، ولا يكون خائفاً راجياً ، حتى يكون عاملاً لما يخاف ويرجو ".

ولقد علمنا أن الخوف والرجاء محمودان ، لكونهما يبعثان على العمل ، ولكن هذا يختلف بإختلاف الأشخاص ، فمن كان الخوف يدفعه إلى العمل أكثر ، كان له الخوف أصلح من الرجاء ، ومن غلب عليه اليأس والقنوط فالرجاء له أصلح ، ومن ترك ظاهر الإثم وباطنه ، فالأصلح أن يعتدل خوفه ورجاؤه ؛ قال الله عزوجل : (يدعون ربهم خوفاً وطمعاً) وقال : (يدعوننا رغباً ورهباً).

مداواة الناس بالخوف والرجاء [105]

إن المحتاج إلى دواء الرجاء هو من غلب عليه اليأس ، فترك العبادة ، أو غلب عليه الخوف فأسرف فيها حتى اضّر بنفسه وبأهله ، اما المنهمكون في إرتكاب الذنوب ، والمغرورون ، فأودية الرجاء بالنسبة إليهم سموم مهلكة ، لأن الرجاء أن يتأمل سعة رحمة الله ورأفته بعباده ، وفي لطائف نعمائه ، في دار الدنيا ، فكيف يرضى لهم في دار الآخرة التي هي دار الفيض والجود ، أن يسوقهم إلى الهلاك ، المؤبد ، أو العذاب المخلّد ، مع أنه تعالى أخبر بأن رحمته سابقة لغضبه ، وهو قد أوجد الخلق لإفاضة الجود والإحسان عليهم .

---

[103] (الزمر 53)
[104] (يوسف 13)
[105] (ص175)

ذلة النفس [106]

هو الشعور بالذلة والمهانة ، وعدم إقتحام معالي الأمور ، والمسامحة في النهي عن المنكر والأمر بالمعروف ، وإضطراب النفس عند المصائب والبلايا ، وقد ورد في الأحاديث الشريفة أن المؤمن بريء من ذلة النفس .

قال الإمام الصادق(ع) : " إن الله عزوجل ، فوَّض إلى المؤمن أموره كلها ، ولم يفوِّض إليه , أن يكون ذليلاً ، أما تسمع الله تعالى يقول : (ولله العزَّة ولرسوله وللمؤمنين) [107] " .

كبر النفس وصلابتها [108]

دلَّت الأحاديث أن المؤمن ذو صلابة وعزَّة ومهابة ، وكل ذلك فرع من كبر النفس .
قال الباقر(ع) : " المؤمن أصلب من الجبل ، الجبل يستفل منه بالمعاول ، والمؤمن لا يستفل من دينه " ؛ إن الله أعطى المؤمن ثلاث خصال ، العز في الدنيا والآخرة ، وصاحب هذه الملكة ، لا يبالي بالفقر والغنى ، ولا بالصحة أو المرض ، والمدح أو الذم ، ولا يتقلب ويتأثر ، عند تغير الأمور والأحوال ، وهي ملكة شريفة لا يصل إليها إلا أفاضل الحكماء ، والعرفاء ، والخلَّص من المؤمنين .

الثبات من كبر النفس [109]

الثبات هو ملكة التحمل على الخوض في الأهوال ، ومقاومة الشدائد والآلام ، بحيث لا يعتريه الإنكسار وإن كثرت ، ومن أهم أنواع الثبات ، هو الثبات على الإيمان ، وهو إطمئنان النفس في عقائدها ، بحيث لا تتزلزل بالشبهات . قال الله تعالى : (فثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة)[110] .

والثبات هو نتيجة كسب الكمالات والفضائل ، لأن النفس إذا إستقَّرت في معتقداتها في المبدأ والمعاد ، حصل لها العزم الثابت ؛ من ليس له ثبات فهو كما يقول الله عزوجل : (كالذي إستهوته الشياطين في الأرض حيران)[111] ؛ والمتصف بالثبات ، هو مواظب على اعمال الخير والصلاح بشكل دائم من غير فتور أو تعب . وعدم الثبات ، سببه ضعف النفس ، وعدم البصيرة الباطنية ، لأن وجوده يحصل من المعرفة ، وقوة النفس ، وهو من فضائل القوة العاقلة .

---

[106] (ص 176)
[107] (المنافقون 8)
[108] (ص 176)
[109] (ص 177)
[110] (إبراهيم 27)
[111] (الأنعام 71)

دناءة الهمة [112]

هو قصور النفس عن طلب معالي الأمور ، وقناعتها بأدناها ، وهو نتيجة ضعف النفس .
أما علوّ الهمة ، فهو السعي في تحصيل الكمال وطلب معالي الأمور ، من دون النظر إلى منافع الدنيا أو مضارها ، فالمؤمن في طريق الطلب لا يبالي بالقتل أو الموت ، وهو مشتاق إلى الشهادة ، وهو أعظم سرور يصل إليه . وهذه الملكة من نتائج كبر النفس وشجاعتها ، وهي أعظم الفضائل النفسية ، ومن يصل إليها ، هو ممن لا يرضى بالمراتب الدنية ، ويسعى ويشمَّر للأمور المتعالية .
قال الله تعالى : (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا)[113], ومن طلب الشيء وجدَّ وجد ، ومن علوّ الشهامة ، هو الحرص على الحصول على عظائم الأمور التي تترك الذكر الجميل على مر الدهور.

الغيرة والحمية [114]

هي السعي في المحافظة على ما يلزم الحفاظ عليه ، وهو من نتائج الشجاعة وكبر النفس وقوتها ، ومن الملكات الشريفة ، والفاقد لها لا يعدّ إنساناً ؛ ومن كان لا حميَّة له ولا غيرة ، نزع منه روح الإيمان ، والغيرة والحميَّة على الدين ، وحفظه من المبتدعين ، والمبطلين والمرتدين ، ورد شبهات الجاحدين ، والسعي في نشر أحكام الدين وتبيان حلاله وحرامه ، وعدم التسامح بالأمر بالمعروف و النهي عن المنكر , كل هذه الأمور هي من صفات المؤمن الحقيقي .

ولكن الإفراط في الغيرة ، والمبالغة في إساءة الظن والتعنت والتجسس على البواطن ، فقد نهى عنها الرسول ؛ وقال رسول الله(ص) : " من الغيرة غيرة يبغضها الله ورسوله ، وهي غيرة الرجل على أهله من غير ريبة ", وقال أمير المؤمنين(ع) : " لا تكثر الغيرة على أهلك فترمي بالسوء من أجلك " .

العجلة [115]

هي الإقدام على الأمور بأول خاطر ، من دون توقف وهدوء في العمل بها ، وهو من لوازم ضعف النفس وصغرها ، وهو من أبواب الشيطان ، قد أهلك به كثيراً من الناس , قال رسول الله(ص) : " العجلة من الشيطان والتأني من الرحمن " , وقال الله تعالى لنبيّه (ص) : (لا تعجل بالقرآن من قبل أن يُقضى إليك وحيه) [116].

---

112 (ص 177)
113 (العنكبوت 9)
114 (ص 179)
115 (ص 184)
116 (طه 114)

إن الأعمال ينبغي أن تكون بعد المعرفة والبصيرة ، والتأمل والمهلة ، والعجلة تمنع ذلك ؛ والتجارب تدل على أن كل ما يصدر عن العجلة ، يوجب الندامة والخسران ، وكل ما يصدر عن التأني والتفكير والتأمل ، لا يكون بعده ندامة . وإذا تأملنا في الأمور ، نجد أن العجلة هي السبب الأعظم لتبديل نعيم الآخرة وملك الأبد ، بدنيا خسيسة عاجلة ، وملذات قليلة لا دوام لها .
إن الذات الإنسانية المجردة ، هي من سنخ الله ، وهي مشتاقة لأنواره وللإتصاف بكماله , قال الله

عزوجل : (قل الروح من أمر ربي) [117], وقال (نفخت فيه من روحي) ؛ إذاً ينبغي لكل عبد أن يطلب ملكاً عظيماً لا آخر له ، وسعادة دائمة لا نفاذ لها ، وبقاء لا فناء له ، وعزّ لا ذل معه ، وأمناً لا خوف منه ، وغنى لا فقر معه ، وكمالاً لا نقصان منه ، وهذه كلها أوصاف الربوبية ، وطالبها هو طالب للعلو والعز والكمال لا محالة .

إن من تعلق بالدنيا ، وإشتغل لأجلها مع علمه أنه مفارقها وترك مُلك الآخرة ، مع علمه ببقائها ، ولم يتأمل المسكين أن مُلك الدنيا ورئاستها ، ليس كمالاً ولا علوّاً ولا إستيلاء في الحقيقة ، بل هو صفة نقص بعيدة عن الكمال الحقيقي والرئاسة الحقيقية . إن الحب والعشق من صفات الكمال ، ولكن إذا وقع الحب في موقعه ؛ لأن من يستحق الحب هو الكامل في ذاته وصفاته .

فمن أحب المُلك العاجل والفاني ، أحب مُلكاً مجازيّاً ، فهو أحمق ومغرور ، لأن المُلك الحقيقي هو الذي يبقى إلى الأبد , قال عزوجل : (يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم إنفروا في سبيل الله إثاقلتم إلى الأرض ، أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل)[118] , وقال عزوجل : (إن هؤلاء يحبّون العاجلة ويذرون ورائهم يوماً ثقيلا)[119].

إن الغاية من بعث الرسل ، هو دعوة الخَلق إلى المُلك المخلَّد ، ليكونوا ملوكاً في الآخرة ، والشيطان يدعوهم إلى طريق العجلة ، وإلى ملك الدنيا الفاني المليء بالهموم والمكدرات , فالساعي إلى الدنيا وملكها ، هو عبد لشهواته ، مسخَّراً لها مثل البهيمة ، ويظن أنه صار ملكاً وهو في الحقيقة مملوكاً .

سوء الظن بالخالق والمخلوق [120]

لا ريب أن سوء الظن بالناس تدل على خبث الباطن وقذارته ، وكما أن حسن الظن من علامات سلامة القلب وطهارته ، فكل من يسيئ الظن بالناس ، ويطلب عيوبهم وعَثراتهم فهو خبيث النفس سقيم الفؤاد , وكل من يحسن الظن بهم ويستر عيوبهم ، فهو سليم النيَّة طيب القلب . فالمؤمن يظهر محاسن أخيه ، والمنافق يطلب مساوئه ، وكل إناء يرشح بما فيه .

---

[117] (الإسراء 95)
[118] (التوبة 28)
[119] (الدهر 27)
[120] (ص187)

إن سوء الظن وخبثه هو من المحرمات وقد قال الله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا إجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم)[121], وقال سبحانه : (وذلكم ظنَّكم الذي ظننتم بربكم)[122] , وقال أمير المؤمنين (ع) : " لا تظننَّ بكلمة خرجت من أخيك سوءاً وأنت تجد لها في الخير محملاً ".

إن سوء الظن وخبثه ، هو من خبث الضمير وإغواء الشيطان ، إن أسرار القلوب ، لا يعلمها إلا علاّم الغيوب ، فليس لأحد أن يعتقد في حق أحدٍ سوءاً ، إلا إذا شاهده وعلِمهُ ، أما إذا لم يشاهده ويعلمه ، وإنما ظن ظناً ، فينبغي أن يكذبه ، لأن ذلك لا يصدر إلا من فاسق , وقد قال الله تعالى : (إذا جاءكم فاسق بنبأٍ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة)[123]؛ ولكن على المؤمن ، أن يصون نفسه ، ولا يعرَّض نفسه للتهُّم ، وقد قال أمير المؤمنين(ع) : " إتقوا مواقع التهم ، فمن عرَّض نفسه للتهم فلا يلومن إلا نفسه " .

وقد رُوي عن رسول الله(ص) , أنه كان يكلِّم زوجته صفية ، فمرَّ به رجل من الأنصار ، فقال له رسول الله : يا فلان ! هذه زوجتي صفية ، فقال الرجل يا رسول الله أفنظن بك إلا خيراً ؟ قال الرسول : " إن الشيطان يجري من بني آدم مجرى الدم ، فخشيت أن يدخل عليك " .

فلا يظننَّ أحد من الناس ، إعجاباً بنفسه ، مهما بلغ من العلم والورع ما بلغ ، والسبب في ذلك ، أن أورع الناس وأفضلهم لا ينُظر إليه الناس بعينٍ واحدة ؛ فلكل عدوّ وحاسد ، لا ينظر إلا بعين السخط ، فيكتم المحاسن ، ويطلب المساوىء ، فالشرير لا يظن بالناس إلا الشر ،

وكل صاحب عيب ، يحب أن يكون الناس كلهم عيوب ، لأن البليَّة إذا عَمَّت هانت .

علاج سوء الظن

العلم بالأمور الفاسدة ، يوضح طريق العلاج ، وهو العلم أيضاً بأضدادهما ، فإذا خطر لنا خاطر سوء على أحد من الناس ، علينا أن لا نتبعه ، بل أن نزيد من مراعاته وندعو له بالخير ، وأن ننصحه في السر ، ولا نغتابه ، وإذا وعظته فلا تشعره بأنك مسرور بإطلاعك على عيبه ، بل يكون قصدك هو إستخلاصه من الإثم .

وقد عرفنا أن سوء الظن بالخالق والمخلوق ، والضد لهما هو حسن الظن بهما ، ولما كان سوء الظن من ضعف النفس وصِغرها ، فحسن الظن ، هو نتاج لقوتها وثباتها ، وفوائده أكثر من أن تحصى . وعلى المؤمن أن يحسن الظن بالله ، ولا يظن أن ما يردُ عليه من البلايا ، والمصائب هو شر له وعقوبة ، بل ينبغي أن يعلم أن الله أرأف به من والديه ، وهو قد خلقه ليرحمه ، ويوصله إلى دار النعيم ، وعليه أن يؤمن بأن هذه الإبتلاءات هي لصلاحه .

---

[121] (الحجرات 12)
[122] (فصلت 23)
[123] (الحجرات 6)

الغضب [124]

الغضب هو حالة نفسية ، تظهر ما في داخل النفس والروح إلى الخارج ، ومبدؤها شهوة الإنتقام ، فيمتلئ الدماغ والأعصاب ، بطاقةٍ مظلمة ، ويضعف نور العقل , فلا يعد يؤثر فيه الوعظ أو النصيحة ، بل تزيده الموعظة غلظةً وشدةً . ولكن المؤمن لا يغضب إلا حميَّة للحق ،
وأما الجاهل المتكبر ، فيغضب حميَّة للتجبُّر والطغيان وللشيطان , الذي قال : (خلقتني من نار وخلقته من طين)[125] , فمن شأن الطين السكون والوقار ، ومن شأن النار التلظيّ والإستعار.

إن قوة الغضب ، إما تكون لدفع المؤذيات قبل وقوعها ، أو إلى التشفي والإنتقام بعد وقوعها ، فشهوتها ولذتها في هذين الأمرين . والغضب يكون عادةً على من هو أضعف منه ، والشعور بقدرته على الإنتقام ، ولكنه لا يستطيع الغضب على من هو أقوى منه ، فيشعر بالحزن واليأس من الإنتقام .

الإفراط أو التفريط في الغضب

الإفراط ، يكون عندما يخرج الغضب عن طاعة العقل والشرع ، فلا يبقى تفكرٌ أو بصيرة ,
والتفريط ، هو عدم الغضب ، بحيث تضعف هذه القوة ، حتى عندما يجب أن يغضب المرء ، فلا تكن حميَّة ، ويتحمل الذل والمهانة , والإعتدال ، وهو يسمى " الشجاعة " في الوقت المناسب .

الحدَّة في الغضب [126]

قال أميرالمؤمنين (ع) : " الغضب ضرب من الجنون ، فإن لم يندم فجنونه مستحكم " ,

وقال الصادق(ع): " الغضب مفتاح كل شر ، من لم يملك غضبه ، لم يملك عقله " .

ومن آثار الغضب ، إنطلاق اللسان بالشتم والسب ، وإظهار الشماتة ، وإفشاء الأسرار ، وهتك الحرمات ، وغير ذلك من الكلام الذي يستحي منه العقلاء ، وهو يصدر عن قلب مليء بالحقد والحسد والعداوة ؛ والعجب ممن يتوهم أن الغضب هو من الرجولة ، مع أن ما يصدر عن الغاضب , أفعال المجانين والأطفال , يقول الرسول (ص) : " الشجاع من يملك نفسه عند غضبه " .

علاج الغضب

---

[124] (ص190-191)
[125] (الأعراف 12)
[126] (ص192)

علاج الغضب بإزالة أسبابه ، ومنها الغرور ، والتكبر ، والغدر وشدة الحرص على المال والجاه ، وغير ذلك من الصفات الذميمة . على المرء التعامل مع الناس بالحلم وكظم الغيظ ، فإذا فعل ذلك مدةً من الزمن صار شيئاً مألوفاً عنده ؛ وعليه أن يعلم أن الأشياء كلها ، مسخَّرة لقدرة الله ، وربما كان صلاحه في جوعه ومرضه ، أو في فقره أو قتله أو غير ذلك فإذا علم بذلك وآمن ، غلب عليه الإيمان واليقين بالعدل الإلهي ، وعندما يصل الإنسان إلى هذه القناعة ، لا يعود يلتفت إلى الأسباب والوسائط ، ويكتمل عقله .

وعليه أن يتذكر أن الغضب ، مرض ونقصان في العقل ، صادر عن ضعف النفس ونقصانها ، لا على شجاعتها وقوتها ، ولذا يكون المجنون أسرع غضباً من العاقل ، والمريض أسرع غضباً من الصحيح ، والشيخ الهرم أسرع غضباً من الشاب ، وصاحب الأخلاق السيئة أسرع غضباً من صاحب الفضائل . والنفس القويَّة المتصّفة بالفضيلة ، أجلُّ شأناً ، من أن تتغيّر وتضطرب لمثل هذه الأمور ؛ وإذا نظرنا إلى الناس في كل وقت ، في الماضي والحاضر ، نجد أن : الحلم ، والعفو ، وكظم الغيظ ، شيمة الأنبياء والحكماء والعقلاء ، والغضب خصلة الجهلة والأغبياء . ومن الأمور التي تطفأ الغضب ، الخروج من المكان الذي هو فيه ، وغسل الوجه بالماء البارد ، وإذا كان الغضب من أحد أرحامه ، فليدنو منه ويمسُّه ، فتسكن نفسه .

الحلم وكظم الغيظ [127]

الحلم هو طمأنينة النفس ، بحيث لا يحركها الغضب بسهولة ، ولا يزعجها المكروه بسرعة ، فهو ضد الغضب ، والحلم يمنع الغضب , والحلم هو من أشرف الكمالات النفسية بعد العلم ، والعلم لا ينفع بدونه ؛ قال رسول الله (ص) : " اللهم أغنني بالعلم وزيّني بالحلم ", وقال : " خمس من سنن المرسلين " وعدَّ منها الحلم , وقال : " إبتغوا الرفعة عند الله " , قالوا ما هي يا رسول الله ؟ قال : " تصل من قطعك ، وتعطي من حرمك ، وتحلم عمن جهل عنك " , وقال : " إن الرجل ليبلغ درجة الصائم القائم بحلمه " ؛ و قال أمير المؤمنين (ع) : " ليس الخير أن يكثر مالك وولدك ، ولكن الخير أن يكثر علمك وحلمك " .

أما كاظم الغيظ ، فهو تكلُّف الحلم ، إذا واظب عليه حتى صار معتاداً , تحدث بعد ذلك صفة الحلم , قال رسول الله(ص) : " العلم بالتعلم والحلم بالتحلُّم " , فإذا لم يكن المرء حليماً بالطبع ، لا بد له أن يتعلم كظم الغيظ , قال زين العابدين(ع) : ما تجرعت جرعةً أحبُّ إليَّ من جرعة غيظ لا أكافئ بها صاحبها "؛ وقد قال الله تعالى : (والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين) [128].

الإنتقام [129]

[127] (ص196)
[128] (آل عمران 134).
[129] (ص 198)

الإنتقام محرَّم ممنوع بالشريعة ، وهو من نتائج الغضب فلا يجوز مقابلة الغيبة بالغيبة ، ولا البهتان بالبهتان ، ولا السبُّ بالسبُّ ؛ قال رسول الله (ص) : " إذا مرؤ عيرك بما ليس فيك

فلا تعيره بما فيه " ، وقال " المتسابان شيطانان يتهاتران " ؛ والعفو عن الجائر أقرب إلى الورع والتقوى ؛ قال الباقر(ع) : في رجلين يتسابان ، البادئ منهما أظلم ووزره ووزر صاحبه عليه ما لم يعتذر من المظلوم " .

العفو [130]

هو أن يُسقط المظلوم حقه من قصاص أو غرامة , والآيات والأحاديث في مدحه وحسنه أكثر من أن تحصى ، قال الله تعالى : (خذ العفو وامر بالعرف)[131] , وقال : (ليعفوا ويصفحوا)[132] , وقال : (إن تعفو أقرب للتقوى)[133] ؛ وقال رسول الله (ص) : " العفو لا يزيد صاحبه إلا عزّا فاعفوا يعزّكم الله " , وقال(ص) : " إن أفضل أخلاق أهل الدنيا والآخرة هي : أن تصل من قطعك ، وتعطي من حرمك ، وتعفو عمن ظلمك ".

العنف [134]

العنف هو الغلظة والفظاظة في الأقوال والحركات ، وهو من نتاج الغضب ، وضدّه الرفق واللين ؛ وقد نهى الله نبيَّه عنه ، وهو صاحب الخلق العظيم ، و المعلم والمرشد , قال الله تعالى : (لو كنت فظاً غليظاً القلب لإنفضوا من حولك) (آل عمران 159) , ولكن على من فيه هذه الصفة ،

أن يغيرّها بالرفق واللين ، ولو تكلّفاً في البداية ، إلى أن تصير ملكة وتزول عنه آثار العنف كلياً .

الرفق والمداراة [135]

قال رسول الله (ص) : " ما إصطحب أثنان إلا كان أعظمهما أجراً وأحبهما إلى الله تعالى أرفقهما بصاحبه " , وقال: " أتدرون من يحرَّم على النار ، كل هيّن لين سهل قريب " ,

وقال : " من كان رفيقاً في أموره نال ما يريده من الناس ".

ثم إن التجربة تشهد بأن النجاح موقوف على الرفق واللين ، فكل حاكم كان رفيقاً بجنده ورعيته ، إنتظم أمره ودام ملكه ؛ وإن كان فظّاً غليظاً إختل أمره وأنفض الناس من حوله ، وزال سلطانه ، وكذلك بقية طبقات الناس ، من عالم أو تاجر أو صاحب مهنة أو حرفة .
وقال رسول الله(ص) : " أمرني ربي بمداراة الناس كما أمرني بأداء الفرائض " .

---

130 (ص199)
131 (الأعراف 199)
132 (النور 22)
133 (البقرة 137)
134 (ص200)
135 (ص201)

سوء الخلق [136]

هو التضجر ، وإنقباض الوجه ، وسوء الكلام ، وهو من نتاج قوة الغضب ، وضده حسن الخُلق ؛ إن سوء الخلق يبعد صاحبه عن الخالق وعن الخلق ، والتجارب تشهد بأن طبائع الناس تنفر من كل سيء خلق ، وهو دائماً في حالة حزن و ألم ، لذا قال الإمام الصادق(ع) : " من ساء خلقه عذَّب نفسه " , وروي أنه قيل لرسول الله(ص) : " إن فلانة تصوم النهار وتقوم الليل ، وهي سيئة الخلق تؤذي جيرانها ، فقال : لا خير فيها هي من أهل النار ".

وقال أحد العلماء الكبار: " لأن يصحبني كافر حسن الخلق ، أحبُّ إلي من أن يصحبني عابدٌ سيء الخلق " ؛ وعلاج من خلقه سيءٌ ، أن يتذكر أنه يفسد دينه ودنياه وآخرته ، ويجعله ممقوتاً عند الخالق والمخلوق وعليه أن يعمل لإزالة هذه الرذيلة ، ويبدأ بمراقبة نفسه ، في كل حركة ، وكلمة ، وأن يحفظ لسانه ، بالتحمُّل والتكلف ، بعكس ما هو عليه ، ويواظب على ذلك حتى تزول عنه آثار سوء الخلق بالكامل .

طرق إكتساب حسن الخُلق [137]

قال رسول الله(ص) : " ما يوضع في ميزان أمريء يوم القيامة أفضل من حسن الخلق ",

وقال : " يا بني عبد المطلَّب ، إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فلاقوهم بطلاقةٍ وحسن البِشر " ,

وقال : " إن العبد ليبلغ بحسن خلقه أعظم درجات الآخرة وأشرف المنازل ، وهو ضعيف العبادة ,

وقال : " إن الله تبارك وتعالى ليعطي العبد من الثواب على حسن الخُلق ، كما يعطي المجاهد في سبيل الله " , وقال الباقر(ع) : " إن أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خُلقاً " ؛ وإذا نظرنا إلى هذه الأحاديث الشريفة عن الرسول الأكرم وعن الأئمة الأطهار ، وراقبنا أحوال الناس ، كيف أن سيّء الخلق بعيدٌ عن الله ورحمته ، وأن الناس يبغضونه ويشمئزون منه , وكيف أن صاحب الخُلق الحسن، محبوب عند الله , وعند الناس ومحلاً لرحمة الله وفيوضاته ، ومرجعاً للمؤمنين وثقتهم ، لأن خيره ونفعه يصل إليهم ، وأن أفضل صفات المرسلين والصدّيقين هي حسن الخلق ، لذلك قال الله تعالى لنبيَّه الكريم مُثنياً عليه : (إنك لعلى خُلقٍ عظيم) .

وقد ورد عن رسول الله(ص) : " ذات يوم كان رسول الله جالساً في المسجد ، إذ جاءت جارية ، وأخذت بطرف ثوبه ، فقام لها ، فلم تقل شيئاً ، ولم يقل لها شيئاً ، حتى فعلت ذلك ثلاث مرات ، وقام لها في المرة الرابعة ، فأخذت هدبةً من ثوبه ، ثم رجعت دون أن يراها ، فقال لها

---

[136] (ص202)

[137] (ص 203)

الناس ، حبستِ رسول الله ثلاث مرات لا تقولين له شيئاً ، ما هي حاجتك إليه ، فقالت إن لنا مريضاً وقد أرسلني أهلي لآخذ هدبة من ثوبه وإستحييت أن أطلبها منه فأخذتها دون أن يراني .

الحقد [138]

هو إضمار العداوة في القلب ، وهو نتيجة القوة الغضبية المحتقنة في القلب فتصير حقداً ، وقد قال رسول الله (ص) : " المؤمن ليس بحقود " ؛ وسبب الحقد هو تجمُّع الصفات السيئة في القلب ، نتيجة القوة الغضبية , وهي : الحسد ، والغيبة ، والبهتان ، وإفشاء الأسرار ، وإظهار العيوب والشماتة بمصائب الناس والسرور بها ، والسخرية والإستهزاء بالناس ، ومنع الحقوق عن أصحابها .

وكل ذلك حرام وإنحراف عن الحق ، وهو يؤدي إلى فساد الدين والدنيا والحقد آفة ثقيلة على القلب ، تؤدي إلى البغضاء والشحناء , وهو مرض مؤلم ، يمنع الإنسان من القرب إلى الله ، ويمنع من الهشاشة والرفق والتواضع والقيام بحوائج الناس , ومجالستهم وإعانتهم ومواساتهم . قال الإمام الصادق(ع) : " من زرع العداوة حصد ما بذر " ؛ وعلاج الحقد يكون بأن يتذكر الشخص أن هذه العداوة الباطنة تؤلمه ، فالحقود المسكين لا يخلو من التألم والهم لحظةً واحدة ، وهو لا يضّر من حقد عليه إذا كان بعيداً عنه , أما إذا كان قريباً فيسبب له الأذى .

والعاقل لا يترك نفسه ، في حالة مضَّرة لنفسه ، وعليه أن يسعى ويجاهد نفسه ، ويرغمها على التعامل مع الناس بمحبة ولياقه وأدب ، وخاصة من يحيط به من أهل وأولاد وأقارب وأصحاب وجيران ، ويعاملهم برفق ولين ، ويقوم بقضاء حوائجهم ، ويزيد في ذلك من البر والإحسان ، ويكرر ذلك حتى ترتفع عن نفسه هذه الرذيلة كليَّاً ، وحتى يصبح الخير والصلاح مَلكة عنده .

ومن الأسباب التي تؤسس للحقد ، حب المال والطمع ، أو فقده وخسارته ؛ وهذه الأمور التي تصدر عن الحقد هي مذمومة ومحرَّمة في الشريعة وهي تؤدي أحياناً عند بعض الجهَّال إلى الضرب ، والفحش واللعن والسُباب ، وهي تدل على خبث النفس.
وقد قال رسول الله(ص) : " إن شر الناس عند الله تعالى يوم القيامة الذين يُكرَّمون إتقاء شرّهم ",

وقال : " ليس المؤمن بالطعّان ، ولا اللعَّان ولا الفاحش ولا البذيء ", وقال :" من ضرب أحد بسوط ، ضربه الله بسوط من النار " .

والفحش هو التعبير عن الأمور القبيحة بالشتم والعبارة الصريحة ، وهو شُعبة من شُعب النفاق , وقال أيضا : " ألا أخبركم بشراركم ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : المتفحش اللعَّان الذي إذا ذُكر عنده المؤمنون لعنهم وإذا ذكروه لعنوه " , ولا يجوز اللعن إلا على الكافرين والمنافقين وأهل الجحود والعناد , الذين قال الله عنهم : (أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين " [139]؛

---

[138] (ص 205)
[139] (البقرة 161)

وقال النبي (ص) : " لُعِن الكاذب ولو كان مازحاً ".

إن اللعن يجوز على رؤساء الظلم والضلال والمجاهرين بالكفر والفسق , وقد لعن أمير المؤمنين(ع) معاوية وأتباعه مع أنه كان أحلم الناس وأشدهم صفحاً , ولكن يجب أن لا يحكم أحداً على غيره بمجرد الظن والتخمين ، فلا يجوز أن يرمي شخصاً بالكفر والفسق من غير تحقيق , وقال رسول الله (ص) : " من رمى احداً بالكفر والفسق إرتد ذلك عليه "؛ ولا يجوز لعن الأموات ، ولا الجماد ، ولا الحيوان , وقد أنكر رسول الله على رجل لعن بعيراً . إن من أحب الطاعات ، وأقرب القربات، الدعاء للغير ؛ قال رسول الله(ص) : " إذا دعا أحدكم لأخيه في ظهر الغيب قالت الملائكة ولك مثل ذلك ".

العُجب [140]

العُجب هو تعظيم النفس لأجل موهبة أو نعمة ، كانت واقعية أو لا ، ونسيان أن النعم والمواهب هي من الله . وإذا أُضيف إلى العجب الإعتقاد ، بأنه مستحق للنعمة ويستبعد أن يجري عليه أي مكروه ، وظلّ متوقعاً من الله الكرامة سمي ذلك "دلالاً " بالعمل فكأنه ، يرى لنفسه على الله دالَّة ، فيضيف إلى العُجب الدلال , فإذا أعطى غيره شيئاً ، إستعظمه ومنَّ عليه ، ونسي من هو المعطي الأساسي , وإذا آمن بربه يمنُّ على الله عزوجل إيمانه ، ولله عليه المن .

يقول تعالى: (فمن زين له سوء عمله فرآه حسناً) [141], و العجب من المهلكات العظيمة ، وأرذل الملكات الخبيثة , قال رسول الله (ص): ثلاث مهلكات : " شحٌّ مطاع ، وهوى متبَّع ، وإعجاب المرء بنفسه " .

نتائج العجب

المعجب بنفسه ينسى ذنوبه ويهملها ، فلا يتذكر شيئاً منها وإن تذكرَّ بعضاً منها إستصغرها ولا يسعى إلى تداركها , وأما العبادات ، فلا يهتم بها ، ويغتر بنفسه ورأيه ، ويأمن مكر الله وعذابه ، ويظن أن الله راضٍ عنه ، ويزكيّ نفسه ويثني عليها ، و إن أعجبه رأيه وعقله وعلمه ، منعه ذلك من السؤال والإستفادة والإستشارة ، فيستبد برأيه ، ولا يعترف بمن هو أعلم منه ، وربما يُعجب بالرأي الخطأ الذي خطر له ، فيفرح به لأنه هو من إبتدعه ، ولا يهتم لآراء الآخرين ، بل ينظر لغيره بعين الإحتقار ، والجهل , فإن كان رأيه الفاسد متعلق بأمر دنيوي ، أضرّه وفضحه ،

وإن كان متعلق بأمر ديني لا سيما في أصول العقائد , أضلَّه وأهلكه , ولو أنه إهتم بنفسه ولم يتبع هواه ، وإستعان بعلماء الدين ، وسؤال أهل البصيرة لكان خير له وأحسن ، ، ولكان وصل إلى الحق اليقين . ومن نتائج العجب أن صاحبه ، يفتر عن الجد والسعي , لظنهّ أنه قد إستغنى وفاز بما ينجيه وهو الهلاك الصريح . و للعجب نوعين من العلاج : علاج عام ، وعلاج خاص .

---

140 (ص211)

141 (فاطر 8)

العلاج العام

هو أن يعرف الإنسان ربه ، وأنه لا تليق العظمة والعزّة إلا به ، وأن يعرف نفسه حق المعرفة : أنه بذاته ضعيف ذليل لا حول له ولا قوة , فلِما العجب والعظمة ، فالعزة والعظمة لله عزوجل ؛ وليتذكر الإنسان ، من أين تبدأ حياته , وإلى أين تنتهي ، وتكفيه آية من كتاب الله في قوله : (قُتِل الإنسان ما أكفره من أي شيء خلقه من نطفة خلقه فقدرّه ثم السبيل يسَّره ثم أمانة فأقبره ثم إذا شاء أنشره) [142], بداية الإنسان ، من نطفة ، ونهايته الموت ، وهو لا يقدر على شيء بنفسه ولا لغيره ، تتسلَّط عليه الأمراض والأسقام شاء أم أبى ، رضي أم سخط ، فيجوع كرهاً ، ويعطش كرهاً ، ويمرض كرهاً ، لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرراً ، ولا خيراً ولا شراً يريد أن يعلم الشيء ، فيجهله ، ويريد أن يتذكر الشيء فينساه ويريد أن ينسى الشيء فلا ينساه ، ويريد أن ينصرف قلبه إلى ما يهمه ، فيجول في أودية الوساوس والأفكار مضطراً ، فلا يملك قلبه ولا نفسه ، يشتهي الشيء وفيه هلاكه ، ويكره الشيء وفيه حياته ، يستلذ بما يهلكه ويرديه ، ويبتعد عما ينفعه وينجيه .
لا يأمن في لحظة من ليله ونهاره ، أن يُسلب سمعه وبصره وعلمه وقدرته ، وهو مضطر ذليل ، تخُطف روحه ، ويُسلب جميع ما يهواه في دنياه ، وأنَّى له العجب لولا جهله ، وهذه أحواله .

العلاج الخاص

وهو معالجة الأسباب وهي : العُجب بالعِلم ، أو بالعبادة ، أو النسب ، أو المال والجمال أو القوة والجاه .

- العُجب بالعِلم : فعليه أن يعلم أن العالِم الحقيقي ، هو الذي يعرف نفسه ، ويعرف خاتمته ، إن كانت شقاءً أم سعادة ؛ وهل هو من يزيده العلم خوفاً وتواضعاً لله ، والشكر الدائم إزاء النعمة . فالعلم الذي يؤدي إلى العُجب ، فهو ليس علماً حقيقياً بل هو علوم دنيوية ، يجب أن تسمى صناعات لا علوم ، إذا خاض فيها صاحبها ، وهو خبيث النفس ، رديء الأخلاق ، لم يهذب نفسه أولاً ويزكيها بالمجاهدات ، ولم يرضيها في عبادة ربه ، فيبقى خبيث الجوهر ؛ فإذا دخل العلم إلى هذا القلب الخبيث ، لم يطِب ثمره ، ولا يظهر أثره ، فالعلم مثل الغيث والمطر ، ينزل من السماء عذباً صافياً ، فإذا شربته الأشجار والنباتات ، إزداد المر مرارةً ، والحلو حلاوةً وكذلك العلم إذا نزل في القلب ، إزداد القلب الخبيث ظلمة ، والطيب الصافي ، إزداد طيبةً وصفاء ؛ وقد وصف الله علماء اليهود (بالحمار) , وقال عزوجل : (مثل الذين يحملون التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً) [143].

- العجب بالعبادة والطاعة : فعلاجه أن يعلم أن الغرض من العبادة هو الشعور بالتواضع والإنكسار ، حتى تصير ملكة للنفس ويحصل لها العبودية الحقَّة ، والعجب ينافي الهدف المنشود من العبادة ويبطلها . إن الفضائل كلها نافعه ومنجية إذا لم يدخلها العجب ، وإذا دخلها العجب أبطلها

[142] (عبس 17-22)
[143] (الجمعة 5)

وأفسدها , فكيف للعاقل أن يرتكب خطيئة تضيَّع كل فضائله ، ولماذا لا يزيد فضيلة على فضائله بالتواضع الحقيقي ، فيختم له بالخير وتصير عاقبته محمودة ، ومساعيه مشكورة ؛ وعلى المعجب بنفسه ، أن يعلم أن الفضائل والمواهب التي يملكها ، هي موجودة عند الكثير من الناس ، فلا داعي للعجب والإعتداد بالنفس وتزكيتها ؛ قال الله تعالى : (لولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكىَّ منكم من أحد أبداً)[144] .

- العُجب في الحسب والنسب : هو غاية في السفاهة والجهل لأنه يتعلق بالآخرين ومناقبهم . روي أن أبا ذر قال لرجل : يا إبن السوداء ، فقال له النبي(ص) : " يا أبا ذر ليس لإبن البيضاء على إبن السوداء من فضل " , فإضطجع أبا ذر على الأرض وقال للرجل قم وضع قدمك على خدي " . وروي أيضاً أن بلال لما أذَّن يوم الفتح على الكعبة ، قال جماعة : هذا العبد الأسود يؤذن ! فنزل قوله تعالى: (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) [145] .

- العُجب بالمال : فهو أقبح أنواع العُجب ، وعلاجه ، أن يتفكر الإنسان في سيئات كثرة المال ،

وهو معرض للزوال في كل وقت ، من نهب وحرق وكوارث سماوية وأرضية فكيف يتصور المؤمن العاقل أن يعجب بالمال ويفرح به مع كثرة حقوقه ، وعظم خطره ، والحساب عليه يوم القيامة ، فإذا كان حراماً ، ليس له إلا العقوبة وسوء العذاب ، وأما إذا كان حلالاً ، فينبغي ألا يخلو ساعة من الخوف في التقصير بتأدية حقوقه وأخذه من حِلَّه .
- العُجب بالرأي الخطأ : الذي يزينه له جهله ، من أهل البدع والضلال والمذاهب الباطلة ، وقد هلكت الأمم وإفترقت فرقاً وكل معجب برأيه (كل حزب بما لديهم فرحون) [146].

وقد أخبر رسول الله (ص) أن ذلك يغلب على آخر هذه الأمة ، وعلاجه ، أن يأخذ العلم الذي يعتمد على أدلّة شرعية وعقلية ومعرفتها وشروطها ، وهي موقوفة على العقول الكاملة والثابتة والمستقيمة ، وأن يثابر على مواكبة هذه العلوم طوال العمر ، ومع ذلك لا يؤمن عليه الخطأ ، إلا من أيدَّه الله بقوة قدسية ، وإتبع أهل الوحي ، ومن بعدهم الأئمة المعصومين ، الذين جاءوا به من عند الله في الأصول والفروع .

الكبر [147]

الكبر هو رؤية النفس فوق الغير ، والإعتقاد بالتميّز والعلو والعظمة ، فهو غير العُجب ، لأن العُجب هو إستعظام النفس دون رؤيتها فوق الغير ، والكبر أساسه العُجب وهو من نتائجه . الكبر هو إحساس باطني ، ولكن التكبر هو إظهار الأعمال الصادرة عنه ؛ والمتكبر يحتقر الغير ،

---

[144] (النور 21)
[145] (الحجرات 13)
[146] (المؤمنون 53)
[147] (ص224)

ويترفع عن مؤاكلته ومجالسته ومصاحبته ، والمتكبر لا يقبل نصيحة من هو أعرف منه ، ولا يهتم برأي أحد من الناس ، ولا يقبل الحوار ، ولا يستمع لأحد ، وعلى الغير أن يسمعوا له ؛ والأعمال التي تصدر عن المتكبر كثيرة لا داعي لذكرها ، وهذه الأعمال قد تصدر عن الحقد والحسد والرياء .

الكبر آفة عظيمة ، وقد هلك به الخواص من الناس ، وغيرهم الكثير من العوام ، وهو الحجاب الأعظم للوصول إلى أخلاق المؤمنين ، إن هذه الصفة ، تمنع عن التواضع وكظم الغيظ ، وقبول النصيحة ، والدوام على الصدق ، وترك الغضب والحقد والحسد والغيبة وإزدراء الناس , هو خلق مذموم ، ولذا ورد في الآيات والروايات الكثير من ذم الكبر , قال الله سبحانه : (كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار)[148] , و (سأصرف عن آياتي الذين يتكبّرون)[149],

و(والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم.... و كنتم عن آياته تستكبرون)[150], و(أدخلوا أبواب الجهنم خالدين فيها بئس مثوى المتكبرين)[151] , وقال: (الذين يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون)[152] , و (إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين)[153].

وقال رسول الله (ص) : " لا يدخل الجنّة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر ",

وقال : " يحشر المتكبرون يوم القيامة في مثل صور الذّر تطأهم الناس لهوانهم على الله تعالى ".

درجات الكبر

الأولى : يرى نفسه خير من غيره ويظهره في أفعاله ، في التقدم في المجالس ، ويصعَّر خده للناس كأنه مُعرِضٌ عنهم ، ويعبس وجهه ، ويقطِّب جبينه , ويتكلم بتفاخر ، ويدَّعي العلم والعمل ،

وتزكية النفس ، وهذه الدرجة أقبح الدرجات ، لأن صاحبها قد رسخت في قلبه شجرة الكبر ، وإرتفعت أغصانها وفروعها ، وأحاطت بجميع جوارحه .

الثانية : وهي دون الأولى وأقل حدّةً .

الثالثة : الكبر يكون في القلب ، إلا أن صاحبه يحاول أن يكون متواضعاً ، هو يحاول أن يقطع أغصان هذه الشجرة ، ولكنه لا يستطيع دفع ذلك بسرعة ، لأن النفس تميل إلى ما تشتهيه دون إختيار ، ولكنه إذا كان في مقام المجاهدة ، فلعله لم يكن عليه إثم ، ومثله يوفقه الله للوصول إلى ما يطلبه بمقتضى وعدل , (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) .

---

148 (غافر 35)
149 (الأنعام 93)
150 (الأعراف 146)
151 (الزمر 72)
152 (النحل 23)
153 (غافر 60)

علاج الكِبر علماً وعملاً

علاج الكِبر كعلاج العُجب ، وهو أن يتذكر الآيات الكريمة والأخبار الواردة عن الرسول (ص) والأئمة التي تذمّ الكبر ، وما ورد في مدح التواضع الذي هو ضد الكِبر ، وأن يعلم المتكبر ، أن ظنَّه بأنه أفضل من غيره ، هو في غاية الجهل والسفاهة ، فلعلَّ في الغير من خفايا الأخلاق الكريمة ما ينجيه ، وأن المتكبر فيه من الملكات الذميمة ما يهلكه ويرديه ؛ وكيف يجتريء صاحب البصيرة أن يفضَّل نفسه عن الغير ، مع عدم معرفة الخاتمة ، وخفاء الأخلاق الباطنة ، وإشتراك الكل في الإنتساب إلى الله تعالى . فالواثق بخاتمته ونجاته ، لا يرى لنفسه مزيَّة على غيره ، ولا ينظر بنظرة سوء وعداوة ، بل يشاهد الجميع بعين المحبة والمودة . وقد يتسائل الناس ، كيف يتواضع العالِم الورع للجاهل الفاسق ويراه خيراً من نفسه مع ظهور جهله وفسقه ، وعدم علمه وورعه , الجواب هو : من يستطيع أن يقول أن العالم يعلم كل شيء وكون فلان من العامة غير عالم بها ، وإنما يمتاز من هو اقرب إلى الله تعالى ، وهذا لا يحصل بمجرد بعض العلوم ، والمواظبة على بعض العبادات ، أو غير ذلك من الصفات المحمودة ، بل الهدف والغاية هو حسن الخاتمة ، وهو أمر فيهم , فالعواقب مخفية على العباد ، فيمكن أن يسلم الكافر ، ويُختم له بالإيمان ، ويضلّ هذا العالم الورع ، ويختم له بالكفر ، فعلى كل واحد أن يرى غيره شر منه ظاهراً ، أن يقول ، لعلَّ هذا ينجو ، وأهلك أنا ، ولعلَّ ظاهره لا يخبر عن باطنه ، وقد يكون فيه خلق كريم بينه وبين الله فيرحمه الله ويثوب عليه ، ويختم له بأحسن الأعمال ، إن القرب من الله وسعادة الآخرة ، لا تظهر بالأعمال الظاهرة في هذه الدنيا .

التكبر على الله وعلى الأنبياء

قد يكون التكبر على الله ، كما كان النمرود وفرعون ، وسببه الطغيان والجهل ، وهو أفحش أنواع الكِبر والكُفر وقد يكون على الأنبياء والرسل ، بحيث لا يهتم المتكبر بتعاليمهم وقيادتهم للبشر .

قال الله تعالى : (أهؤلاء منَّ الله عليهم من بيننا)[154], (أنؤمن لبشرين مثلنا)[155], و قال (إن أنتم إلا بشر مثلنا) [156] , و (لئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذا لخاسرون)[157], (لولا أنزل علينا الملائكة لو نرى ربنا لقد إستكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً)[158].

---

[154] (الأنعام 53)
[155] (المؤمنون 47)
[156] (إبراهيم 10)
[157] (المؤمنون 34)

العلاج العملي للكبر

هو أن يتواضع بالفعل لله ولسائر الخلق ، ويواظب على أخلاق المتواضعين ، ويحاول أن يقلع من قلبه شجرة الكِبر ، بأصولها وفروعها ، حتى يصير التواضع ملكةً له , وعليه أن يمتحن نفسه دائماً ، لأن النفس تنوي التواضع وتدعي البراءة من الكِبر ، ولكنها في بعض الأحيان ، تعود إلى طبعها وتنسى وعدها .

مثلاً : إذا كان الشخص المتكبر في موقف محاورة ونقاش مع أحد ، فإذا ظهر الحق على لسان غيره ، إعترف به مع السرور والشكر ، لإكتشاف ما هو غافل عنه ، فهذا علامة التواضع ،

وإذا ثقل عليه الإعتراف , ولم يسّر بظهور الحق على لسان غيره ، فهو دليل بقاء الكبر في نفسه ، فليعالجه ويتذكر سوء عاقبته وخسَّة نفسه وخبثها ، من حيث أن قبول الحق والإعتراف به يثقل عليها ، ويجب إطلاق الثناء والشكر والإقرار ، بعدم معرفة هذا الأمر ، ويقول لمحاوره : ما أحسن رأيك لقد أرشدتني إلى الحق فجزاك الله خيراً . وإذا واظب على ذلك ، صار ذلك له طبعاً ، وسقط ثقل الحق عن قلبه وطاب له قبوله ، فهذا دليل على تطهير النفس من الكبر .

قال الإمام الصادق(ع) : " عليك أن تترك الجدال والمراء ولو كنت محقاً " ؛ إن من يلبس ثياباً متواضعة ، ليس فيه كبر ورياء , قال رسول الله(ص) : " البساطة في اللباس من الإيمان" .

روي عن الإمام الرضا(ع) أنه كان في سفر ، عندما حان وقت الطعام جمع مواليه ليأكلوا معه ، فقال أحدهم له : جعلت فداك لو عزلت هؤلاء فقال : الرب واحد والدين واحد والأم والأب واحد والجزاء بالأعمال ؛ و روي عن الرسول(ص) : أنه كان يطحن مع خادمه ، ويشتري الشيء من السوق ويحمله بنفسه ، ويسلمّ مبتدءاً على الغني والفقير والصغير والكبير ، هيَّن المؤونة ، ليّن الخُلق ، جميل المعاشرة , متواضعاً من غير مذلَّة .

علامات التواضع ومدحه

الأحاديث الواردة في مدح التواضع كثيرة , قال رسول الله (ص) : " ما تواضع أحد لله إلا رفعه " , وقال : إذا تواضع العبد رفعه الله إلى السماء السابعة " , وقال : " أربع لا يعطيهن الله إلا لمن أحبه : " الصمت وهو أول العبادة ، والتوكل على الله ، والتواضع ، والزهد في الدنيا " ,

وقال : " من تواضع رفعه الله ، ومن تكبرَّ خفضه الله ، ومن إقتصد في معيشته رزقه الله ، ومن بذّر حرمه الله ، ومن أكثر ذكر الموت أحبه الله ".

وقال عيسى بن مريم (ع) : " طوبى للمتواضعين في الدنيا ، هم أصحاب المنابر يوم القيامة ".

---

[158] (الفرقان21)

وقال الإمام الصادق (ع) : " إن لأهل التواضع سيماء يعرفها أهل السماوات والأرض من العارفين . قال الله تعالى :(عباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً)[159], ولكن ليس للمؤمن أن يذلَّ نفسه ، وأن لا يتواضع للمتكبرين .

قال رسول الله(ص) : " إذا رأيتم المتواضعين من أمتي فتواضعوا لهم ، وإذا رأيتم المتكبرين فتكبروا عليهم فإن ذلك لهم مذَّلةً وصغار ".

صعد رسول الله(ص) المنبر يوم فتح مكة ، فقال : " أيها الناس ! إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتفاخرها بآبائها ، آلا أنكم من آدم وآدم من تراب ألا أن خير عباد الله أتقاهم " .

البغي [160]

هو الظلم والتعدي ، والعلو والإستطالة ، وهو أفحش أنواع الكِبر ، والباغي لا ينقاد لتعاليم الأنبياء ولا للعقلاء ، والبغي يؤدي بصاحبه إلى الكفر .

قال رسول الله (ص) : " إن أعجل الشر عقوبة البغي " , وقال أمير المؤمنين(ع) : " أيها الناس إن البغي يقود أصحابه إلى النار ، وقد قُتل الجبابرة وهم في أحسن أحوالهم وأمانهم " .

وعلاجه : هو التسليم والإنقياد ، إلى تعاليم النبي(ص) والأئمة المعصومون وللعلماء الفقهاء الذين ينوبون عن الأئمة .

تزكية النفس

وهو نفي النقائص عن النفس ، وإثبات الكمال لها ، وهي صفة قبيحة ، لأن من عرف خلق الإنسان وقصوره ، ونقصانه ، فلا يطلق لسانه بمدح نفسه ؛ قال أمير المؤمنين(ع) :

" تزكية المرء لنفسه من القبائح " , فعلى كل شخص أن لا يبرَّيء نفسه من العيوب والنقائص وأن يعمل على معالجتها .

العصبية

قال زين العابدين(ع) : " العصبية التي يأثم عليها صاحبها أن يرى الرجل شرار قومه خيراً من خيار قوم آخرين " , وأن يُعين المتعصب قومه على الظلم .

وقال الرسول(ص) : " من تعصَّب أو تُعصَّب له فقد خلع ربق الإيمان من قلبه" ,

---

[159] (الفرقان 63)

[160] (ص235)

وقال : " من كان في قلبه حبة من خردل من عصبية بعثه الله يوم القيامة مع أعراب الجاهلية".

كتمان الحق [161]

باعِثُه إما العصبية ، أو الجُبن ، ويندرج تحته :

الإنحراف في الحكم ، وكتمان الشهادة، وشهادة الزور ، وتصديق المبطل ، وتكذيب المحق . وهذا الإنحراف عن الحق ، يؤدي إلى الكفر ، والصفة التي تقابله ، هي الإنصاف والإستقامة على الحق ؛ فعلى من يريد أن يكون محقاً ومنصفاً ، أن يكلِّف نفسه ، في البحث عن الحق والعمل به ولو بالمشقة الشديدة ، إلى يصير ذلك عنده عادةً ، فيزول التعصب ، وكتمان الحق من نفسه .

الإنصاف والإستقامة على الحق

قال رسول الله (ص) : " لا يستكمل العبد الإيمان حتى يكون فيه ثلاث خصال : الإنفاق من إقتار ، والإنصاف من نفسه وإفشاء السلام " .

وقال في آخر خطبة له : " طوبى لمن طاب خُلقه وطهرت سجيته وصلحت سريرته ، وحسنت علانيته ، وأنفق الفضل من ماله ، وأمسك الفضل من قوله ، وأنصف الناس من نفسه " ,

وقال (ص) : " سيد الأعمال إنصاف الناس من نفسك" , وقال : " من واسى الفقير من ماله ، وأنصف الناس من نفسه فذلك المؤمن حقاً " , وقال أمير المؤمنين (ع) : " من أنصف الناس من نفسه لم يزده الله إلا عزّاً " , وقال الإمام الصادق(ع) : " من أنصف الناس من نفسه رُضي به حكماً لغيره ".

القساوة [162]

هي عدم التأثر بآلام الغير ، وسبب ذلك ، صفات ذميمة في النفس ، من ظلم وإيذاء وعدم إغاثة المظلومين ، وعدم مواساة الفقراء والمحتاجين وغير ذلك ، ويقابل هذه الصفة الرحمة والرقة .

قد ورد عن رسول الله(ص) عن الله عز وجل ؛ يقول الله تعالى : أطلبوا الفضل من الرحماء من عبادي ، تعيشوا في أكنافهم ، فإني جعلت فيهم رحمتي ، ولا تطلبوه من القاسية قلوبهم ، فإني جعلت فيهم سخطي " .

---

[161] (ص 237)

[162] (ص 238)

وقال الإمام الصادق(ع): اتقوا الله وكونوا إخوة بررة ، متحابين في الله متواصلين ، متراحمين كما أمركم الله " .

إزالة القسوة وإكتساب الرحمة ، في غاية الصعوبة ، لأن القسوة صفة راسخة في القلب ، وطريق علاجها ، هو ترك ما ينتج عنها من آثار وأفعال ظاهرة ، والمواظبة على الأعمال الخيرّة حتى لو كانت تكلُّفاً ، مما يخفف من القسوة تدريجياً ، وتقوى الرحمة في القلب .

الجزء الثاني

المقام الثالث

القوة الشهوية وكيفية العلاج [163]

الشره

الشره هو الإفراط في الطعام ، وقد قال رسول الله (ص):

[163] (ص240)

" ما ملأ بن آدم وعاءً شراً من بطنه ، حَسبُ بن آدم لقيمات يقمن صلبه " , وقال : " لا تميتوا القلوب بكثرة الطعام والشراب ، فإن القلب يموت كالزرع إذا أكثر عليه الماء " , وقال : " أفضلكم عند الله ، أطولكم جوعاً وتفكراً ، وأبغضكم إلى الله كل نوؤم أكول وشروب " , وقال : " إن أبغض الناس إلى الله المتخمون الملأى " , و " ما ترك عبد أكلةً يشتهيها ، إلا كانت له درجةً في الجنَّة ".

وفي التوراة : " إن الله ليبغض الحَبَر السمين " , لأن السمنة تدل على الغفلة وكثرة الأكل .

قال لقمان لإبنه : " يا بني إذا إمتلأت المعدة ، نامت الفكرة ، وخرست الحكمة ، وقعدت الأعضاء عن العبادة ".

وكفى ذماً لشهوة البطن ، إنها كانت سبباً لإخراج آدم وحواء من الجنة ، إذ نهيا عن الشجرة ، فغلبتهما شهوتهما حتى أكلا منها . وقال(ص) : كلوا واشربوا في أنصاف البطون ، فإنه جزء من النبوَّة " , وقال : " أقرب الناس إلى الله يوم القيامة من طال جوعه وعطشه وحزنه في الدنيا " .

فوائد الجوع والإعتدال في الأكل

للجوع فوائد : منها صفاء القلب ورقته ، وإتقاد الذهن وحدته ، والإلتذاذ بالمناجاة والطاعة ، والإبتهاج بالذكر والعبادة ، والترحم على أهل الفقر والفاقة ، والإنكسار المانع عن الطغيان والغفلة ، ودفع النوم الذي يضيّع العمر ، والتمكن من الإيثار والتصدق بالزائد ، وخفة المؤونة الموجبة للتحصيل والإعداد ، وصحة البدن ، ودفع الأمراض ، إذ أن المعدة بيت الداء ، والحمية رأس كل دواء .

علاج الشره بالأكل والشرب

التأمل في المفاسد المترتبة على كثرة الأكل ، والتذكر بأن لا يكون كالحيوان همّهُ في أكله وعلفه ، وأنه سبب للأمراض والعلل الكثيرة ، وأخيراً يجب عدم الإفراط في الأكل ، ولو بالتكلف حتى يصير الإعتدال عادة .

والإعتدال ، أن يأكل بحيث لا يحس بثقل المعدة ، ولا بألم الجوع ، وعليه أن ينسى معدته فلا تؤثر فيه أصلاً ، فإن المقصود من الأكل هو بقاء الحياة وقوة العبادة ، وثقل الطعام يمنع العبادة , ويقول الله تعالى : (وكلوا واشربوا ولا تسرفوا)[164] ؛ وأن لا يكون الغاية من الأكل التلذذ ، بل حفظ القوة ، فخير الطعام ، خبز القمح أو الشعير , مع نوع واحد من الطعام , قال أمير المؤمنين (ع) : من ترك اللحم أربعين يوماً ساء خلقه ومن دام عليه أربعين يوماً قسى قلبه .

[164] (الأعراف 31)

الشهوة الجنسية [165]

عندما يُقهر العقل يصبح كل الهم مقصورعلى التمتع بالنساء والجواري ، فيُسدُّ طريق الآخرة ، ويُقهر الدين ، ويُجرُّ المرء إلى الفواحش ، فتستولي الشهوة ، ويسخرَّ الوهم لخدمة الشهوة .
وقد خلق الله العقل ليكون سيداً ومطاعاً ، لا ليكون خادماً للشهوة ، وهو مرض أصحاب القلوب الفارغة والخالية من محبة الله والأهداف السامية , إذا إستحكم عَسُر دفعه ؛ وكذلك حب المال والعقار والأولاد ، فالإحتراز والإحتياط في بدايات الأمور قد تكون أسهل ، ولكن في أواخرها ، لا يقبل العلاج , إلا بجهد يوازي نزع الروح .

ربما ينتهي الإفراط في هذه الشهوة ، إلى تناول ما يقويها ، ومن يفعل ذلك كمثل من بُلي بسباع ضارية تغفل عنه بعض الأوقات ، فيحتال لإثارتها وتهييجها . والتجربة شاهدة ، أن من ينقاد لهذه الشهوة ، ويسعى لإثارتها من تجديد النساء ، والتخيل والنظر ، وتناول الأغذية المحركة لها ، يصبح ضعيف البدن سقيم الجسم ، قصير العمر ، ينتهي إلى فقدان القوة كلياً ، وإختلال القوى الدماغية ، وفساد العقل ، كما برهنت على ذلك الكتب الطبية .

علاج الإفراط في الشهوة

هو ذكر مفاسدها ، وكسرها بالجوع وسد الطرق المؤدية إليها ، من التخيل والنظر والتكلم والخلوة ، لذلك قال الله تعالى : (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم)[166].

قال عيسى بن مريم(ع) : " إياكم والنظرة ، إنها تزرع في القلب شهوة وكفى بها فتنة" .

ومن طرق العلاج : الزواج ؛ ولذا قال النبي(ص) : " ليتخذ أحدكم لساناً ذاكراً ، وقلباً شاكراً وزوجة مؤمنةً صالحة تعينه على آخرته " ؛ ومنها مجاهدة النفس ، والسعي في حوائج الأهل والعيال ، والإجتهاد في إصلاحهم وإرشادهم ، وفي تحصيل المال الحلال . وقد قال رسول الله(ص) : " الكاد في نفقة عياله ، كالمجاهد في سبيل الله " , وقال : " من كان له ثلاث بنات فأنفق عليهن ، وأحسن إليهن حتى يغنيهن الله عنه ، أوجب الله تعالى له الجنة ".

حب الدنيا [167]

جمع الله عزوجل كل ما في الدنيا بآية واحدة , قال الله تعالى : (زيّن للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسوَّمة والأنعام والحرث ذلك متاع

[165] (ص 243-244)
[166] (النور 30)
[167] (ص249)

الغرور)[168] ؛ ولكن ما يعمله المرء في الدنيا ، وتبقى ثمرته معه بعد الموت من علم نافع وعمل صالح ، فهو في الحقيقة من عمل الآخرة , فتحصيل الرزق هو من الأعمال الصالحة .

قال رسول الله(ص) : " العبادة سبعون جزءاً أفضلها طلب الحلال " , وقال: " ملعون من ألقى كلَّه على الناس " , وقال الصادق(ع) : " إن الله تبارك وتعالى ليحب الإغتراب في طلب الرزق" ؛ كان أمير المؤمنين(ع) يعمل في الأرض حتى تبتلّ قدماه من العرق , فقال له أحدهم : جُعلت فداك أين الرجال ؟ فقال : قد عِمل من هو خير مني ، رسول الله ، وهو عمل النبيين والمرسلين والأوصياء والصالحين .

قال أمير المؤمنين(ع) : " أوحى الله إلى داوود ، إنك نِعم العبد لولا أنك تأكل من بيت المال ، ولا تعمل بيدك شيئاً ، فبكى داوود أربعين يوماً ، فأوحى الله إليه ، بأن ألنّا لك الحديد ، وكان يعمل كل يوم درعاً فيبيعها , وقد إستغنى عن بيت المال " .

الدنيا المذمومة ، هي إتباع الهوى , قال تعالى : (ونهى النفس عن الهوى فإن الجنّة هي المأوى) , و قال عزوجل : (إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم في الأموال والأولاد)[169].

حب الدنيا هو إنصراف الإهتمام كله إليها ، حتى يصير القلب كالعبد ، فينتج عن هذا التعلق بالدنيا : الرياء ، وحب الجاه ، وسوء الظن ، والمداهنة ، والحسد ، والحقد، والكبر ، وحب المدح والتفاخر والتكاثر . وعندما يشتغل الإنسان بتحصيل هذه الأمور ، ينسى نفسه ، وينسى خالقه ، ويغفل عما خُلق لأجله ؛ ولو عرف ما هو مقدار ما يحتاج إليه بالفعل ، لما إستغرق بالإنهماك والإشتغال كل حياته ووقته ، فيجد أن الأشغال إتصلت ببعضها وتداعت إلى نهاية غير محدودة ، وتاه في كثرة الأشغال ، فأمور الدنيا لا ينفتح منها باب ، إلا وينفتح لأجله عشرة أبواب أخرى ، وكأنها هاوية لا نهاية لعمقها .

إن أولياء الله لم ينظروا إلى الدنيا مع أنها تزينت لهم ، وقد تجرعوا مرارة الصبرفي مقاطعتها , أما من أحبها وتعلّق بها ، فقد إستدرجته بمكرها ومكيدتها حتى وثقوا بها ، وجرَّت عليهم الندامة ، ثم حرمتهم السعادة فهم على فراقها متحسرون ، ومن مكائدها مستغيثون ، ثم يقال لهم بعد ذلك : (إخسؤا فيها ولا تكلمّون) [170] , و (أولئك الذين إشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون) (البقرة 86) .

وقال أمير المؤمنين(ع) , عندما قيل له صف لنا الدنيا :

" ما أصف من دار أولها عناء وآخرها فناء ، في حلالها حساب ، وفي حرامها عقاب , من إستغنى فيها فُتن ، ومن إفتقر فيها حزن ، فتدارك ما بقي من عمرك ولا تقل غداً وبعد غد , فإنما هلك من كان قبلك بالأماني والتسويف ، حتى أتاهم أمر الله بغتة وهم غافلون ، فنقلوا على أعوادهم

---

[168] (آل عمران 14)
[169] (الحديد 20)
[170] (المؤمنون 108)

إلى قبورهم المظلمة الضيقة ، فلا تغرنكم الحياة الدنيا ، فإنها بالبلاء محفوفة وبالغدر موصوفة ، وكل ما فيها إلى زوال ، لا تدوم أحوالها ، بينما أهلها في رخاء وسرور ، إذا هم منها في بلاء وغرور ، أحوالها مختلفة ، الرخاء فيها لا يدوم ، فلا تجزعوا لبؤسها وضرائها , فإنه إلى إنقطاع ، ولا تفرحوا بمتاعها ونعمائها فإنه إلى زوال ؛ عجبت لطالب الدنيا ، والموت يطلبه ، وغافل ليس بمغفول عنه".

والأخبار والآثار في ذم الدنيا وحبها ، أكثر من أن تحصى ، وما ورد من كلام أئمتنا ، لا سيما عن مولانا أمير المؤمنين(ع) فمن تأمَّل خطب عليّ(ع) ومواعظه التي في نهج البلاغة ، يُظهر فيها خساسة الدنيا ومهانتها عند الله ، لم يرضها لأحد من أوليائه ، وحذَّرهم من غوائلها ، فأخذوا منها ما يكفي ، وتركوا ما يُلهي ، فإرتحلوا عنها بقلوبهم ، صبروا قليلاً ونعموا كثيراً .

صفات الدنيا

إن للدنيا صفات ، فهي تشبه في سرعة الزوال والفناء ، مثل نبات إختلط به ماء من السماء فإخضَر ، ثم أصبح هشيماً تذروه الرياح ؛ فهي مجرد وهم وخيال ، وأضغاث أحلام ، فمن رآها على حقيقتها لم يركن إليها ، ولا يبالي كيف إنقضت أيامه ، في ضيق وضر ، أو في سعة ورفاهية ؛ توفي سيد الرسل ، ما وضع لَبنِة فوق لَبنِة ، ورأى بعض أصحابه يبني بيتاً من جص , فقال : " أرى الأمر أسرع من هذا " .

محبة الدنيا ، كماء البحر كلما شرب العطشان منه إزداد عطشاً حتى يقتله ، أو مثل دودة قز كلما إزدادت على نفسها لفاً ، كان أبعد لها من الخروج حتى تموت غماً .

عاقبة حب الدنيا :

لا يأخذ الإنسان معه عند الموت إلا قلبه الصافي السليم والطاهر من كل أدناس الدنيا ، والصفاء والطهارة لا تحصل إلا بالكف عن شهوات الدنيا ، والمحبة لله لا تحصل إلا بدوام ذكر الله ، وبالتفكَّر ، والدوام على ذلك ؛ وهذه هي المنجيات والباقيات الصالحات . و بعد الموت يصير القبر روضة من رياض الجنة ، لأن صاحب هذه الصفات ، يكون بعد موته في غاية البهجة واللذة ، بمشاهدة جمال الحق , ولكن محب الدنيا ، فيكون معذَّباً ، لأنه تركها غصباً عنه ويشعر بالحسرة لأنه لم يعمل للآخرة ؛   فهو في الدنيا عاش متحسراً ، لأنه لم يحصل على السعادات الدنيوية ، وهي سعادات متصرَّمة لا بقاء لها ، فما حاله مع فوات سعادات الآخرة ، التي لا يستطيع وصف عظمتها .

حب المال [171]

[171] (ص265)

المال عامل مهم لكل إنسان ، ولا غناء عنه ، إن فقدان المال قد يؤدي إلى الكفر ، وإن زيادته قد تؤدي إلى الطغيان ؛ قال الله عزوجل : (يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون)[172], وقال سبحانه : (المال والبنون زينة الحياة الدنيا)[173], وقال: (إعلموا إنما أموالكم وأولادكم فتنة)[174].

قد يكون المال وسيلة إلى السعادة الدنيوية والأخروية ، وقد يكون صاداً عن العلم والعمل الصالح ، وبما أن الطبائع تميل إلى إتباع الشهوات ، كان المال مسهَّلاً لها ، وقد إستعاذ الأنبياء من شرَّه ، حتى قال نبينا(ص) : " اللهم إجعل قوت آل محمد الكفاف " . وقد يؤدي المال إلى المعاصي ، وفتنة السرّاء أعظم من فتنة الضرّاء ؛ وعندما يعتاد الإنسان على النعم والرفاهية ، تصبح عنده مألوفة ومحبوبة ، ولا يستطيع التنازل عنها ، ولا يستطيع الصبر على ترك الملذات من الأكل وغيرها ، إلا ما ندرَ من الأغنياء كسليمان بن داوود (ع) وأمثاله . ومن كثر ماله إحتاج إلى الناس ، ومع الحاجة تزداد المسؤوليات ، والمال يلهي صاحبه ، عن ذكر الله تعالى ، وهذا أول الخسران والوبال ، وإن أصل العبادات وروحها وحقيقتها هي الذكر ، والفكر ، وذلك يستدعي قلباً فارغاً , فصاحب الأملاك ، يصبح ويمسي وهو في هم إدارة أمواله والمحافظة عليها , وأودية أفكار أهل الدنيا لا نهاية لها ، والذي ليس معه إلا قوت يومه أو سنته ، فهو في سلامة من كل هذه المتاعب.

فوائد المال

الفائدة الدنيوية : هي الخلاص من ذل السؤال ، ومن حقارة الفقر ، والوصول إلى العز والمجد بين الخلق ، وكثرة الإخوان والأصدقاء والأعوان ، وحصول الوقار والكرامة في القلوب .

والفائدة الدينية : الإنفاق على نفسه في عبادة ، كالحج ، والمطعم والملبس والمسكن ، والصدقة ، وصلة الأرحام ، وإعانة الأصدقاء والإخوان ، وبناء المدارس والمساجد .

النجاة من خطر المال [175]

- إذا أراد النجاة من خطر المال ، فعليه أن يحدد أهدافه من كسب المال ، حتى لا يصاب بالطمع والجشع ، وأن يجتنب الحرام .

- أن يقتصد في الإنفاق ، غير مبذر ولا مقترّ ؛ قال الله تعالى : (والذين أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً)[176], قال النبي(ص) : " ما عال من إقتصد " , فالإقتصاد في المطعم والملبس والمسكن هو المطلوب .

---

[172] (المنافقون 9)
[173] (الكهف 46)
[174] (الأنفال 28)
[175] (ص 269)

- إن من أخذ من المال حاجته ، وبذل ما فاض عنه إلى إخوانه المؤمنين الفقراء ، فهو من أخذ من الحبَّة ترياقها ، وإتقى سُمَّها ، فلا تضره كثرة المال ، ولكن لا يتأتى ذلك إلا لمن كثُر علمه ، وإستحكمت في الدين قدمه ، أما بقية الناس ، فإستكثار المال يجعلهم كالصبي الذي يأخذ الحيَّة ويلهو بها ، فتقتله في الحال ، إلا أن قتيل الحيَّة يدري أنه قتيل ، ولكن قتيل المال لا يعرف ذلك .

الزهد [177]

الزهد هو الإعراض ، عن متاع الدنيا وطيباتها ، من الأموال والمناصب والجاه ، وكل ما يزول بعد الموت , و الزهد هو أحد منازل الدين وأعلى مقامات السالكين .

قال الله تعالى : (فخرج على قومه في زينته...وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير)[178], فنَسب الزهد للعلماء ، ووصف أهل الزهد بالعلم , وقال تعالى : (لا تمدَّن عينيك إلى ما متّعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا ، لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى) [179], وقال : (من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله في الآخرة من نصيب) [180] .

وقال رسول الله(ص) : " من أصبح وأمسى وهمُّه الدنيا ، جعل الفقر بين عينيه ولم نؤته منها إلا ما كُتب له ، ومن أصبح وأمسى , وهمُّه الآخرة ، جُمع له أمره ، وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة ". وقال : " من زهد في الدنيا أدخل الله الحكمة في قلبه وأنطق بها لسانه ، وعرَّفه داء الدنيا ودوائها وأخرجه منها سالماً " .

وقال أمير المؤمنين(ع) : إن زهد الزاهد في هذه الدنيا ، لا ينقصه مما قسم الله له عزوجل فيها ، وإن حرص الحريص ، لا يزيده فيها وإن حرِص ، فالمغبون من حُرم حظَّه من الآخرة . وكفى بالزهد فضيلة ، أنه من صفات الأنبياء والأولياء ، وهم أعرف الناس بفائدة الزهد عن شهوات الدنيا ولذاتها ، فالنبي موسى(ع) كان قوته نبات الأرض وأوراق الشجر ، بحيث ترى الخضرة من صفاق بطنه (من شدة ضعفه) , كما قال أمير المؤمنين(ع) في نهج البلاغة .

و روح الله عيسى(ع) كان يلبس الشعر ويأكل من الشجر ولم يكن له ولد يموت ، ولا بيت يخرب ، ولا مال يُدخَّر ، أينما أدركه المساء ينام .

ثم إن يحيى بن زكريا ، كان يلبس المسوح حتى خشن جلده وثُقب , فسألته أمه أن يلبس مكانها جبَّةٌ من الصوف ففعل ، فأوعز الله إليه ، " يا يحيى آثرت عليَّ الدنيا " , فبكى ونزع الصوف وعاد

---

[176] (الفرقان 67)
[177] (ص270)
[178] (القصص 79)
[179] (طه 121)
[180] (الشورى 20)

إلى ما كان عليه . ثم إن رسول الله(ص) لم يكن يشبع هو وأهله غداء ، إلا جاعوا عشاءً ، ولم يشبع من التمر هو وأهل بيته حتى فتح الله عليهم خيبر .

وهكذا زهد عليّ(ع) وتركه الدنيا أشهرمن أن يحتاج إلى بيان ؛ وقد قال : " الزهد كلّه في كلمتين من القرآن ، قال الله تعالى : (ولكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم)[181], فمن لم يأس على الماضي ، ولم يفرح بالآتي فقد أخذ الزهد بطرفيه ".

الغنى [182]

هو وجود كل ما يحتاج إليه من الأموال ، وهذا أقل مراتب الغنى ، وفوق ذلك مراتب أخرى لا تحصى . الغني يسعى إلى طلب المال وجمعه ، ويتعب في تحصيله ، ويفرح عندما يأخذه ، و يتأذى عندما يفقده . ومن الأغنياء من كان ماله حلالاً ، ومنهم من كان ماله حراماً ومنهم من يمسك ماله بحيث لا يؤدي شيئاً من حقوقه الواجبة والمستحبة ، ومنهم ينفق الواجب والمستحب ؛ والغنى الحاصل من الحلال ، والذي ينفق صاحبه ما زاد عن حاجته فهو سالم من الآفات والأخطار . ومنهم من كان يحب المال بعينه ويسعى له ، فهو مذموم , وقد قال الله عزوجل : (إن الإنسان ليطغى أن رآه إستغنى)[183], وقال رسول الله(ص): " يدخل فقراء أمتي الجنة قبل أغنيائهم بخمسمائة عام " .

الفقر [184]

من فقَد المال وهو محتاج إليه فهو فقير , وهناك أحاديث في ذم الفقر ، قال النبي(ص) : " كاد الفقر أن يكون كفراً " ؛ وقال أمير المؤمنين (ع) : من إبتلي بالفقر ، فقد إبتلي بضعفٍ في يقينه ودينه ، فنعوذ بالله من الفقر . وهناك أحاديث تمدح الفقراء , قال رسول الله (ص) : يؤتى بالعبد يوم القيامة ، فيعتذر الله إليه فيقول وعزتي وجلالي ما زويت الدنيا عنك لهوانك علي ، ولكن لما أعددت لك من الكرامة والفضيلة ، إخرج يا عبدي إلى الصفوف فمن أطعمك وكساك يريد بذلك رضاي ، فخذ بيده وأدخله الجنة .

وقال (ص) : " أكثروا من معرفة الفقراء وإتخذوا عندهم الأيادي ، فإن لهم دولةٌ يوم القيامة ، فمن أطعمهم وكساهم فيأخذوا بيده إلى الجنّة .

مراتب الفقر ومدحه

181 (الحديد 23)
182 (ص 281)
183 (العلق 6-7)
184 (ص282)

إن بعض مراتب الفقر راجع إلى الزهد ، وبعضها إلى القناعة والأخبار الواردة في فضيلة الزهد والرضى والقناعة كثيرة . قال الله تعالى : (للفقراء المهاجرين الذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم)[185], وقال: (للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله) [186] , وهذا الكلام هو في معرض المدح . وقال رسول الله (ص) : " اللهم أحييني مسكيناً وأمتني مسكيناً وإحشرني مع المساكين ", وقال(ص) : ألا أخبركم بملوك أهل الجنَّة ، قالوا بلى يا رسول الله , قال: كل ضعيف مستضعف أغبر أشعث ذي طمرين لا يؤبه له ، ولو أقسم على الله لأبرَّه . وقال (ص) : " إذا أبغض الناس فقراؤهم وعمَّروا الدنيا ، وتكالبوا على جمع المال ، رماهم الله بالقحط والجور من الحكام وغلبة الأعداء .

وقال الإمام الصادق(ع) : " لولا الفقراء لما إستحق الأغنياء الجنَّة".

الموازنة بين الفقر والغنى [187]

لا ريب أن الفقر مع الصبر والقناعة أفضل من الغِنى مع الحرص وعدم الإنفاق , أما الغنى مع الإنفاق فهو أفضل من الفقر . والحق هو أن الأفضل من الغنى والفقر ، هو ما لا يشغل العبد عن ذكر الله ، فإذا كان الفقر يشغله فالغنى أولى به ، وإذا كان الغنى يشغله عن الله فالفقر أولى به ؛ ذلك لأن الغنى ليس محذوراً بعينه ، بل لكونه عائقاً عن الوصول إلى الله ، والفقر ليس مطلوباً لعينه بل لعدم كونه عائقاً عن الله ، إذ رُبّ فقير يشغله الفقر عن المقصد وكم غني لا يصرفه الغنى عنه ، إذ الشاغل ليس إلا حب الدنيا لمضادته حب الله تعالى والآخرة . ولكن لا يشتبه على الغني ويظن أنه لا يحب المال ، ولكن حبَّه يكون دفيناً في باطنه وهو لا يشعر به ، وإنما يشعر به إذا فقده ، ما عدا الأنبياء والأولياء وقليل من الأتقياء .

وبما إن إخراج المال من أيدي الأغنياء صعب ، وبعضهم يكون من المحال ، فيطلق القول بأن الفقر أصلح لعامة الناس وأفضل ، وخطره أخف ، فإن فتنة الغنى أشد من فتنة الفقر ، لأن الألم الذي يشعر به الفقير يجعله قريباً من الله أكثر . ولذا قيل : " إن الله عند المنكسرة قلوبهم " .

قال أمير المؤمنين(ع) : إن لله عقوبات بالفقر ، ومثوبات بالفقر ، فمن علامات الفقر إذا كان ثواباً أن يحسن خلقه ويطيع ربه ، ولا يشكو حاله ، ومن علاماته إذا كان عقوبة ، أن يسوء خلقه ويعصي الله بترك طاعته ، ويكثر الشكاية ويسخط بالقضاء .

هذا يدل , أنه ليس كل فقير مثاب على فقره ، بل من يرضى ويقنع بالعفاف ، فإذا جرَّه الفقر إلى سوء الأخلاق ، وإرتكاب المنكرات ، حبط أجره وكان آثماً قلبه , وعلى الفقير أن لا يخالط الأغنياء ، ولا يرغب في مجالستهم ولا يتواضع لهم لأجل غناهم .

---

[185] (الحشر 8)
[186] (البقرة 272)
[187] (ص 288)

قال أمير المؤمنين(ع) : " ما أحسن تواضع الغني للفقير رغبة في ثواب الله ، وأحسن منه ، تيه الفقيرعلى الغنيّ ثقةً بالله ، وعلى الفقير أن لا يسكت عن ذكر الحق مداهنةً للأغنياء ، وطمعاً بما في أيديهم ، وأن لا يفتر بسبب فقره عن عبادة الله ، وأن يبذل قليل ما يفضل عنه ، فإن ذلك جُهد المقلّ وفضله أكثر من أموال كثيرة يبذلها الغنيّ .

موارد قبول العطاء [188]

إذا كان الفقير محتاجاً فله أن يأخذ حاجته ، وله الأجر أكثر من المعطي قليلاً إذا كان ذا سعة .

قال رسول الله(ص) : " من أتاه المال من غير مسألة ، فإنما هو رزقٌ ساقه الله فلا يرده ". وإذا كان زائداً عن حاجته ، فليردَّ الزائد إذا كان يريد طريق الآخرة ، لأن النفس تألف ذلك . وقد نقل عن جماعة ، عملت لخدمة الفقراء والتكفل بأحوالهم ، فخدعتهم أنفسهم الأمارة بالسوء ، فإتخذوها وسيلة إلى أخذ المال وإنجرَّ أمرهم إلى الهلاك .

ينبغي للمؤمن ، أن لا يسأل الناس من غير حاجة ، وأن لا يذلَّ نفسه لغير الله ، وإيذاء المسؤول إذا لم تسمح نفسه بالبذل عن طيب قلب , قال رسول الله (ص) : " ما من عبد فتح على نفسه باباً من المسألة ، إلا فتح الله عليه سبعين باباً من الفقر ". وكان يقول : " من سألنا أعطيناه ومن إستغنى أغناه الله ". وقال زين العابدين (ع) عندما نظر يوم عرفة إلى رجال ونساء يسألون : " فقال هؤلاء شر خلق الله ، الناس مقبلون على الله ، وهم مقبلون على الناس". أما عند الحاجة والإضطرار فهو جائز ، قال سبحانه : (وأما السائل فلا تنهر)[189], كالجائع الخائف المريض ، أو المحتاج إلى الثياب والغطاء في الشقاء ، وعلى الفقراء أن يسمعوا قول النبي(ص) : " لو توكلتم على الله ، لرُزقتم كما ترزق الطيور تغدو خِماصاً وتروح بطاناً ".

الحرص [190]

الحرص هو حب المال بعينه والإحتفاظ به وعدم الإنفاق ، وأشهر أنواعه ، هو من يجمع المال ولا يحتاج إليه ولا يفيده ويثابرعلى ذلك من دون ملل . والحرص هو ملكة وصفة مضلَّة ومهلكة ، وهاوية غير متناهية الأعماق ، وقد وقع فيها من ضلَّ وهلك ؛ والتجربة والأخبار تحكي عن الحريص , بأنه لا يزال يخوض غمرات الحياة الدنيا ، إلى أن يغرق .

قال رسول الله(ص) : " لو كان لإبن آدم واديان من ذهب لإبتغى لهما ثالثاً " , ولا يملأ جوف بن آدم إلا التراب , ويتوب الله على من تاب " , وقال : " يشيب إبن آدم وتشيب معه خصلتان الحرص وطول الأمل " . وقد ورد في ذم الحرص أحاديث كثيرة لا تحصى ، ولا حاجة لإيرادها لإشتهارها .

---

[188] (ص 292)
[189] (الضحى 10)
[190] (ص 295)

القناعة [191]

هي ملكة للنفس توجب الإكتفاء بقدر الحاجة والضرورة من المال ، دون السعي والتعب في طلب الزائد منه ، وهي صفة فاضلة ، وهي من أعظم الوسائل لتحصيل السعادة الأبدية ، إذ من قنع بقدر الضرورة من الأمور الحياتية ، ولا يشتغل قلبه بالزائد منها ، فهو فارغ البال ، يستطيع أن يشتغل بأمور أخرى تفيده ، والعمل لآخرته . ومن ترك القناعة ، أصيب بالطمع وطول الأمل ، وخاض في غمرات الدنيا ، وتفرَّق قلبه ، وتشتت أمره ، ولم يحصل إلا على ما كتب له ، قال رسول الله : " أيها الناس أجملوا في الطلب ، فإن ليس للعبد إلى ما كتب له في الدنيا ".

وقال (ص) : " كن قانعاً تكن أشكر الناس " , قال أمير المؤمنين(ع) : " إن كنت تريد ما يكفيك فإن أيسر ما فيها يكفيك ، وإن تريد ما لا يكفيك ، فإن كل ما فيها لا تكفيك " .

البخل [192]

البخل من ثمرات حب الدنيا ونتائجه ، وهو من خبائث الصفات ، وهو عدم الإنفاق حيث ينبغي البذل ، ولذلك ورد في ذمة الكثير ، من ألآيات والأخبار .

قال الله تعالى : (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ، ولا تبسطها كل البسط)[193] , وقال: (الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله)[194], وقال تعالى : (ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله خيراً لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة)[195] .

قال الرسول (ص): " البخيل بعيد عن الله ، بعيد عن الناس ، بعيد عن الجنة وقريب من النار " ,

وقال : " جاهل سخيّ خير من عابد بخيل" , وقال : " ثلاث موبقات : شحٌّ مُطاع ، وهوى متبَّع وإعجاب المرء بنفسه " .

السخاء [196]

السخاء هو ثمرة الزهد ، وعلى المؤمن أن يكون دائماً في حالة القناعة إن لم يكن له مال ، وإذا كان له مال أن يصطنع المعروف . الجود والسخاء من أشرف الصفات ومعالي الأخلاق ، وهو من أوصاف النبيين وأخلاق المرسلين ، وما ورد في مدحه لا يحصى .

قال رسول الله (ص) : االسخاء شجرة من شجر الجنَّة أغصانها متدلية إلى الأرض ، فمن أخذ منها غصناً قاده ذلك الغصن إلى الجنَّة " ؛ وقال (ص) : " لا تذكروا ذنب السخيّ فإن الله آخذ بيده

---

[191] (ص 296)
[192] (ص300)
[193] (الإسراء 29)
[194] (النساء 36)
[195] (آل عمران 80)
[196] (ص302)

كلما أذنب ", وقال(ص) : " إصنع المعروف إلى من هو أهله ، وإلى من هو ليس بأهله ، فإن أصبت أهله فقد أصبت ، وإن لم تُصب أهله فأنت من أهلِه " , وقال (ص) : " إن بدلاء أمتي لم يدخلوا الجنة بصلاة ولا صيام ،ولكن دخلوها بسخاء الأنفس ، وسلامة الصدور ، والنصح للمسلمين " .

معرفة ما يجب أن يبذل

السخاء هو الوسط بين الإقتار والإسراف ، والسخي هو الذي يؤدي واجب الشرع ، فعليه أن يزكيَّ ماله ويدفع الخمس ، وينفق على عياله قدر حاجتهم فمن فعل ذلك يستحق إسم السخي شرعاً , وعلى السخي أن يعمل المعروف بطيبة نفس ، ولا يكون غرضه المدح والثناء ، و من يحب

أن يُمدح فهو ليس بجواد ، بل هو يبيع ويشتري المدح بماله ، فلا تكون الغاية إلا إكتساب ثواب الآخرة ورفع الدرجات ورضى الله .

الإيثار

إن أرفع درجات السخاء هو الإيثار , قال تعالى : (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة)[197] , وقد سُئل الإمام الصادق(ع) : " أي الصدقة أفضل ؟ قال : جهد المقلّ " .

وإيثار عليّ (ع) مشهور ومسطور في الكتب ، ولقد آثر حياة رسول الله (ص) على حياته ، ليلة المبيت ، فباهى الله به الملائكة وأنزل فيه آية : (ومن الناس من يشتري نفسه إبتغاء مرضاة الله)[198] , وكان الخواص من شيعته والمقتدون به ، يجتهدون ليسيروا على سنته وسيرته ، والمحافظة على هذه الفضيلة .

علاج مرض البخل [199]

علاج البخل يتم بعلمٍ وعمل : العلم هو معرفة سيئات البخل وفائدة السخاء ، والعمل هو البذل والعطاء ولو تكلُّفاً . وإذا علمنا وتأملنا أخبار ذم البخل ، ومدح السخاء وما توعد الله به البخلاء من العذاب العظيم ، ورأينا كيف ينفر الناس منهم ويحتقروهم ، نعرف أن البذل هو خير من البخل للدنيا وللآخرة . وعندما يريد أي شخص بخيل علاج هذه الآفة ، عليه أن يبدأ بعمل عكسها وهو الجود ، فعليه أن يجتنب الخاطر الأول الذي يمنعه ويعده الفقر ، وهي وسوسة الشيطان التي تصدُّه عن البذل والعطاء .

وإذا كان البخل مزمناً ، فعلى البخيل أن يبذل ولو رياءً حتى يمحو صفة البخل عن نفسه . ولكنه يكون قد أزال رذيلة البخل وإكتسب ، صفة الرياء ، بعد ذلك يزيل الرياء من نفسه ، فالصفات

---

[197] (الحشر 9)

[198] (البقرة 207)

[199] (ص 305)

الخبيثة يسلَّط بعضها على بعض ، وقد جرت سنة الله بدفع المؤذيات والمهلكات بعضها ببعض ، كما يسلّط الظالمين والأشرار بعضهم على بعض ، إلى أن يهلك الجميع .

ثم أن عمدة علاج البخل ، هو أن يقطع سببه ، وهو حب المال وطول الأمل ، فمن الناس من يكون من المعمرّين ، وله مال كثير ، يكفيه بقية عمره ويزيد عن ذلك كثيراً ، وليس عنده ولد ، لا تسمح نفسه بإخراج الزكاة ، أو مداواة نفسه إذا مرض ، بل هو عاشق للمال بعينه ، حتى أن نفسه لا تسمح له بأن يأكل أو يتصدق ببعض أمواله . وهذا مرض عسير علاجه فعلى من يبتلى بهذا المرض ، أن يقطع سبب كل علَّة , فيعالج طول الأمل بكثرة ذكر الموت ، والنظر إلى موت الأقران وطول تعبهم في جمع المال ، وضياعه بعدهم . ويعالج كثرة الإهتمام بمصير الأولاد ، بأن الله قد خلقهم وخلق أرزاقهم ، وكم من ولد لم يرث مالاً هو أحسن حالاً ممن ورث وأن ولده إذا كان تقياً سيغنيه الله ، وإذا كان فاسقاً فالمال يعينه على المعصية ويكون قد سبب له ظلم نفسه . وأن يتفكر في مقاصد المال ، فلا يحفظ إلا قدر حاجته ، ويبذل الباقي للمستحقين ليحصل على سعادة الدنيا والآخرة . وعلى المؤمن أن يبذل المال ليتصف بالجود والسخاء ، عند الله وعند الناس .

بذل المال بعضه واجب ، وبعضه مستحب ، فالواجب ورد في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، وعن الأئمة (ع) : قال الله تعالى: " أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة "[200], وقال سبحانه :

(الذين يكنزون الذهب والفضَّة ولا ينفقونها في سبيل الله مبشرهم بعذاب أليم)[201] , ومعنى الإنفاق في سبيل الله ، هو إخراج الزكاة ، كما ورد عن الرسول(ص) , وأهل البيت(ع) , وقال رسول الله (ص) : " إذا منعت الزكاة منعت الأرض بركاتها ".

وقال الإمام الصادق(ع) : ما من أحد عنده مال أو ذهب وفضة ، يمنع زكاة ماله ، إلا سلَّط الله عليه يوم القيامة شُجاعاً (حية) , يطوق عنقه ، وذلك قول الله تعالى : (سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة)[202] , ومن منع قيراطاً من الزكاة فليس بمؤمن ولا مسلم ، ويقول بعد الموت :
(رب إرجعوني لعلّى أعمل صالحاً فيما تركت)[203] .

وقال(ع) : " إنما وضعت الزكاة إختباراً للأغنياء ، ومعونةً للفقراء ، ولو أن الناس أدوّا زكاة أموالهم ما بقي مسلم فقير محتاج ولا مستغني بما فرض الله له ، وأن الناس ما إفتقروا ولا إحتاجوا ولا جاعوا ولا عُروا إلا بذنوب الأغنياء ، وحقيق على الله أن يمنع رحمته ، ممن منع حق الله في ماله ، وأُقسم بالذي خلق الخلق وبسط الرزق ، أنه ما ضاع مال في بر أو بحر ، إلا بترك الزكاة وإن أحب الناس إلى الله تعالى أسخاهم كفاً ، وأسخى الناس من أدى زكاة ماله ، ولم يبخل على المؤمنين ، بما إفترض الله لهم من ماله " .

---

[200] (الحج 78)
[201] (التوبة 34)
[202] (آل عمران 180)
[203] (المؤمنون 99)

سر وجوب الزكاة [204]

السر في وجوب الزكاة ، وفضيلة إنفاق المال هو في ثلاثة أمور:

الأول : هو توحيد الله بالفعل والعمل ، لأن التوحيد باللسان قليل الجدوى ، ويمتحن العبد بدرجة محبته لله ، بترك بعض الشهوات ، ومنها المال لأنه وسيلة للتمتع بالدنيا ، وبها يأنس في هذه الدنيا ويخاف من الموت ويستوحش منه ، مع ما فيه من لقاء الله وجنات النعيم ؛ لذلك قال الله عز وجلّ : (إن الله إشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنَّة)[205] .

وينقسم المؤمنين في درجاتهم في التوحيد ومحبة الله ، إلى ثلاثة :

1 - قسم صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، ووفوا بعدهم وجعلوا قلوبهم محلاًّ للواحد الأحد ، فتنازلوا عن جميع أموالهم ولم يدَّخروا شيئاً منها ؛ وقد سُئل الإمام الصادق(ع) : " كم يجب من الزكاة في مائتي درهم ؟ فقال : أما بحكم الشرع على عامة الناس فخمسة وعشرون ، أما نحن فعلينا بذل الجميع " .

2 - وقسم درجتهم دون ذلك ، يعطون الزكاة والخمس ويؤدون معظم أنواع البر والمعروف .

3 - وقسم ثالث ، إقتصروا على أداء الواجب فلا يزيدون ولا ينقصون .

والسر الثاني في وجوب الزكاة : تطهير النفس من رذيلة البُخل لأنها من المهلكات ، وتزول هذه الرذيلة ببذل المال ، مرةً بعد أخرى حتى يتعوَّد الإنسان على ذلك ، فحب الشيئ لا ينقطع إلا بقهر النفس على مفارقته , ثم بعد ذلك يصبح فرِحاً بصرف ماله في سبيل الله .

السر الثالث : شكر النعمة ، فإن لله نعمةُ للإنسان في نفسه ، ونعمة في ماله ، فالعبادات البدنية شكر لنعمة البدن ، والمالية شكر لنعمة المال . وما أقبح للغني المؤمن ، أن ينظر إلى فقير مسلم ، قد ضاق الرزق عليه ، يعيش محتاجاً ، ولا تسمح نفسه بأن يؤدي شكر الله تعالى بإعطاء هذا الفقير ، بالذي أمره الله به ، وعلى المؤمن المنفق ، عندما يشعر بداعية الخير في قلبه ، أن يسارع إلى الإمتثال ، تعجيلاً لإدخال السرور في قلوب الفقراء ، وحذراً من التأخير ، لأن الأسباب المانعة كثيرة ، وعلماً بأن داع الخير هو إلهام من الله ، لأن قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن ، ولكن الشيطان الذي دوره أن يأمر بالفحشاء والمنكر ، له لمَّة بعد لمَّة الملك . ويجب العطاء إبتداءً للفقراء صوناً لهم من الإضطرار إلى الطلب والسؤال ، لأن العطاء إلى الفقير السائل ، هو ثمناً لسؤاله من ذلّ الطلب ، ولا يُسمى معروفاً .

إعلان الصدقة الواجبة

الصدقة الواجبة ، هي الزكاة ، إعلانها أفضل من إخفائها ، لأن في إظهارها ، ترغيب للناس في الإقتداء ، وإذا كان الفقير لا يستحي من أخذها علانيةً .

---

[204] (ص 309)

[205] (التوبة 111)

قال الإمام الصادق (ع) : كل ما فرض عليك فإعلانه أفضل من إخفائه ، وكلما كان تطوعاً فإسراره أفضل من إعلانه ، ولو أن رجلاً حمل الزكاة على عاتقه علانيةً لكان ذلك حسناً جميلاً .

ولكن إذا دخل الرياء في نفس المعطي ، كان له الأفضل أن يخفيها , قال الله تعالى : (وإن تخفوها وتؤتوها للفقراء فهو خير لكم)[206].

و قيل للإمام الباقر(ع) : " إن بعض أصحابنا يستحي من أن يأخذ من الزكاة فهل أعطيه منها دون أن أسميَّ له أنها من الزكاة ؟ فقال : إعطه ولا تسميَّ له ولا تذل المؤمنين" .

وبالإجمال : الإعلان هو لفائدة الترغيب ولكن ذلك يختلف حسب الأشخاص والأحوال , لأن الإخفاء أحياناً يكون أفضل ، فلا بد لكل منفق أن يختار ما هو الأفضل والأليق .

المن والأذى في الصدقة

ينبغي للمتصدق أن يجتنب المن والأذى ، قال الله تعالى : (ولا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى)[207] , والمن هو أن يرى المعطي نفسه محسناً ، ويطلب الشكر والخدمة ، والتعظيم والإستخفاف بمن أعطاه وإستخدامه ، وعلى من يدفع الصدقة ، أن يعرف أن المحسن هو الفقير ، لأنه ينجيه من عذاب الآخرة ، ولأن هذا العطاء هو حقه من الله تعالى ، لما وعده من الرزق .
وأما الأذى فسببه كراهية إعطاء المال ، والتكبر على الفقير ، وكل ذلك جهل وحماقة ، لأن ما أعطاه هو قليل وخسيس ، بالنسبة لثواب الآخرة ورضا الله ، وأما إستحقاره الفقير، فكيف يرى نفسه خيراً منه لغناه وإحتياج الفقير؟

ويكفي للفقير فضلاً أن الله سبحانه وتعالى جعل الغني مسخَّراً له ، بأن يكتسب المال بالجهد والتعب ، ويسعى في حفظه ويسلمه إلى الفقير بقدر حاجته ، ولكن الغنيّ يكون قد عمرَّ دنياه وآخرته ، ويكفي للفقير من فضل على الغنيّ أن يأخذ فاضل ماله ، ولولا الفقير وحقه من الله ، لبقي مال الغني عبئاً له يحرسه ، ويتركه بعد موته لغيره يتمتع به ، ويُحاسب عليه يوم القيامة ، لعدم إنفاقه على الفقراء .

فالعاقل ، إذا تأمل وفكرّ ، علم أن ما يعطيه من القليل ، مقابل ما يأخذه من عزّ الدنيا وثواب في الآخرة ، يجب أن يرى أن الفقير هو المحسن ، وعلى الغنيّ أن يحترز من المن والأذى وأن يتواضع ويخضع للفقير عند إعطائه حقهَّ ، وعندما يضع الصدقة في يد الفقير عليه أن يشعر بأن يد الفقير هي العليا . والصدقة لوجه الله ، تجعل من المؤمن العاقل ، أن لا يؤثر غيره على نفسه ، لأنه لا يبقى له من ماله بعد موته إلا ما تصدَّق به ، وعليه أن يتصدق بأفضل ما عنده إذا أراد رضا الله ؛ يقول الله تعالى: (أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض) [208].

---

[206] (البقرة 271)
[207] (البقرة 263)
[208] (البقرة 267)

وقال سبحانه : (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) [209], وقال رسول الله (ص) : " ما تقع صدقة المؤمن في يد السائل ، حتى تقع في يد الله ثم تلا هذه الآية: (ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة من عباده ويأخذ الصدقات) [210]. إن الأقارب وأولوا الأرحام من أهل الحاجة ، هم الأولى بالصدقات ، فالإنفاق عليهم صدقة وصلة رحم وقد قيل : " لا صدقة وذي رحم محتاج " , وأفضل الصدقات على ذي رحم مبغض , لأن فيها مخالفة للهوى ، والإخلاص والطاعة لله رب العالمين .

ما ينبغي للفقراء في أخذ الصدقة [211]

على الفقير أن يشكر ربّه ويعبده حق العبادة ، فقد أوجد له المال ليكفيه ، وعليه أن يشكر المعطي فيدعو له ويثني عليه ، مع رؤية أن النعمة من الله تعالى ؛ قال رسول الله(ص) : " من لم يشكر الناس لم يشكر الله " ؛ وعلى الفقير ، أن لا يعيِّر المعطي ، إذا منع عنه العطاء ، أحياناً ، وعليه أن يمدح عطائه مع نفسه ومع الناس ، ولكن بحيث لا يخرجه عن كونه واسطة من الله ، لئلا يكون مشركاً ، وعليه أن لا يأخذ المال مِّمن لديه شبهة في مال حرام ، وأن يأخذ حاجته ولا يزيد في الطلب .

زكاة الأبدان

كما أن للمال زكاة ، كذلك للبدن زكاة ؛ قال رسول الله(ص) : " لكل شيئ زكاة وزكاة الأبدان الصيام " , وقال الإمام الصادق(ع) : " لكل عضو من الأعضاء زكاة ، فزكاة العين ، النظر بالعبر ، وغضّ النظر عن الشهوات ، وزكاة الأذن ، إستماع الحكمة والعلم والموعظة ، والإعراض عن اللغو والكذب ، وزكاة اللسان نصح المسلمين ، وقول الكلمة الطيبة ، وزكاة اليد البذل والعطاء ، وزكاة الرِجل ، السعي في حقوق الله ، وزيارة الصالحين ".

الخمس :

قال الله تعالى : (وإعلموا أنما غنمتم من شيئ فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربة واليتامى والمساكين وإبن السبيل ، إن كنتم آمنتم بالله ، وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم إلتقى الجمعان والله على كل شيئ قدير) [212].

والمستفاد من الآية الكريمة ، أن مانع الخمس لا إيمان له ، ولا ريب في عظم الثواب والأجر في أدائه وإيصاله إلى أهله .

---

[209] (آل عمران 92)
[210] (التوبة 105)
[211] (ص 315)
[212] (الأنفال 41)

صدقة المتطوع [213]

فوائدها الدنيوية والآخروية كثيرة:

قال رسول الله(ص) : " إتقوا النار ولو بشق تمرة فإن لم تجدوا ، فبكلمة طيبة ", وقال (ص) : " ما من عبد مسلم يتصدق بصدقة من كسب طيب ، إلا كان الله آخذها بيمينه ، فيربيها له حتى تبلغ مثل جبل (أحد) ", وقال (ص) : " صدقة السر تطفئ غضب الرب عزوجل " , وقال الإمام الباقر (ع) : " البر والصدقة ينفيان الفقر ويزيدان في العمر ، ويدفعان عن صاحبهما سبعين ميتة سوء ". وقال الصادق(ع) : " داووا مرضاكم بالصدقة ، وإدفعوا البلاء بالدعاء , وإستنزلوا الرزق بالصدقة ".

الهدية [214]

وهي ما يُعطى أو يُرسل إلى أخ أو صديق ، فقيراً كان أم غنياً ، تأكيداً للصحبة والتودد ، وهو مستحب من الشرع مع سلامة القصد والنيَّة يكون عبادة .
قال رسول الله (ص) : " تحابوا تهادوا ، فإنها تذهب بالضغائن ".

الضيافة [215]

ثوابها جزيل ، وأجرها جميل وفضلها عظيم . قال رسول الله (ص) : " الضيف إذا جاء فنزل بالقوم جاء رزقه معه من السماء ، فإذا أكل غفر الله لهم بنزوله " ؛ وقال (ص) : " من أحب الأعمال إلى الله تعالى : " إشباع جوعة المؤمن ، وتنفيس كربته ، وقضاء دينه ".

و كان النبي إبراهيم(ع) إذا أراد أن يأكل خرج مسافةً كبيرة يلتمس من يتغدى معه ؛ و جاء عن الرسول (ص) : " إن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة : يا بن آدم جعتُ فلم تطعمني ، فيقول : كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟ فيقول : جاع أخوك فلم تطعمه ، ولو أطعمته كنت أطعمتني " .

والقصد من الضيافة ، هو إدخال السرور على قلوب المؤمنين ، ولا يقصد به الرياء والمفاخرة والمباهاة وإلا ضاع عمله ، وينبغي ألا يهمل من ضيافته الأقارب والجيران ، وينبغي أن يعجّل في إحضار الطعام ، وأن يشيَّع الضيف إلى باب الدار ومن آداب الضيافة أن تجاب الدعوة إلى الضيافة ، ولا يمنع بعد المسافة ، ولا يمنعه تلبية الدعوة صوم التطوع .

قال الإمام الصادق(ع) : " من دخل على أخيه وهو صائم فأفطر عنده ولم يعلمه بصومه ، كتب الله له صوم سنة " , ويجب على المؤمن أن يمتنع عن دعوة الظلمة والفساق ، إذا كانت ضيافتهم للفخر والمباهاة ، ومن كان طعامه حراماً أو فيه شبهة .

---

[213] (ص 319)
[214] (ص 323)
[215] (ص 323)

القرض [216]

وهو من ثمرات السخاء ، لأن السخيّ تسمح نفسه بأن يقرض أخاه المحتاج بعض أمواله إلى حين إستطاعته ، كما تسمح نفسه أن يبذل عليه من أصل ماله ، والبخيل يشق عليه ذلك .

وثواب القرض عظيم وفضله جسيم , قال الباقر(ع) : " من أقرض أحداً كان ماله في زكاة ، وكان هو في الصلاة مع الملائكة حتى يقبض دينه " , وقال الصادق(ع) : " مكتوب على باب الجنّة : الصدقة بعشرة والقرض بثمانية عشر " , وقال (ع) : ما من مؤمن أقرض مؤمناً ، يلتمس به وجه الله ، إلا حسب الله له أجره بحساب الصدقة حتى يرجع ماله إليه " .

الفرق بين الإنفاق وعمل المعروف [217]

الإنفاق خاص بالمال ، والمعروف إسم جامع لكل ما عرف من طاعة الله والتقرُّب إليه ، والإحسان إلى الناس ، وكل ما قاله الشرع من فعل وترك .

و ما ورد في الآيات عن الإنفاق : قوله سبحانه وتعالى : (أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم)[218], وقوله : (وما تنفقوا من خير فلأنفسكم وما تنفقون إلا إبتغاء وجه الله وما تنفقوا من خير يوفَّ إليكم وأنتم لا تظلمون)[219] , وقوله : (وآتوا المال على حبه ذوي القربى واليتامى)[220] , وقوله : (وما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين ...)[221] , وقوله : (يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلَّةٌ ولا شفاعة)[222], وقوله : (مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة)[223], وقوله : (الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا مناً ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون)[224].

وعن المعروف قال رسول الله (ص) : " أول من يدخل الجنَّة المعروف وأهله ، وأول من يرد عليَّ الحوض " , وقال الإمام الباقر(ع) : " إن من أحب عباد الله إلى الله ، من حبب إليه المعروف وحبب إليه فعاله " ؛ وقال الإمام الصادق (ع) : " إن بقاء المسلمين وبقاء الإسلام أن تصير الأموال عند من يعرف فيها الحق ويصنع المعروف , وإن من فناء الإسلام وفناء المسلمين أن تصير الأموال في أيدي من لا يعرف الحق ولا يصنع المعروف " , و " صنائع المعروف تقي مصارع السوء ".

---

216 (ص 327)
217 (ص 329)
218 (البقرة 276)
219 (البقرة 272)
220 (البقرة 177)
221 (البقرة 215)
222 (البقرة 254)
223 (البقرة 261)
224 (البقرة 262)

أنواع الفجور [225]

من أنواع الفجور الزنا واللواط وشرب الخمر ، والإشتغال بالملاهي وإستعمال آلاتها ، وكل ذلك من رذائل القوة الشهوية ، ولبس الذهب والحرير للرجال ، وقد ورد ذم كل واحد منهما والأخبار كثيرة ولا حاجة إلى ذكرها , منها أيضاً الخوض بالباطل ، وهو التكلم في المعاصي والفجور وحكاياتها ، ومجالس الخمر والفسوق ، وتنعم الأغنياء ، وتجبرُّ الملوك المنافقين وأحوالهم ومراسمهم .

بما أن أنواع الباطل غير محصورة لكثرتها ، فالخوض فيها سيكون بإختصار الكلام على قدر الحاجة ، فإن أكثر الخوض في الباطل حرام , قال الله تعالى عن أهل النار :

(وكنا نخوض مع الخائضين)[226], وقوله : (فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره)[227] .

الغيبة ، والنميمة ، والجدال ، وأمثالها ، وحكايات البدع ، والمذاهب الفاسدة ، فإن الحديث عنها خوض في الباطل , وقد ورد النهي عنها , ومن فضول الكلام ، التكلم بما لا فائدة منه أصلاً ، إن كان في الدين أو الدنيا . والخوض فيما لا يعني ، هو الزيادة في الكلام ، فإذا كانت الكلمة الواحدة تؤدي المعنى والغاية ، فلا داعي لقول كلمتين ، لأن كلمة زائدة هي فضول ، والباعث لها نشوة النفس بكثرة الكلام وإتباع الهوى .

و السر في ذم فضول الكلام ، هو تضييع الوقت ، وتشتت الأفكار ومنع الإنسان من الذكر والفكر ، فمن إشتغل بكلام لا فائدة منه فهو خاسر ، لأن رأس مال العبد هو وقته ، فيجب عدم صرفه فيما لا يعنيه ، لأنه يكون قد ضيَّع رأس ماله ، إن فضول الكلام ، يجرّ إلى الخوض في الباطل ، وربما أدّى إلى الكذب ، أو إلى الزيادة أو النقصان . وقد روي أنه جاء قوم من بني عامر إلى رسول الله (ص) فشرعوا بالمدح والثناء عليه , فقال (ص) : " قولوا قولكم ولا يستهوينكم الشيطان " , لأن اللسان إذا أطلق الثناء ولو بالصدق ، فيُخشى أن يستهويه الشيطان إلى الزيادة .

وقد قيل : أن من كثر كلامه ، كثر خطؤه ؛ وهناك آداب للكلام منها , مثلاً : سؤالك غيرك ، لماذا أنت ضعيف ؟ ما هذا الضعف والهزال الذي حدث لك ؟ وأمثال ذلك من الكلام .

و روي عن لقمان الحكيم ، أنه دخل مرَّةً على داوود(ع) , وهو يصنع درعاً ، ولم يكن قد رأى ذلك ، فتعجَّب بما رآه ، وأراد أن يسأله عن ذلك ، فمنعته حكمته فأسكت نفسه ولم يسأل فلما فرغ قام داوود ولبس الدرع ، وقال نعم الدرع للحرب ، فقال لقمان : " الصمت حكمة والقليل فاعلها ".
قال الرسول(ص) لأبي ذر : " ألا أعلمَّك بعمل خفيفٍ على البدن ، ثقيلٌ في الميزان ، قال بلى يا رسول الله ، قال : " هو الصمت ، وحسن الخلق ، وترك ما لا يعنيك ".

---

[225] (ص 340)
[226] (المدثر 45)
[227] (النساء 139)

المقام الرابع

الحسد [228]

الحسد هو تمني زوال النعمة عن الغير ، وإذا كان باعث الحسد هو وصول المكروه للمحسود ، فهو من رذائل النفس ، ويكون ناتج عن الحقد والغضب ؛ ولا يمكن أن يعلم الحاسد ، ويقطع بأن هذه النعم التي يراها للغير هي صلاحاً أو فساداً ، فربما كانت وبالاً على صاحبها وفساداً له ، مع أن ظهورها للحاسد هي نعمة , ولكن حسن الخلق ، هو أن تريد لأخاك ما تريد لنفسك ، وتكره له ما تكره لها . الحسد أشد الأمراض وأصعبها ، وأسوء الرذائل وأخبثها ، ويؤدي بصاحبه إلى عقوبة الدنيا وعذاب الآخرة , لأنه في الدنيا ، لا يخلو من لحظة حزن وألم ، كل ما رأى نعمةً على غيره . ونعم الله غير متناهية ، ولا تنقطع عن عباده ، فيدوم حزنه وألمه ، فوبال حسده يرجع إليه ، ولا يضر بالمحسود ، ويكون في مقام التضاد مع رب الأرباب وخالق العباد ، إذ هو الذي أفاض النعم والخيرات على العباد ، كما شاء ، وكما إقتضت الحكمة والمصلحة ، فحكمة الله أوجبت هذه النعمة على هذا العبد ، والحاسد المسكين يريد زوالها ، وليس هذا إلا سخط على قضاء الله ، في تفضيل بعض عباده على بعض ، وتمنّي قطع الفيوضات التي صدرت بحسب الحكمة . وأيّ معصية أشد من كراهة راحة مسلم من غير أن يكون له فيها مضرَّة ؟ وقد ورد في الآيات والأحاديث ذم شديد للحسد .

قال الله تعالى : (أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله) , وقال : (ودَّ كثير من اهل الكتاب لو يردوكم من بعد إيمانكم كفَّاراً حسداً من عند أنفسهم)[229] , وقال: (إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها) [230], وقال رسول الله (ص) : " ديدبأء داء الأمم من قبلكم ، الحسد والبغضاء ، والذي نفس محمد بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ، ولن تؤمنوا حتى تحابّوا " , وقال(ص) : " سيصيب أمتي داء الأمم ، قالوا وما داء الأمم ؟

قال: الأشر والبطر ، والتكاثر والتنافس في الدنيا ، والتباعد والتحاسد حتى يكون البغي ثم الهرج ". وقد ورد في بعض الأحاديث القدسية : " إن الحاسد عدو لنعمي ، متسخط لقضائي ، غير راض عن قسمتي التي قسَمت بين عبادي ".

وقال أحد الحكماء : " ما رأيت ظالماً أشبه بمظلوم من حاسد يرى النعمة عليك نقمة عليه ".

---

[228] (ص 345)

[229] (البقرة 120)

[230] (آل عمران 130)

المنافسة والغبطة [231]

المنافسة هي تمنيّ الحصول على ما حصل عليه الغير ، وهي ليست مذمومة ، بل هي واجبة ومطلوبة . قال الله تعالى : (وفي ذلك فليتنافس المتنافسون) [232] ؛ فإن كانت أموراً دينية فسببها حب الله وطاعته ، وإن كانت دنيوية مباحة ، فهي ليست حراماً ، ولكنها تنقص من درجة المؤمن وتحجب عنه المقامات الرفيعة من الزهد والتوكل والرضا , والحسد المذموم ، هو محبة زوال النعمة عن المحسود ، وإن لم تنتقل إليه .

يقول الله عزوجل : (ولا تتمنوا ما فضَّل الله بعضكم على بعض) [233], وهناك من يكون كارهاً لهذا الشعور الخفي بالحسد لعلمه بضرره ، وهو غاضب على نفسه , وهو حسد معفو عنه .

وقد قال رسول الله (ص) : " ثلاث لا ينفك المؤمن عنهن: الحسد والظن والطيرة , وله منهن مخرج ,

فإذا حسدت فلا تبغ وإذا تطيرت فإمض , (أي إذا وجدت في قلبك شيئاً فلا تعمل به وكن كارهاً له)، وإذا ظننت فلا تحقق ظنَّك " ؛ و لقد حسد الكفار رسول الله (ص) حيث قالوا : يتقدم علينا غلام فقير يتيم , فنزل فيهم قول الله : (لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) [234].

وكانت الأمم تحسد أنبيائها فقالوا : (أنؤمن لبشرين مثلنا)[235]؛ وقد تعجبوا ممن هو مثلهم وقد فاز برتبة الوحي والرسالة وحسدوه فالحسود يتمنى إستجماع جميع النعم والخيرات الحاصلة لجميع الناس , فلو كان عاقلاً ما تمنى ذلك ، ولدفع هذه المشاعر بقوته العاقلة . والحسد لا يحصل بين بلدتين متباعدتين ، ولكن الأقرباء يحسد بعضهم بعضاً ، والعالِم يحسد العالِم ، والتاجر يحسد التاجر ، وهكذا تعم هذه الرذيلة ، وخاصةً من إشتد حرصه على حب الجاه والمال .

ومنشأ ذلك كله حب الدنيا ، وأما من أحب الآخرة والعلوم الأخروية ، من معرفة الله تعالى ، ومعرفة النظام الإجمالي من البداية إلى النهاية ، فهو لا يحسد غيره ، لأن العلم لا يضيق بكثرة العلماء العارفين ، لأن الواحد الأحد يعرفه كل العلماء المتقين ، ويفرح كل واحد منهم بمعرفته ويلتذ بها بل يزيد الأنس بكثرتهم ، وقد ظهر جلياً أن لا تحاسد بين علماء الآخرة ، ولكن التحاسد بين علماء الدنيا الذين يطلبون الجاه والمال .

إن اللذة التي يشعر بها من كانت نفسه بريئة من رذائل الحسد وغيره فهم أناس أصحاء . وقال الله تعالى عن أهل الجنة : (ونزعنا ما في صدورهم من غلّ إخواناً على سرر متقابلين) [236], وعن أهل الدنيا المخلصين : (رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله)[237].

---

[231] (ص 348)
[232] (المطففين 26)
[233] (النساء 32)
[234] (الزخرف 31)
[235] (المؤمنون 47)
[236] (الحجر 47)
[237] (النور 37)

علاج الحسد

الحسد من الأمراض المهلكة للنفوس ، وهو لا يداوى إلا بالعلم والعمل .

- العلم : هو المعرفة بأن الحسد يجعل صاحبه متألماً ومعذبَّاً فهو يتعذب لكل نعمة يراها للغير ، ويبقى محزوناً ضيق النفس منشغل القلب ؛ فهو بإختياره قد جرَّ نفسه إلى حيث يريد أعدائه ، والعجب من العاقل ، أن يتعرض لسخط الله ومقته ، في الآخرة ، والضرر والألم في الدنيا ، فيهلك دينه ، ودنياه من دون جدوى ولا فائدة ترجى ولو كانت النعم تزول بالحسد ، لم تبقى على كافة الخلق نعمة فعلى الحاسد أن يبتعد عن الغيبة والبهتان وإفشاء الأسرار ، والتكبر وشدة الحرص ، وأن يعمل على تنمية حب الخير في نفسه وإسداء النصيحة للآخرين ، فيفارق الحسد نفسه .

- وأما العمل فهو أن يتواضع للناس ، وأن يكلف نفسه ، بحسن البِشر واللين ، فإن فعل ذلك يجعل الحسد ينحسر بالتدريج ، ويحل مكانه المحبة الحقيقية للناس .

عند ذلك تتشرف نفسه بأنوار المحبة لله ولعباده ، ويتقين أن الموجودات والعطايا بأسرها صادرة عن جوده وفيضه ، وأن الناس متساوين في نيل الرحمة والجود ، فلا يعد يلتفت إلى أحوال العباد ، بل ينظر إلى الكل بعين واحدة ، وهي عين الرحمة فلا يرى التفاوت بين العباد فالكل سواء ، وأن كل شيئ يعود إلى حكمة الله وعدله .

الظلم [238]

الظلم هو جامع للرذائل كلها ، ويطلق عليه الجور أيضاً ، وهو يعني : الضرب ، والشتم ، والقذف ، والغيبة ، وأخذ المال بالقهر والنهب والغضب والسرقة وغير ذلك من الأفعال المؤذية .
وقد تكرر في القرآن لعن الظالمين ، وهذه الظلامات تعد بمقام الشرك بالله , يقول الله تعالى :
(إن الشرك لظلم عظيم)[239] , ويقول : (إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم)[240], وقال : (ولا يحسبن الله بغافل عما يعمل الظالمون)[241] , وقال: (وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون)[242], وقال الرسول (ص) : " جور ساعة في حكم أشد وأعظم عند الله من معاصي تسعين سنة " , وقال الإمام الباقر(ع) : " ما من أحد يظلم بمظلمة إلا أخذه الله تعالى بها في نفسه أوفي ماله " , وقال (ع) : " من ظلم سلَّط الله عليه من يظلمه " , والمعين للظالم والراضي بفعله والساعي له كالظالم بعينه في الإثم والعقوبة " .
وقال الصادق(ع) : " العالِم بالظلم والمعين له والراضي به شركاء ، يوم القيامة ينادي من مناد : أين الظلمة وأعوان الظلمة فإحشروهم معهم " .

---

238 (ص 361)
239 (لقمان 13)
240 (الشورى 42)
241 (إبراهيم 42)
242 (الشعراء 227)

العدل [243]

وهو ضد الظلم ، والكف عنه ، والإستقامة ، وهو إعطاء كل ذي حق حقه ، وفضيلة أكثر من أن تحصى , والآيات والأحاديث كثيرة في ذكره , قال الله سبحانه : (إن الله يأمر بالعدل والإحسان) [244] , وقال : (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل)[245], وقال رسول الله (ص) : " عدل ساعة خير من عبادة سبعين سنة قيام ليلها وصيام نهارها ", وقال أيضاً : " درهم يردّه العبد إلى الخصماء خير له من عبادة ألف سنة ، وخير له من عتق ألف رقبة ، وخير له من ألف حجة وعمرة " ؛ وقال الإمام الصادق (ع) : " من أصبح لا ينوي ظلم أحد ، غفر الله له تعالى ذنب ذلك اليوم " .

إدخال السرور على قلب المؤمن [246]

لا حد للثواب المترتب على إدخال السرور إلى قلب المؤمن ، وهي من أعظم شعب الإيمان ؛ قال رسول الله (ص) : " من حمى مؤمناً من ظالم بعث الله له ملكاً يوم القيامة يحميه من نار جهنم " ,

وقال (ص) : " من سرَّ مؤمناً ، فقد سرَّني ومن سرَّني فقد سرَّ الله " , وقال (ص) : " إن أحب الأعمال إلى الله عزوجل إدخال السرور على المؤمنين " , وقال الباقر (ع) : " تبسّم أحدكم إلى أخيه حسنة " ؛ و إن عدم الإهتمام بأمور المسلمين ، يدل على ضعف الإيمان , قال الباقر (ع) : " من بخل بمعونة أخيه المسلم والقيام له في حاجة ، إلا إبتلي بالقيام بمعونة من يأثم عليه ولا يؤجر ".
وقال رسول الله (ص) : " من أصبح ولم يهتم بأمور المسلمين فليس بمسلم " , وقال : " من قضى حاجة لأخيه المسلم فكأنما عبد الله الدهر كله " , وقال الباقر (ع) : " إن المؤمن لترد عليه الحاجة لأخيه فلا تكون عنده ، فيهتم بها قلبه فيدخله الله تعالى بهمِّه إلى الجنة " , وقال (ع) : " من قصد إليه أحداً من إخوانه مستجيراً به في بعض أحواله ، فلم يجره ، بعد أن يقدر عليه فقد قطع ولاية الله تعالى" .

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر [247]

التهاون في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ناشئ من الضعف في الإيمان وفي النفس ، وتفريط في الواجبات الدينية ، وأثر ذلك سيئ جداً وشره كبير . إذا توقف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، شاعت الجهالة ، وضاعت أحكام الدين ، وإندرست شريعة رب العالمين ، وهلك العباد .

---

[243] (ص 363)
[244] (النمل 90)
[245] (النساء 57)
[246] (ص 364)
[247] (ص 368)

لذا نرى في كل عصر ، ثلة من المؤمنين تقيم هذه السُنَّة من علماء أقوياء في دينهم ، لا تؤخذهم في الله لومة لائم . وعندما تمر فتره ، لا يكون فيها من يقوم بإحيائها ، يستشري الفساد ، ويسترسل الناس في إتباع الشهوات والهوى ، وتتنحى أعلام الهداية والتقوى ، ولا يبق من الإسلام إلا إسمه ومن الشرع إلا رسمه . ولأجل ذلك ، ورد الذم الشديد في الآيات والأخبار ، على ترك المعروف والنهي عن المنكر والمداهنة فيهما .

قال سبحانه وتعالى : (لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون)[248] , وقال رسول الله (ص) : " ما من قوم عملوا بالمعاصي وفيهم من يقدر أن ينكر عليهم ، فلم يفعل إلا , يوشك أن يعمُّهم الله بعذابٍ من عنده " .

وقال (ص) : " إن الله ليبغض المؤمن الضعيف الذي لا دين له ، فقيل له : ومن المؤمن الضعيف ؟ قال : الذي لا ينهى عن المنكر " ؛ وقيل له (ص) : " أتهلك القرية وفيها الصالحون ؟ قال : نعم ! قيل : بما يا رسول الله ؟ قال : بتهاونهم وسكوتهم عن معاصي الله " , وقال(ص) : " لتأمرنَّ بالمعروف وتنهنَّ عن المنكر ، أو ليستعملنَّ عليكم شراركم ، فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم " .

وقال أمير المؤمنين (ع) : " من ترك إنكار المنكر بقلبه ويدييه ولسانه ، فهو ميَّت بين الأحياء " , وقال (ع) : " أمرنا رسول الله (ص) أن نلقى أهل المعاصي بوجوه مكفهرة " ,
وقال الباقر(ع) : " أوحى الله عزوجل إلى شعيب النبي (ع) : " إني معذب من قومك مائة ألف ، ستين ألف من شرارهم وأربعين ألف من خيارهم ", فقال يا رب ، هؤلاء الأشرار، فما بال الأخيار ؟ فأوحى الله عزوجل إليه : " داهنوا أهل المعاصي ، ولم يغضبوا لغضبي ".
وقال (ع) لقوم من أصحابه : " ما يمنعكم إذا بلغكم من أحد ما تكرهون ، أن تأتوه فتؤنبوه وتعذلوه ، وتقولوا له قولاً بليغاً " , قيل له : إذن لا يقبلون منا ، قال : أُهجروهم وإجتنبوا مجالستهم " .
وقال رسول الله (ص) : " كيف بكم إذا فسدت نساؤكم وفسق رجالكم ، ولم تأمروا بالمعروف ولم تنهوا عن المنكر ؟ فقيل له : ويكون ذلك يا رسول الله ؟ قال : نعم ! كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف ؟ فقيل له : ويكون ذلك ؟ قال نعم ، وشرٌّ من ذلك ! كيف بكم إذا رأيتم المعروف منكراً والمنكر معروفاً ؟ عند ذلك يبتلى الناس بفتنة يصير فيها الحليم حيران " .

ومن تأمل الآيات والأخبار وإطلعّ على التاريخ ، وقصص الأمم السابقة وما حدث لهم من العقوبات ، وحتى في الحاضر , ما إبتلي به الناس من بلاءات أرضية وسماوية علم أن عقوبة ذلك يكون بسبب ترك الامر بالمعروف والنهي عن المنكر بين الناس .

والآيات القرآنية التي ورد فيها المدح والترغيب بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كثيرة ؛ قال سبحانه : (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) , وقال : (كنتم خير أمَّة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر) [249] , وقال عزوجل : (لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس)

---

[248] (المائدة 63)
[249] (آل عمران 104)

وقال رسول الله (ص) : " ما بعث الله نبيّاً إلا وله حواري ، فيمكث النبي بين أظهرهم ما شاء الله يعمل فيهم بكتاب الله وبأمره ، حتى إذا قبض الله نبيَّه ، مكث الحواريون يعملون بكتاب الله و بأمره وسنَّة نبيهم " .

وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر [250]

من شروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

- أولاً : العلم بكونهما معروفاً ومنكراً ، ليأمن من الخطأ ، فمن علم بقطع الوجوب أو الحرمة ، وبالإجماع القطعي لعلماء الدين من المذاهب ، ومن الكِتاب والسنة ، فله أن يأمر وينهي ومن علم بالظن ، وهو مختلف عليه في المذاهب فليس له ذلك .

- ثانيا : إذا علم أنه لن يؤثر فيه ، فلا يجب عليه ، لعدم الفائدة .

- ثالثاً : إذا علم أنه سيكون من وراء ذلك ضرر عليه ، أو على أحد المسلمين سقط التكليف بذلك ، إذ لا ضرر ولا ضرار في الدين .

- رابعاً : أن يكون المأمور أو المنهي مصرّاً على الإستمرار سقط التكليف بذلك .

وقد سئل الإمام الصادق(ع) : هل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب على الأمة جميعاً ؟
قال : لا، فقيل له : ولما ؟ قال : إنما هو على القوي المطاع العالم بالمعروف والمنكر ،
لا على الضعيف الذي لا يهتدي سبيلاً ولا يعرف الحق من الباطل ، والدليل من كتاب الله ؛
قال الله عزوجل : (ولتكن منكم امَّةٌ يدعون إلى الخير يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) [251] ,
وقال : (ومن قوم موسى أمَّةٌ يهدون بالحق وبه يعدلون) [252].

- خامساً : أن يكون المنكر ظاهراً فلا يجوز التجسس على الناس .

- سادساً : على من يأمر بالمعروف أن يكون هو ملتزماً بما يأمر به وينهى عنه , يقول الله تعالى :

(يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ، كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون) [253] .

أما من نصب نفسه لإصلاح الناس ونصحهم وبيان الأحكام الإلهية ، نيابةً عن الرسول (ص) والأئمة المعصومين (ع) فلا بد أن تكون عنده العدالة والتقوى ، والعلم بالكتاب والسنة ، وغير ذلك من شرائط الإجتهاد ؛ قال الإمام الصادق(ع) : " من لم ينسلخ عن هواجسه ، ويتخلص من آفات نفسه وشهواتها ولم يهزم الشيطان ، ولم يدخل في كنف الله وأمان عصمته ، لا يصلح له الأمر

---

[250] (ص 372)
[251] (آل عمران 104)
[252] (الأعراف 159)
[253] (الصف 2-3)

بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولا ينتفع الناس به " , قال الله عزوجل : (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم) [254] .

ومن مراتب الأمر بالمعروف : الإنكار بالقلب , الكراهة والإعراض , المنع بالقهر , التهديد والتخويف , الضرب , ولكن بوجود حاكم شرعي وبإذن من الإمام حتى لا يكون فتنة بين الناس ، فالغاية هي وقوع المعروف ورفع المنكر .

من هو الآمِر بالمعروف والناهي عن المنكر [255]

ينبغي للآمِر بالمعروف والناهي عن المنكر ، أن يكون حسن الخلق ، صابراً حليماً ، قوياً في نفسه ، لئلا ينزعج ولا يضطرب ، إذا قيل له ما لا يليق ، فإن أكثر أتباع الهوى ، إذا نُهوا

عمَّا يميلون إليه شقَّ ذلك عليهم ، فربما تجاوزوا إلى سوء الأدب قولاً وفعلاً , وأن يكون رفيقاً بالناس ، لأن الرفق أشد تأثيراً في قلوب الناس ، وأن يكون غير طامع في أموالهم .

ما هي أنواع المنكرات :

- منها ما يكون في المساجد ، كإساءة الصلاة ، والإخلال ببعض أفعالها ، والتأخير في أوقاتها ، وإدخال النجاسة فيها ، والتكلم فيها بأمور الدنيا والبيع والشراء ، ووعظ من ليس عنده الكفاءة فيكذب ويفتي بمسائل وهو ليس أهلاً لذلك .

- وما يكون في الأسواق من الكذب ، وحلف الأيمان الكاذبة وتبخيس الميزان والكيل ، والمعاملات الفاسدة .

- ومنها ما يكون في الشوارع ، كتضييق الطرقات على المارّة بوضع الأطعمة والأوساخ ورش المياه , وغير ذلك .

- ومنها ما هو بدعة في الدين ، والقتل والظلم والزنا واللواط وشرب الخمر والنظر إلى غير المحارم.

التزاور والتآلف [256]

الأحاديث الواردة بهذه المضامين كثيرة ، والسر في هذا الترغيب الشديد ، على تزاور المؤمنين وملاقاتهم ، كونه دافع للحسد والعداوة ، جالباً للتآلف والمحبة وإنقطاع الوحشة ، ولا سيما إذا كانت الرابطة هي التقوى والدين .

---

[254] (البقرة 44)

[255] (ص 376)

[256] (ص 379)

قال تعالى : (لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألّفت بين قلوبهم ولكن الله ألَّف بينهم) [257] , وقال تعالى : (وإعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا)[258], وقال رسول الله(ص) : " المؤمن أليفٌ ومألوف ولا خير في من لا يَألف ولا يُؤلف " .

قطع الرحم

هو إيذاء ذوي القرابة ، أو عدم مواساتهم بما ناله من رفاهية وثروة وخيرات دنيوية مع حاجتهم إليه , وباعث ذلك ، إما العداوة أو البخل أو الخسَّة ، فهو من رذائل القوة الشهوية والغضبية ، وهو من المهلكات المفسدة للدين والدنيا .

قال الله تعالى : " أبغض الأعمال إلى الله الشرك بالله ، وقطيعة الرحم ".

صلة الرحم

هي من أعظم القربات وأفضل الطاعات , قال الله تعالى : (وإعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى) [259], وقال سبحانه : (وإتقوا الله الذي تسائلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً)[260], وقال عزوجل : (الذين يصلون ما أمر الله بأن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب) , وقال رسول الله (ص) : " إن أعجل الخير ثواباً صلة الرحم " ,

وقال : " إن القوم ليكونون فجرة ولا يكونون بررة ، فيصلون أرحامهم ، فتنمى أعمالهم وتطول أعمارهم فكيف إذا كانوا أبراراً " , وقال (ص) : " أفضل الفضائل : أن تصل من قطعك ، وتعطي من حرمك ، وتعفو عمن ظلمك ".

عقوق الوالدين [261]

هو أشد أنواع قطيعة الرحم وأفظعها ، وقد وردت في ذمه آيات وأخبار كثيرة :

قال تعالى : (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً ، إما يبلغن عندك الكبر إحداهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً) [262] , وقال الإمام الصادق (ع) : " لو علم الله شيئاً هو أدنى من (أف) لنهى عنه ، وهو أدنى العقوق ، ومن العقوق أن ينظر أحدهم إلى والديه فيحدّ النظر إليهما ".

[257] (الأنفال 63)
[258] (آل عمران 103)
[259] (النساء 36)
[260] (النساء 1)
[261] (ص 384)
[262] (الإسراء 23)

بر الوالدين [263]

هو أفضل القربات وأشرف السعادات ، وقد ورد الكثير في الحث عليه والترغيب إليه , قال تعالى : (إعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً)[264], وقال رسول الله (ص) : " بر الوالدين أفضل من الصلاة والصوم والحج والعمرة والجهاد في سبيل الله " .

وعن أبي عبد الله (ع) : " جاء رجل إلى النبي (ص) يريد الجهاد ولكن أمه حزنت لأجله ، فقال له الرسول ألك والدة قال نعم , قال فألزمها فإن الجنة تحت قدميها ".

والأحاديث عن ثواب بر الوالدين لا تحصى ، فعلى كل مؤمن شديد الإهتمام في تكريمهما وتعظيمهما ، أن يبادر إلى تلبية ما يحتاجان دون سؤال ، وإن ضرباه ، لا يعبس وجهه بهما ، ويقول : غفر الله لكما ، ولا يملأ عينيه من النظر إليهما إلا برحمة ورقَّة ولا يرفع صوته فوق صوتهما ، ولا يده فوق أيديهما ، وكلما بالغ في التذلل والتخضع كان أجره وثوابه أعظم .

إن إطاعة الوالدين واجبة وطلب رضاهما حتمي ، فليس للولد أن يعمل شيئاً من المباحات والمستحبات إلا بإذنهما ، إلا إذا كان يريد طلب العلوم الدينية ، وإذا كان في بلده من يعلمه هذه العلوم فلا يجوز له السفر .

حق الجوار [265]

حق الجوار قريب من حق الرحم , قال رسول الله (ص) : " الجيران ثلاثة : فمنهم من له ثلاثة حقوق ، حق الجوار ، وحق الإسلام وحق القرابة ، ومنهم من له حقَّان : حق الإسلام وحق الجوار ، ومنهم من له حق واحد : الكافر له حق الجوار " , وقال (ص) : " من آمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره " . وقيل لرسول الله (ص) : " فلانة تصوم النهار وتقوم الليل ، وتتصدق ، ولكن تؤذي جيرانها بلسانها ، فقال : لا خير فيها ، هي من أهل النار ", وقال (ص) : " ما آمن بي من بات شبعاناً وجاره جائع " .

إن كل أربعين داراً من كل واحد من الجوانب الأربعة هم جيران , وعلى الجار أن يزور جاره في حالة المرض ، وأن يعزيه في المصيبة ويقوم معه في العزاء ، ويهنئه بالفرح ، ويصفح عن زلالته ، ويستر على عيوبه ، ولا يمنعه من أي معونة إحتاجها ، وإن إستقرضه قرضه .

---
[263] (ص 385)
[264] (النساء 36)
[265] (ص 387)

إفشاء السر والنميمة [266]

قال الله تعالى : (همَّاز مشَّاء بنميم منَّاع للخير معتدٍ أثيم عتلَّ بعد ذلك زنيم) [267] ,
وقال رسول الله (ص) : " لا يدخل الجنة نمامٌ " , و النميمة معناها : الكذب ، والغيبة ، والغدر ، والخيانة ، والغل ، والحسد ، والنفاق ، والإفساد بين الناس ، والخديعة فالنمام هو أشرُّ الناس وأخبثهم ؛ قال الله تعالى : (يقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض) [268] .

وقال الإمام الصادق (ع) : " من روى على مؤمن رواية يريد بها الإساءة له ، أخرجه الله من ولايته إلى ولاية الشيطان ".

روي أنه أصاب بني إسرائيل قحط وجفاف ، فإستسقى موسى(ع) عدَّة مرات فلم يستجب له ، فأوحى الله تعالى إليه ، إني لا أستجيب لك ولمن معك وفيكم نمَّام قد أصرّ على النميمة , فقال موسى : يا رب ، من هو حتى نخرجه من بيننا ؟ فقال : يا موسى ، أنهاكم عن النميمة وأكون نمَّاما ؟ ! فتابوا بأجمعهم وسقوا ".

وعلى من يسمع النمام ، إذا أخبر شيئاً ألا يصدقه ، لأنه فاسق مردود الشهادة , قال الله تعالى : (إذا جائكم فاسق بنبأ فتبينوا) [269] ,و روي عن أمير المؤمنين (ع) ,_" أن رجلاً أتاه يسعى برجل , فقال له : يا هذا ، نحن نسأل عمن قلت ، فإذا كنت صادقاً مقتناك ، وإن كنت كاذباً عاقبناك ، وإن شئت أن نقيلك أقلناك ، فقال : أقلني يا أمير المؤمنين ".

الإصلاح [270]

قال رسول الله (ص) : " أفضل الصدقة إصلاح ذات البين " ؛ وقال : " إتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم ، فإن الله يصلح بين المؤمنين يوم القيامة " ؛ وقال : " ليس بكذاب من أصلح بين إثنين فقال خيراً " , وقال : " كل الكذب مكتوب وحرام ، إلا أن يكذب أحدكم في الحرب ، فإن الحرب خدعة ، وأن يكذب بين إثنين ليصلح بينهما " , و المصلح ليس بكاذب إذا تكلم بما لا يطابق الواقع فيما يتوقف عليه الإصلاح ، لأن الإصلاح واجب على الناس.
ترك الكذب واجب ، ولا يسقط الواجب إلا بواجب أكبر وأهم منه .

الشماتة [271]

[266] (ص 390 -391)
[267] (القلم 11-12)
[268] (البقرة 27)
[269] (الحجرات 6)
[270] (ص 394)
[271] (ص 395)

الشماتة بمصائب الغير ، تصدر عن الحسد والحقد . قال الإمام الصادق (ع) : " من شمت بمصيبة نزلت بأخيه لم يخرج من الدنيا حتى يُبتلى ".

إن كل مصيبة يصاب بها مسلم ، يمكن أن تكون كفارةً لذنوبه ، وباعثاً لرفع درجاته ، وإعلاء مرتبته في دار الآخرة ، والدليل على ذلك ، إن أعظم البلايا والمصائب ، يصاب بها الأنبياء ثم الأولياء ، ثم الأمثل فالأمثل ، ولا ريب أن ورود المصائب والمحن عليهم ، ليس من سوء فعلهم وإسائتهم .

المراء والجدال [272]

المراء هو طعن في كلام الغير لإظهاره بأنه مخطئ ، وغايته تحقير الآخر وإهانته وإظهار تفوقه عليه . أما الجدال ، فإذا كان يتعلق بالمسائل الإعتقادية الحقة ، وكان الغرض منه الإرشاد والهداية ، فهو ليس مذموماً ؛ قال الله تعالى : (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن)[273] ؛ ولكن الجدال إذا لم يكن بالحق , بل هو بسبب العصبية وحب الغلبة ، فهو مذموم وقد نهى الله عنه , قال الله تعالى : (من الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير)[274], وقال عز وجل : (إذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره)[275].

الجدال والمراء يسبب التباغض ويزيل الألفة والمحبة ، وعلاجه يكون بإستبداله بالكلام الطيب اللَّين الذي يغسل الضغائن والمثابرة على ذلك حتى تصبح عادة وملكة .
قال رسول الله (ص) : " ثلاث من لقى الله بهنَّ دخل الجنة : حُسن الخلق ، وخشية الله وترك الجدال والمراء ولو محقاً ".

السخرية والإستهزاء

السخرية والإستهزاء بالغير ، هي صفة لمن ليس له دين ، وشيمة أحزاب الشياطين ، والباعث والسبب هو العداء والتكبر ، لأن من تكن عندهم هذه الصفة ، يظهرون أكاذيب الأقوال ويهتكون أستار الحياء ، ويبتغون عيوب المؤمنين ، ويظهرون نقائصهم وعثراتهم ، والمرتكب لهذه الأعمال ، بعيد عن الإنسانية ، ويستوجب العقوبة العاجلة ، ويصبح مهاناً وذليلاً ، ليس له مكان في قلوب المؤمنين . والطريق إلى إزالة هذه الرذيلة ، هو التأمل بسوء العاقبة في الدنيا والآخرة , وعليه أن يبادر إلى إزالة العداوة والتكبر من نفسه ؛ قال الله عزوجل: (لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم)[276] ؛ وقد جاء عن إبن عباس في تفسير الآية قول الله تعالى : (يا ويلتنا ما لهذا

[272] (ص 396)
[273] (العنكبوت 46)
[274] (الحج 8)
[275] (الأنعام 68)
[276] (الحجرات 11)

الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا وأحصاها) [277]؛ إن الصغيرة هي الإستهزاء بالمؤمن .
ومن الناس من يجعل نفسه هدفاً لإستهزاء الآخرين ، و يكون قد أهان نفسه وأذلها ، والله لا يرضى للمؤمن أن يذل نفسه .

المزاح [278]

الإفراط في المزاح ، مذموم مَنهيٌّ عنه ، وسببه خِفَّة في النفس ، وهو يُسقط المهابة والوقار ، وقد يؤدي إلى التباغض والضغينة ، ويجر إلى الهزل والإستهزاء بالغير ، ويدخل نفسه في جملة المستهزئ بهم والإفراط في المزاح والضحك ، هو علامة الغفلة عن الآخرة ، ومن كثر ضحكه قلَّت هيبته ؛ أما القليل من المزاح ، فهو يضيف الأنس والألفة .

روي عن رسول الله (ص) أنه قال : " إني لأمزح ولا أقول إلا حقا " ؛ قال يوماً لإمرأة عجوز : " لا تدخل الجنة عجوز " , فبكت العجوز ، فقال : " لست يومئذ عجوز " , وجاءت إمرأة إليه ، وقالت : إن زوجي يدعوك ، فقال : زوجك الذي بعينه بياض ؟ قالت : والله ما بعينه بياض ؟ فقال : بلى إن بعينه بياض ، فقالت : لا والله ؟ فقال : " ما من أحد إلا وفي عينه بياض " .

وكان نُعيمان الأنصاري ، رجلاً مزّاحاً ، فإذا دخل المدينة شيئ نفيس من اللباس والطعام إشترى منه وجاء به إلى رسول الله(ص) وقال : " يا رسول الله ، هذا أهديته لك " ، فإذا جاء صاحبه يطالبه بثمنه ، جاء به إلى رسول الله (ص) وقال : " يا رسول الله أعطه ثمن متاعه " , فيقول النبي (ص) : " أو لم تهده لنا ؟ " فيقول : " لم يكن عندي والله ثمنه ، وأحببت أن تأكل منه " ، فيبتسم رسول الله ويأمر لصاحبه بثمنه .

الغيبة [279]

الغيبة هي ذكر الغير بما يكرهه لو بلغه ، سواء كان ذلك بنقص في بدنه أو في أخلاقه أو في أقواله أو في أفعاله المتعلقة بدينه ودنياه ، بل وإن كان في ملبسه أو داره .
روي عن رسول الله (ص) أنه قال : " هل تدري ما الغيبة ؟ قالوا الله ورسوله أعلم ، قال : ذكرك أخاك بما يكره ", وقال (ص) : " إن كان فيه ما تقول فقد إغتبته ، وإن لم يكن فيه فقد بهته ".

وما روي عن عائشة قالت : " دخلت علينا إمرأة ، فلما ولَّت ، أومأت بيدي إنها قصيرة , فقال (ص) : " لقد إغتبتها ". وقال الإمام الصادق (ع) : " الغيبة أن تقول في أخيك ما ستره الله عليه , والمستمع للغيبة ، هو أحد المغتابين ، وعليه أن ينكر بلسانه أو يقطع الكلام بكلام آخر ، أو أن يقوم من المجلس ، وإن لم يقدر على شيئ من ذلك ، أن ينكر بقلبه .

---

[277] (الكهف 49)
[278] (ص400)
[279] (ص402)

بواعث الغيبة

هي الحسد والحقد والتكبر ، ويظن من عنده هذه الصفة ، أنه يرفع نفسه بتنقيص غيره , والغيبة هي من أعظم المهلكات وأشد المعاصي . قال الله تعالى : (ولا تجسّسوا ، ولا يغتب بعضكم بعضاً ، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه)[280] , و قال الله عز وجل : (وما يلفظ من قول وقال الله عزوجل : (وما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد)[281] .

خطب مرَّة رسول الله (ص) , وقال: " يا معشر من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه ! لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فإن من تتبع عورة أخيه ، يفضحه الله وهو في جوف بيته ".
وقال (ص) : " من إغتاب مسلم أو مسلمة , لم يقبل الله صلاته ولا صيامه أربعين يوماً وليلة إلا أن يغفر له صاحبه " . والأخبار في ذم الغيبة لا يمكن حصرها ، والعقل يحكم بأنها أخبث الرذائل , وهناك من أكابر العلماء من يرون أن العبادة ليست في الصوم والصلاة ، بل بالكف عن أعراض الناس . وما أقبح الإنسان أن يغفل عن عيوب نفسه ويُظهر عيوب الآخرين ، وعلى من يؤمن حقاً ، أن يصلح عيوبه ، وإذا إشتغل في إصلاح عيوبه ، ولا يجد فرصةً للإشتغال بعيوب الآخرين .

قال رسول الله (ص) : " طوبى لمن شَغله عيبه عن عيوب الآخرين ". فإذا كان البعض يعجز عن إصلاح عيوبه ، فلما يلوم البعض إذا كانوا عاجزين عن إزالة عيوبهم , وإذا كنا نحن أبرياء من العيوب ، فلنشكر الله ، ولا نلوث أنفسنا بأعظم العيوب وهي الغيبة , ولو ظننَّا خلوَّنا من العيوب ، لكنا أجهل الناس ، ولا عيب أعظم من الجهل ؛ فعلى العاقل أن يتأمل ، أن من يغتابه إن كان صديقاً أو عدواً ، فإظهار عيوبه بعيد عن المروؤة والإنصاف , ومعالجة الحسد ، هي معرفة عواقب الغيبة ، من مقت الخالق ومقت المخلوق ، ومنهم من يجد الأعذار لنفسه ، بأن فلاناً من الناس أو من بعض العلماء ، قد إضطر أن يجاريهم ، فهذا جهل وسفه ، فمن خالف الله لا يُقتدى به كائناً من كان ، فلو أن أحداً دخل النار ، وهو قادر أن لا يدخل فهل يقتدى به . ومن قال لكم أن هؤلاء علماء ، ولو تشبهوا بزي العلماء ، ولما لم تقتدوا بعلماء الآخرة من أولي الألباب الزاهدين في الدنيا وحطامها ؟ وتنكروا وجودهم ، وتقدحون في الكل مع كثرتهم في الأرض ، ولكن هذا هو اللجاج والعناد , وإذا سلَّمنا جدلاً ، أنه لا يوجد علماء أتقياء ، فلما لا تقتدوا بالأنبياء والأوصياء ، مع أنهم أعلم الناس بإتفاق الجميع ، ولماذا أنكرتم عصمتهم وأعلميتهم ، وإحتملتم أن يكونوا أمثالكم ، عند ذلك يكون قد ظهر الكفر الخفي .

مسوغات الغيبة

هناك بعض الإستثناءات في الغيبة مثلاً :

---

[280] (الحجرات12)
[281] (ق 18)

- في حالة الظلم ، إذا كان أحد الأشخاص قد وقع عليه ظلمٌ من أحد أصحاب النفوذ ، فعليه أن يفضحهم ويطالب بحقه , قال النبي (ص) : " لصاحب الحق مقال ". -
في حالة البخل الشديد : (أتت هند إلى رسول الله (ص) : وقالت بحضرته : إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني ما يكفيني ، أفآخذ بغير علمه ؟

فقال لها الرسول : خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف) .

- في حالة رفع المنكر من المعاصي .

- قول الصدق في حالة الإستشارة للزواج .

- كشف أهداف الفاسق المبتدع خوفاً من الضرر , قال رسول الله (ص) : " أترعون عن ذكر الفاجر حتى لا يعرفه الناس ؟ إذكروه بما فيه ليحذره الناس" .

- تحذير المسلمين وتوقيهم الشر والضرر من الأعداء .

- في البيع والشراء ، حفظاً للمشتري .

- القدح في مقالة أو دعوى باطلة في الدين .

- غيبة المتظاهر بالفسق والظلم والزنا وشرب الخمر ، لأن من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له . ولكن هناك بعض الحالات التي لا بد أن تذكر ، مثل قول الرسول (ص) : " ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا من دون تسمية الفاعل " .

كفارة الغيبة

الإعتذار والتودد إلى من إستغابه ، والتوبة والندم ، والإستغفار له إن كان ميتاً أو غائباً ولا يمكن الوصول إليه , قال الرسول (ص) : " كفارة من إستغبته أن تستغفر له ".

البهتان [282]

البهتان هو أن تقول في مسلم ما يكرهه ولم يكن فيه ، فهو كذب وغيبة ، وإذا كان بحضوره فهو من أشد أنواع الكذب , قال الله تعالى : (من يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرم به بريئاً فقد إحتمل بهتاناً وإثماً مبينا) [283].

المدح [284]

---

[282] (ص414)
[283] (النساء 112)

المدح هو ضد الغيبة ، ومنه ما يحمد عليه ، ومنه ما يذم عليه . ولا ريب أن مدح المؤمن في غيبته وفي حضوره ممدوح لكونه يدخل السرور على قلبه , ولكن أن يكون المدح بصدق ، وبلا إفراط بحيث ينتهي إلى الكذب ، وإلا يصبح المادح مُرائياً منافقاً . ويجب أن لا يُمدح الفاسق والظالم , قال الرسول (ص) : " إن الله ليغضب إذا مدح الفاسق ".

وأما المدح بدون تحقق الصفات الحميدة ، فهو مكروه ، لأنه قد يحدث إعجاباً وكبراً يوجبان هلاكه ، فيرضى عن نفسه ويفتر عن العمل بالسعي إلى التكامل . ولذلك قال الرسول (ص) لرجل مدح رجلاً آخر بحضوره : " ويحك ! قطعت عنق صاحبك لو سمعها ما أفلح ".
قال أمير المؤمنين (ع) , لماَّ أُثُني عليه : " اللهم أغفر لي ما يعلمون ، ولا تؤاخذوني بما يقولون وإجعلني خيراً مما يظنون ". وإذا كان المدح لشخص ليس فيه الصفات التي يمدح فيها ، فهو إستهزاء وليس بمدح . فعلى العاقل أن لا يحزن بذم ، ولا يفرح بمدح ، لأنه إذا كان يملك ياقوتة ، أي ضرر عليه أن يقال أنها خرزة ، وإذا كان يملك خرزة ، فلا فائدة له إذا قيل أنها ياقوتة .

الكذب [285]

الكذب هو أفحش الذنوب وأقبحها ، وأخبث العيوب وأبشعها . قال الله تعالى : (إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون) [286], وقال سبحانه : (فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون) [287]؛ والكذب هو القول أو الأخبار خلاف ما هي الأمور ، وهو من رذائل الصفات . ومن أسبابه مخالطة أهل الكذب ، وضعف الإيمان بالله ، وإتباع هوى النفس ، وضعف في العزيمة وهو من رذائل قوة الشهوة .

قال رسول الله (ص) : " إياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور ، والفجور يهدي إلى النار "؛ وقال الإمام الصادق(ع): " إن أول من يعلم بكذب الكذّاب هو الله ثم الملكان اللذان معه , ثم هو نفسه يعلم أنه كاذب ".

متى يجوز الكذب

- يجوز الكذب في الحرب , و في إصلاح ذات البين , و يجوز في دفع ضرر أو شر أو فساد , ومن أنواع الكذب : شهادة الزور ، واليمين الكاذبة , وخلف الوعد .

قال رسول الله (ص) : " أربع من كنَّ فيه كان منافقاً " : إذا حدَّث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا خاصم فجر وإذا " . ومن علاج الكذب أن يعلم الكاذب أنه لا بد سينفضح ، ومن أسباب إفتضاحه ، أن الله يسلَّط عليه النسيان فيقول شيئاً ثم ينسى ما قاله ، فيقول خلافه , وإنه ساقط من أعين الناس ، لا يعتني به أحد ، وإذا تأمل ما ورد من آيات وأخبار عن الرسول (ص) ,

---

[284] (ص 414)
[285] (ص416)
[286] (النحل 105)
[287] (التوبة 77)

والأئمة (ع) , بأن من لا يتوب ويترك الكذب ، سيدركه الهلاك الأبدي , وعليه أيضاً أن لا يجالس أهل الكذب ، ويجالس أهل الصدق والصلحاء .

الصدق [288]

الصدق هو أشرف الصفات ، وهو رئيس الفضائل النفسية ، ما ورد في مدحه وعظم فائدته ، من الآيات والأخبار ، لا يمكن إحصاؤه ؛ قال الله تعالى : (إتقوا الله وكونوا مع الصادقين)[289] , وقال عزوجل : (رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه)[290] , وقال : (الصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا)[291] , وقال الرسول (ص) : " إن الرجل ليصدق حتى يكتبه الله صدّيقاً " , وقال الإمام الصادق(ع) : " لا تنظروا إلى طول ركوع الرجل وسجوده ، فإن ذلك شيئ إعتاده ، لو تركه لإستوحش لذلك ، ولكن إنظروا إلى صدق حديثه وإداء أمانته " , وقال (ع) : " إن الله لم يبعث نبيّاً إلا بصدق الحديث وأداء الأمانة إلى البرّ والفاجر ".

وقد أثنى الله على إسماعيل (ع) , فقال : (إنه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبيا)[292].

أقسام الصدق

الصدق في القول , و الإخبار , و الصدق في الوفاء , وفي الأعمال , و في النيَّة والإرادة , و الصدق في العزم ، فهو لا يتردد بما عزم عليه ؛ الصدق هو تطابق الباطن والظاهر ، وإستواء السريرة والعلانية ، وموافقة القول والفعل , قال أمير المؤمنين (ع) : " إني والله ما أحثكم على طاعة ، إلا وأسبقكم إليها ، ولا أنهاكم عن معصية ، إلا وأتناهى عنها قبلكم " .

والصدق في مقامات الدين ، من الصبر ، والشكر ، والتوكل ، والحب ، والخوف ، والرجاء ، والزهد ، والرضا ، والتسليم ؛ هذه أعلى درجات الصدق ، فمن إتصف بهذه الصفات والمقامات ، فهو الصدّيق الحق , أما من ظنَّ أنه يملك هذه الصفات بدون تحققها فهو كاذب , لأن من يدّعي الخوف من الله حقاً ، فلماذا يعصيه ؟ إن معرفة الله وتعظيمه والخوف والخشية منه ، كل واحد منا له حظٌ معين ومرتبة .

فالرسول (ص) عندما رأى جبرائيل على صورته الأصلية ، خرَّ مغشيّاً عليه ، وقال له بعد عودته إلى صورته الأولى : ما ظننت أن أحداً من خلق الله هكذا ! إن حال النبيين والرسل ، تعيد

---

288 (ص 424)
289 (التوبة 120)
290 (الأحزاب 23)
291 (البقرة 177)
292 (مريم 54)

حالتهم هكذا من شدة الخشية والتعظيم ، بسبب قوة معرفتهم ، بعظمة الله وجلاله ، وفوق ما يدركوه مراتب غير متناهية . إن إختلاف الناس في مراتب الخوف والتعظيم والأنس والحب ، إنما هو بحسب إختلافهم في معرفة الله . إن أدنى حدٌّ للصدق ، ألا يخالف اللسان القلب ، ولا القلب اللسان .

اللسان أضرّ الجوارح [293]

اللسان هو أضرّ الجوارح بالإنسان ، وأعظمها إهلاكاً له ، فالكذب ، والبهتان ، والغيبة ، والشماتة ، والسخرية ، هي من آفات اللسان . الأخلاق ترسخ بالنفس بتكرير الأعمال ، والأخلاق تصدر من القلب ، عن طريق الجوارح , وكل جارحة ، تصلح لأن تكون وسيلة خير ، أو وسيلة شر. وعُمدة ما يصدر من الذمائم الظاهرة المؤدية إلى الرذائل الباطنة هو اللسان , فلا بد من مراقبة ومراعاة القلب والجوارح ، بصرفهما إلى الخيرات ، ومنعهما من الشرور, فمراقبة اللسان ضرورية ولازمة . ومن نعم الله ولطائف صنعه ، أن يكون هذا العضو الصغير ، عظيم الشأن ، فلا يتبين الإيمان والكفر ، إلا بشهادته ، وكل ما يتناوله العلم يُعبَّر عنه اللسان إما بحق أو باطل ؛ فمن أطلق لسانه ، بدون رقيب وأرخى العنان له ، سلك به الشيطان إلى كل ميدان ، وأوقعه في الضلالة والخذلان ، وساقه إلى الهلاك , ولذلك قال رسول الله (ص) : " وهل يكبّ الناس على مناخرهم في النار إلا حصاد ألسنتهم " ؛ فينبغي أن يقيدَّ اللسان بلجام الشرع ، ولا يُطلق إلا فيما ينفع في الدنيا والآخرة .

واللسان أعصى الأعضاء على الإنسان ، إذ لا تعب في تحريكه ، ولا مؤنة في إطلاقه ، فلا يجب التساهل عن مصائده وحبائله , والآيات الكريمة تدل على ذلك , قال الله تعالي: (ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد)[294], وقال تعالي : (لا خير في نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس) [295] , وقال الرسول (ص) : " لا يستقيم إيمان عبد ، حتى يستقيم قلبه ، ولا يستقيم قلبه ، حتى يستقيم لسانه " , وقال (ص) : " من لم يحسب كلامه من عمله ، كثرت خطاياه وحضر عذابه " . فبالكلمة يُسفك الدم الحرام ، وينتهب المال الحرام ؛ وقال أميرالمؤمنين(ع) : " المرء مخبوء وراء لسانه ، وعليه أن يحاسب الخلق يوم القيامة " .

الصمت [296]

الصمت فضيلة عظيمة ، وفوائده جسيمة ، فيه السلامة ، ودوام الوقار ، والفكر والذكر ، والسلامة من تبعات القول ، لذلك مدحه الشرع وحثَّ عليه .

---

[293] (ص 427)
[294] (ق18)
[295] (النساء 114)
[296] (ص 430)

قال الرسول (ص) : " من صمت نجا " , وقال : " ألا أخبركم بأيسر العبادة وأهونها على البدن ، الصمت وحسن الخلق ", وقال(ص) : " رحم الله من عبد تكّلم خيراً فغنم ، أو سكت عن سوء فسلم ", وقال (ص) : " إذا رأيتم المؤمن صموتاً وقوراً فادنوا منه فإنه يُلقَّن الحكمة " , وقال أمير المؤمنين (ع) : " إن لسان المؤمن وراء قلبه ، فإذا أراد أن يتكلم بشيء تدبره بقلبه ، ثم أمضاه بلسانه ، وإن المنافق أمام قلبه ، فإذا همَّ بشيئ أمضاه بلسانه ولم يتدبره بقلبه ".

وقيل لعيسى بن مريم (ع) : دلَّنا على عمل ندخل به الجنَّة ، قال : لا تنطقوا أبداً ، قالوا : لا نستطيع ، قال : فلا تنطقوا إلا بخير؛ وقال أيضاً : " العبادة عشرة أجزاء ، تسعة منها الصمت وجزء في الفرار من الناس " , وقال لقمان الحكيم : " إذا كان الكلام من فضّة فالسكوت من ذهب ".

كان أبو ذر يقول : " يا مبتغي العلم ، إن هذا اللسان مفتاح خير ، ومفتاح شر ، فإختم على لسانك كما تختم على ذهبك وورقك " ؛ وقال الإمام الصادق (ع) : " لا يزال العبد المؤمن محسناً ما دام ساكتاً ، فإذا تكلم كتب محسناً أو مسيئاً ". كان الرجل من بني إسرائيل إذا أراد أن يكون عابداً ، صمت قبل ذلك بعشر سنين ؛ الصمت من شعار الأنبياء وأخلاق الأصفياء .

حب الجاه والشهرة [297]

إن مُحب الجاه والمال ، لطلب الشهرة والسمعة ، بدون أهداف لمنفعة الخلق ورضا الخالق ، قد لا تسلم دنياه ولا دينه ؛ قال الله تعالى : (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوّاً في الأرض ولا فساداً) , وقال عزوجل : (من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوفَّ إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يُبخسون أولئك اللذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون) [298] , وقال رسول الله (ص) : " حب المال والجاه ينبتان النفاق في القلب " ,

وقال الإمام الصادق(ع) : " فوالله ما خُفقت النعال خلف رجل إلا هَلك وأهلك " .
إن العظماء من العلماء والأتقياء يفرون من هذه المظاهر الزائفة ويخافون منها على أنفسهم .

من غلب عليه حب الجاه ، صار همُّه مراعاة الناس ، والتودد إليهم ، حتى تعظم منزلته عندهم ، وهذا هو بذر النفاق ، وأصل الفساد , ومن كان هذا كل همه ، يصبح متساهلاً في العبادات والواجبات الدينية ، ولذلك شبَّه رسول الله (ص) حب المال والجاه بذئبين ضاريين . ولكن عدم الإفراط في حب المال والجاه ، وسلامة النيَّة والهدف , الذي هو الإكتفاء بالضرورة ، ومساعدة الآخرين ، فهو مفيد ومطلوب كقول يوسف (ع) :(إجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم) [299].

---

[297] (ص 432)
[298] (هود 15-16)
[299] (يوسف 55)

الكمال الحقيقي في العلم والقدرة لا بالمال والجاه [300]

إن الكثير من الناس ، يعتبرون العلم والقدرة ، هي بالمال والجاه ، ولكن هذا الإعتقاد ، هو إشتباه ووهم بأنه كمال ؛ فالكمال الحقيقي ، هو الذي يوجب القرب من الله ، وهو العلم والمعرفة والحرية .

قال الله تعالى :(المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا)[301],

فالفضائل من علم ومعرفة وحرية هي الباقيات الصالحات ، والمال والجاه وزينة الحياة الدنيا ، لا تبقى بعد الموت ؛ قال تعالى : (إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فإختلط به نبات الأرض...)[302] ؛ فالمال والجاه تذروه رياح الموت ، وما يبقى من كمالات النفس هو الذي لا يفنى ولا يموت . إن العلم بالله وصفاته وأفعاله وحكمته ، في ملكوت السماوات والأرض وترتيب الدنيا والآخرة ، وما يتعلق بهما وما يجب عمله لسلوك الطريق المستقيم التي توصل إلى الله ، بثبات وإستقامة ، وطمأنينة وسعادة روحية ، فهو الثابت والأزلي الذي لا يتغير ؛ والمعرفة هي الكمال الحقيقي الذي يبدأ بالحياة ويبقى بعد الموت ، وهو معرفة النظام الكلّي ، والمعارف المحيطة بالموجودات وحقائق الأشياء ، لأن كل موجود هو من فعل الله ، وهو مرتبط بالقدرة الإلهية ، والإرادة والحكمة ، فهي نور للعارفين يسعى بين أيديهم , (يقولون ربنا أتمم لنا نورنا)[303], فمن لم يكن معه هذا النور ، فهو في ظلمات بحر لجيّ يغشاه موج من فوقه موج ، ظلمات بعضها فوق بعض ؛ وأول طريق المعرفة ، هو تزكية النفس ، التي تجعلها مستعدّة لقبول الهداية , كما قال الله تعالى : (قد أفلح من زكاها)[304], وقال عزوجل : (اللذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا)[305] ؛ فالعلم هو الوسيلة لمعرفة الله ، وإلى تحصيل الحرية ، والمعرفة هي الكمال الحقيقي للإنسان.

وكمال العلم لا يتحقق إلا بأمور ثلاثة :

- أولاً : الإحاطة بكل المعلومات ، وهذا لا يتحقق في علم البشر (وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً) , فالعلم بكل المعلومات هو علم الله تعالى ، وكلما كانت معلومات العبد أكثر كان علمه أقرب إلى علم الله تعالى .

- الثاني : المعلومات التي تنكشف للإنسان ، ليست واضحة بشكل تام ، ولكن لها بعض المراتب والدرجات .

---

300 (ص 438)
301 (الكهف 46)
302 (يونس 24)
303 (التحريم 8)
304 (الشمس 9)
305 (العنكبوت 69)

- ثالثاً : العلم الباقي والتام والأزلي والذي لا يتغير هو علم الله ، بينما علوم الإنسان تتغير وتتبدل وتزول ، وكلما حصل الإنسان على علوم ربانية ، كان أقرب إلى علم الله تعالى .

ومن كمالات الإنسان ، التحلّي بفضائل الأخلاق والصفات ، لأنها تؤدي إلى صفاء النفس والبهجة الدائمة والحرية ، والخلاص من الشهوات والهموم الدنيوية ؛ فكلما كان الإنسان ثابتاً في علمه وصفاته وأخلاقه كان قريباً من الصفات الإلهية , والقدرة التي يتخيلها معظم الناس بالمال والجاه والقوة الجسدية ، هذه القوى هي آلة للوصول إلى كمال العلم ، يحتاجها الإنسان ولكن بقدر معلوم ، فإن لم تستعمل هذه القوى للوصول إلى معرفة الله فلا خير فيها ، لأنها ستنقضي عن قرب ، ولا طريق للعبد للوصول إلى كمال القدرة ، إلا عن طريق معرفة الله ، والإتصاف بصفاته .

ومثل هذه القدرة ، تبقى للنفوس بعد الموت ، ولذا نرى أن الإستغاثة ببعض النفوس الكاملة بعد الموت لها تأثيرات وعجائب ، وهذا يدل على القدرة الكاملة ، التي تمتعوا بها في حياتهم وبعد مماتهم , وهي مستمدة كمالها من قدرة الله تعالى ؛ ولذا تبين ، أن القدرة الحقيقية ، هي الكمال الحقيقي للإنسان من علم وفضائل أخلاقية .

علاج حب المال والجاه [306]

معالجة حب المال والجاه ، تكون بمعرفة الأسباب ، فالذي يحصل على الجاه والمال ، هو في حالة إضطراب دائم ، لأن كل صاحب مال ، هو محسود ومقصود ، وهو خائف على الدوام من تغيرُّ أحواله ، ومن حرصه على دوام محبة الناس له ، ولأن القلوب شديدة التغيّر ، وهي مترددة بين الإقبال والإعراض ، فكأنه يبني على أمواج البحر فلا ثبات له . والإشتغال بمراعاة القلوب وحفظ الجاه ، ودفع كيد الحساد ومنع أذى الأعداء ، ينتج عن ذلك غموم وهموم مكدَّرة للذَّة بهذا المال والجاه , وأما من كان له بصيرة وإيمان قوي ، فلا يلتفت لهذه الدنيا وتقلباتها . إن من إستغنى عن الجاه والمال ، ولم يشتغل قلبه بالناس وبمشاكلها ، فرَّغ قلبه للمعرفة والعلم .

حب المدح [307]

الشعور بكمال النفس أمر محبوب لدى البشر ، والمدح يشعر الشخص بهذا الكمال ، لأن الإنسان قد يكون شاكّاً في أي صفة يحصل عليها من صفات الكمال . إذا كان المدح صادقاً فعلى الممدوح أن يشكر الله ويتذكر فضل الله عليه ، الذي أعطاه هذه الصفات ، ولكن إذا كان المدح كاذباً ، فهو يسيئ إليه ، لأن الثناء قد يشعر الإنسان بالعُجب والبعد عن التواضع .

---

[306] (ص 441)

[307] (ص 443)

وقد قال رسول الله (ص) : " إنما هلك الناس بإتباع الهوى وحب الثناء " , وقال أيضاً : " رأس التواضع أن تكره أن تُذكر بالبر والتقوى " , والمدح من أجل المال والجاه ، فهو دليل قلة العقل ، لأنه من الكمالات الوهمية أما المدح بالعلم والورع ، فالعالم والورع لا يهتم بهذه الأمور .

الرياء [308]

الرياء هو طلب المنزلة في قلوب الناس ، وهو من المعاصي المهلكة ، وقد تعاضدت الآيات والأخبار على ذمَّه .

قال الله تعالى : (فويل للمصلّين الذين هم عن صلاتهم ساهون ، والذين هم يراؤن ويمنعون الماعون)[309] , و قال سبحانه : (يراؤون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً)[310] , وقال : (الذي ينفق ماله رئاء الناس)[311] , وقال رسول الله(ص) : " إني أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر ، قالوا : وما الشرك الأصغر ؟ قال : الرياء ". وقال أمير المؤمنين (ع): " إعملوا بغير رياء ولا سمعة ، فإنه من عمل لغير الله وكلَّه الله إلى عمله يوم القيامة " ؛ وقال الإمام الصادق(ع) : " كل رياء شرك ، من عمل للناس كان ثوابه على الناس ، ومن عمل لله كان ثوابه على الله ".

الرياء في العبادات ، يبطل أصل العبادة ، لأن الأعمال بالنيات , فحال من يرائي في العبادة أسوء من حال من ترك العبادة أصلاً ؛ أما الرياء بغير العبادات ، فالقليل منه قد لا يكون رياءً , وعلى المؤمن ، أن لا يفعل شيئاً يعاب عليه ، كالإهمال في ملبسه ونظافته وغير ذلك من الأمور ؛ روي عن رسول الله (ص) أنه إذا أراد أن يخرج على أصحابه فكان يسوّي عمامته وشعره ، فقيل له : أو تفعل ذلك يا رسول الله ؟ فقال نعم ، إن الله تعالى يحب للعبد أن يتزين لإخوانه إذا خرج عليهم " .
وقال أمير المؤمنين (ع) : " على المؤمن أن يتزين لأخيه المؤمن ، كما يتزين للغريب الذي يجب أن يراه في أحسن هيئة ".

إن كل عمل لم يكن خالصاً لله وأريد به غيره سبحانه ، ينبغي أن يترك ويُعرض عنه ، وإذا كان العمل لله ، فلا يجب أن يترك لبعض الوساوس الشيطانية , قال عيسى (ع) , لعلماء بني إسرائيل : " يا علماء السوء تصومون وتصلون وتتصدقون ، ولا تفعلون ما تؤمرون ، تتوبون بالقول وتعملون بالهوى ، ما يغني عنكم أن تنظفوا أجسادكم ، وقلوبكم بخسة ، يا عبيد الدنيا ! بحق أقول لكم لقد أفسدتم آخرتكم بدنياكم ويلكم ، لا يغني عنكم أن يكون نور العلم بأفواهكم ، وأجوافكم منه موحشة ومعطلّة ، وتوشك الدنيا أن تسلمكم إلى الملك الدّيان ، حفاة عراة فرادى ، تأخذ خطاياكم بنواصيكم وتُخزوا بسوء أعمالكم !! .

---

308 (ص447)
309 (الماعون 4-7)
310 (النساء 142)
311 (البقرة 264)

إن كل عمل يدخله الرياء ، فهو فاسد ، إن كان سرّاً أو علناً , فعلى كل إنسان أن يراقب قلبه ، لئلا يكون فيه رياء خفيّ ، وأن لا يخدع نفسه فيضلّ ويهلك .

علاج الرياء [312]

المؤمن يرغب في الأشياء ، لكونها نافعة ، ولكن عندما يعلم أنها ضارَّة له ، فيجب أن يُعرِض عنها , فضرر الرياء ، هو أنه يحرم الإنسان من التوفيق في الدنيا والآخرة ؛ والمرائي يكون في الدنيا ، مشتت القلب ، منشغل البال ، همُّه كسب قلوب الناس ، وعليه أن يعلم أن قلوب الناس مسخَّرة بإذن الله ، ولو علم الناس أن نيَّة الشخص غير صادقة لمقتوه ، ولكنه لو أخلص لله لسخَّر القلوب لمحبته ، مع العلم أن المخلص حقاً لله لا يهتم بمدح الناس ولا بذمهم .

من تنوَّر قلبه بنور الإيمان ، وعرف معنى الواجب ، وحقيقة الممكن ، وعرف أن لا حقيقة أتم كمالاً من القرب إلى الله تعالى ، وأنه ليس في الوجود حقيقة غير الله جلَّ وعلا ، وعرف أن العباد كلهم عاجزين ، لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ، ولا يملكون موتاً ولا حياةً ، فلا يتغير قلبه بمشاهدة الخلق ، ولا يلتفت إليهم ، إلا بخطوات ضعيفة يزيلها من نفسه بسهولة ؛ على الإنسان أن يعتمد على الله وحده ، وعليه أن يجاهد نفسه من أجل ذلك ، ويطلب من الله الهداية ,(إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)[313].

وعندما يقتلع المؤمن الرياء من قلبه ، ويحتقر مدح الناس وذمهم ، ويقطع أمله منهم ، يكون قد وصل إلى مرتبة الإخلاص لله وحده . وقد يظن البعض ، أن الوصول إلى الإخلاص الحقيقي ، هو أمر سهل ، ويظن أن أعماله كلها خالصة لله ، ولكن بقليل من التأمل يستطيع أن يكتشف خطؤه . روي عن أحد العلماء ، أنه قال : " صليت ثلاثين سنة في المسجد صلاة الجماعة في الصف الأول ، ولكن أحد الأيام تأخرت لعذر ، وصليت في الصف الثاني ، فأصابني شعور بالخجل ، وكنت كل هذه المدة الطويلة مسرور لأني في المقدمة ، وأنا لا أدري بنفسي ، وكان هذا الشعور غامض بالنسبة لي ، ولكن بعد ذلك إنتبهت إلى غفلتي عن مشاعري الحقيقية " . وكثير من الناس ، من يظن أن أعماله كلها لوجه الله ، ولكن هي في الحقيقة ليست كذلك , قال الله تعالى: (قل هل أنبئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضلَّ سعيهم في الحياة الدنيا ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا)[314].

الإخلاص [315]

الإخلاص منزلة من منازل الدين ، ومقام من مقامات المؤمنين ، وقلَّة من الناس من يصل إلى هذه المنزلة ، قال الله تعالى : (وما أُمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين)[316] , وقال : (ألا

[312] (ص 461)
[313] (الرعد 11)
[314] (الكهف 103)
[315] (ص 465)

لله الدين الخالص)[317], وقال : (فمن كان يرجو الله فليعمل عملاً صالحاً ، ولا يشرك بعبادة ربه أحدا)[318].

وقال رسول الله (ص) : " من أخلص لله أربعين صباحاً و يوماً ، ظهرت الحكمة من قلبه على لسانه " , وقال أمير المؤمنين (ع) : " لا تهتموا لقلَّة العمل وإهتموا لقبوله " , وعلامة القبول هي الإستقامة , وأدنى الإخلاص ، بذل العبد طاقته ، والسلامة من كل الآثام , و الإبتعاد عن الشيطان بالإخلاص لله, يقول الله تعالى : (إلا عبادك المخلصين)[319].

النفاق [320]

هو مخالفة السر والعلن ، في الإيمان أو في غير ذلك من أمور الحياة وهو أعم من الرياء ، وهو من المهلكات العظيمة ، وأشد النفاق ، هو من يكون ذا وجهين ولسانين ، يمدح أخاه المسلم في حضوره ويظهر له المحبة ، ويذمّه في غيبته ويؤذيه .

قال رسول الله (ص) : " تجدون شر العباد يوم القيامة ، ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه " , وقال الباقر (ع) : " لبئس العبد ، يكون ذا وجهين ، وذا لسانين ، يطري أخاه شاهداً ، ويأكله غائباً ، إن أُعطي حسده ، وإن إبتلي خذله " . ولكن على المؤمن أن يداري المنافق لإتقاء شرَّه , وقد قال رسول الله(ص) : " إن شر الناس يوم القيامة من أكرمه الناس إتقاء شرَّه " .

الغرور [321]

الغرور هو الإعجاب بالنفس ، على ما يوافق هواها . يشمل الغرور الكفار ، والعصاة ، والمنافقين . إن أكثر الناس يعتقدون ويظنون أن أعمالهم وأفعالهم كلها خير ، مع أنهم مخطئون , وهم مغرورون . إن الإطمئنان للنفس على ما يوافق هواها ، هو صفة مركبة من أمرين :

الأول : الإعتقاد بأن هذا هو خير للنفس مع أنه ليس صحيح .

والثاني : محبة المال والجاه والمنزلة ، ولكن بشكل خفي حتى على النفس ذاتها , فمثلاً , إذا كان المؤمن صاحب مال ولا يريد أن ينفق ما هو واجب عليه ، ولكنه مواظب على العبادة , ظاناً أن عبادته تكفي لنجاته ، وإن كان بخيلاً , أو كرجل الدين الواعظ , الذي يظن أنه مثاب على عمله ، وهو في الحقيقة لا يريد إلا المنزلة والجاه في قلوب الآخرين , وهذا يسمى جهل مركب .

---

316 (البينة 3)
317 (الزمر 3)
318 (الكهف 110)
319 (الحجر 40)
320 (ص 469)
321 (ص 471)

ذم الغرور

الغرور والغفلة منبع كل شقاء ، وقد ورد فيه آيات وأحاديث كثيرة , قال الله تعالى : (فلا تغرّنكم الحياة الدنيا ، ولا يغرنكم بالله الغرور)[322], وقال عزوجل : (لكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وإرتبتم وغرّتكم الأماني حتى جاء أمر الله وغرَّكم بالله الغرور)[323], وقال الإمام الصادق(ع) : " المغرور في الدنيا مسكين ، وفي الآخرة مغبون ، لأنه باع الأفضل بالأدنى ، فلا تعجب بنفسك فربما إغتررت بمالك وصحتك وظننت أنك تبقى ، وربما إغتررت بطول عمرك ، وبأولادك وأصحابك لعلك تنجو بهم ، وربما إغتررت بجمالك أو بعلمك ، أو بنسبك ، وأنت غافل عن مضمرات الغيب , وربما توهمت أنك تدعو الله , و أنت تدعو سواه , وربما حسبت أنك ناصح للخلق ، وأنت تريدهم أن يميلوا إليك وربما ذممت نفسك وأنت تمدحها " .

طوائف المغرورون

الطائفة الأولى : (الكفار), وهم مغرورون بأسْرهم ، فمنهم من غرّته الحياة الدنيا ، ومنهم من غرَّه الشيطان ، ولأنهم يعتقدون أن لذات الحياة الدنيا يقينية ، والآخرة مشكوك فيها ، واليقين خير من الشك ، وهذا القياس يشبه قياس إبليس , حيث قال : (خلقتني من نار وخلقته من طين)[324] ؛ و العلاج يكون : بالسعي للحصول على الإيمان بوجود الله وبالإيمان بالنبي(ص) ، وهو في غاية السهولة ، لوضوح الطرق والأدلَّة ، وهو أن يصدَّق الله تعالى في قوله : (ما عندكم ينفذ وما عند الله باق)[325] , وفي قوله : (الآخرة خير وأبقى)[326] , وقوله : (فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور)[327] ؛ أما الإعتقاد بأن الدنيا حقيقة ، والآخرة مشكوك فيها ، ألا يرى هذا المغرور ، أن القوانين الطبيعية والحاصلة في الدنيا هي كلها , تقول أن الحاضر يقيني والغائب هو مشكوك فيه ، فالطبيب عندما يحذر المريض من تناول بعض الأطعمة التي إذا أكلها زاد مرضه ، فهو في الحاضر يقيني ، والمستقبل غير معروف ومشكوك فيه ، وجميع أعمال الناس في هذه الدنيا هي كذلك ، فالسفر وركوب البحار والمخاطر للحصول فيما بعد على المال وعلى الراحة ، هو أمر يقيني ومشكوك فيه .

وهكذا بالنسبة للدنيا والآخرة ، فصحيح أن للدنيا قدر محسوس ولكنها مشوبة بأنواع المنغصات ، بينما لذات الآخرة صافية هانئة ؛ فالآخرة يقين قطعي غير مشكوك فيه عند أهل البصيرة من أنبياء وحكماء وعلماء عظماء بعد التأمل والمعرفة ؛ فالمريض الذي لا يعرف دواء علته ، إذا إتفق جميع الأطباء أن دواؤه كذا ، فعليه تصديقهم ولا يطالبهم بالبراهين ، بل يثق بقولهم ويعمل به ، وإن كذبهم ولد صغير أو معتوه أو سوداوي المزاج ؛ فلا ريب أن منكري الآخرة المغترين بالحياة الدنيا ، لا يصدقون الأخبار .

---

[322] (لقمان 33)

[323] (الحديد 14)

[324](الاعراف 12)

[325] (النحل 96)

[326] (الأعلى 17)

[327] (لقمان 33)

إن الأنبياء والأولياء عندما أدركوا بالوحي والإلهام ، وكشفت لهم حقائق الأشياء كما هي عليها ، وشاهدوها بالبصيرة ، كما نشاهد نحن بالبصر ، فهم يخبرون عن مشاهدة لا عن سماع وتقليد ؛ فلا نظن أن معرفة النبي (ص) لأمور الآخرة ولأمور الدين مجرد تقليد وسماع لجبرائيل ، كما أن معرفتنا هي تقليد للنبيّ , هيهات ! إن الأنبياء يشاهدون حقائق المَلك والملكوت وينظرون إليها بعين البصيرة واليقين .

أما المغرورون ، يظنون أنهم أوفر حظاً وأسعد حالاً ، حتى إذا كان هناك آخرة على حسب قولهم , يقول الله تعالى عن أحدهم وهو يقول لرفيقه : (ما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدنَّ خيراً منها منقلبا)[328]؛ والسبب في ذلك هو ما ألقى الشيطان في روعهم ، بأنهم يرون نعم الله في الدنيا ، فيقيسون عليها نعم الآخرة ، وأن تأخير العذاب عنهم ، دليل على عدم محاسبتهم في الآخرة , (ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها وبئس المصير)[329] ؛ وهؤلاء الكفار ينظرون إلى المؤمنين الفقراء المحتاجين ، فيقولون لو أحبهم الله ، لأحسن لهم في الدنيا ، ولو لم يحبنا لما أحسن إلينا فيها .

لا ريب أنها خيالات فاسدة ، وقياسات باطلة ، فمن ظنَّ أن النعم الدنيوية دليل الحب والإكرام فقد إغتر بالله ، وظنَّ أنه كريم عند الله , ولكن عند أولي البصائر ، هو دليل الهوان والخذلان ، وأن الله يحمي أحباؤه من الدنيا بحرمانهم بعض ملذاتها ، كما يحمي الطبيب المريض ,
قال الله تعالى : (فأما الإنسان إذا ما إبتلاه ربّه فأكرمه ونعَّمه فيقول ربي أكرمني ، وأما إذا ما إبتلاه فقدَّر عليه رزقه فيقول ربي أهانني)[330] , وعلاج هذا الغرور ، هو أن يعرف المؤمن أن إقبال الدنيا ليس دليل إكرام ، ولا إدبارها دليل هوان , قال الله تعالى : (أتحسبون إنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون)[331] , وقال سبحانه : (سنستدرجهم من حيث لا يعلمون)[332] وقال تعالى : (فلما نسوا ما ذكرّوا به فتحنا عليهم أبواب كل شيئ حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون)[333] , وقال تعالى : (إنما نملي لهم خيراً لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثما)[334] . إن منشأ هذا الغرور هو الجهل بالله وبصفاته ، إن من عرف الله لا يغتر بأمثال هذه الخيالات الفاسدة , وينظر إلى قارون وفرعون وغيرهما من الملوك والجبابرة كيف أحسن إليهم الله إبتداءً ثم دمَّرهم تدميراً , يقول الله تعالى : (فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون)[335] ,
وقال : (ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين)[336] .

---

[328] (الكهف 36)
[329] (المجادلة 8)
[330] (الفجر 15-16)
[331] (المؤمنون 56)
[332] (الأعراف 181)
[333] (الأنعام 44)
[334] (ال عمران 178)
[335] (الأعراف 99)
[336] (آل عمران 54)

الطائفة الثانية: (العصاة والمنافقين) , بواعث الغرور عند هؤلاء بعضها كالكفار ، و لكن هؤلاء يظنون أن الله كريم ورحمته واسعة ونعمته شاملة ، وأن لا قيمة لمعاصيهم مقابل رحمة الله ، ويقولون إنا موحدون ومؤمنون ، فكيف يعذبنا مع التوحيد والإيمان ، قال رسول الله (ص) :
" الكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والأحمق من إتبع نفسه وهواها وتمنى على الله " .
فالرجاء لا ينفك عن العمل ، إذ من رجا شيئاً طلبه ومن خاف من شيئ هرب منه ؛ فالذي يرجو من الله أن يرزقه ولد فعليه أن يتزوج ، فمن كان يرجو الله أن يرحمه فعليه أن يؤمن وأن يترك المعاصي ويعمل صالحاً ، وإلا فهو مغرور جاهل ؛ قال الله تعالى : (إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم) [337] ؛ يعني أن الرجاء يليق بهؤلاء المجاهدين ، لأن ثواب الآخرة ، أجر وجزاء على الأعمال .

و قال تعالى : (جزاء بما كانوا يعملون)[338] , وقال : (إنما توفّون أجوركم يوم القيامة)[339] , وقال عزوجل : (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يُرى)[340] , وقال: (كل نفس بما كسبت رهينة)[341] .

الطائفة الثالثة: (أهل العلم) . ومن المغرورين ، بعض أهل العلم ، فهم إقتصروا على العلوم التي حصلوا عليها ، ولكن ليس لهم في العقائد قدم راسخ أو مذهب واحد ، بل يختاروا تارةً هذا وتارةً ذاك , وتكون عقيدته كخيط في الهواء تأخذه الريح يمنة ويسرة ومع ذلك يظنوا أنهم أعلم بالله وبصفاته ؛ ومنهم من إقتصر على علم واحد ، وأفنى عمره في التعمق فيه ، وزعم أن العلم كله والحكمة موقوف عليه , ولم يعلم أن أي علم من العلوم ليس مطلوباً لذاته بل له مقصود وهدف , وأنه عليه أن يكتفي منه بقدر الضرورة ؛ فمن علماء الدين من إقتصر علمه على الفقه والقضاء والأحكام ، وأعرض عن العقائد وعلم الأخلاق ، وأهمل تفقد قلبه ، إذا كان فعلاً تخلّى عن رذائل الأخلاق وتحلّى بملكات الفضائل ، وتفقد جوارحه وحفظها عن المعاصي وألزمها الطاعات .
ومنهم من تعمق في كل العلوم العقلية والشرعية وتعمَّق بها ، ولكنه أهمل العمل بها مباشرة , ومنهم من واظب على الطاعات الظاهرة ، وأهمل صفات القلب الباطنة , ومنهم من جاهد نفسه وقلع بعض الصفات الظاهرة الجلّية ولكن بقيت في زوايا قلبه ، خفايا من مكائد الشيطان وهو لا يشعر بها , وهؤلاء على درجات من الغرور والغفلة ، ولكن سعادة النفس الحقيقية والكاملة ، لا تكون إلا بمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وأفعاله ، وأحوال النشأة الآخرة والعلم برذائل الأخلاق ، وتهذيب الباطن بفضائل الأخلاق ، وعمارة الظاهر بالطاعات والأعمال الصالحة .

فكل من حصل على بعض العلوم ، ولكنه ترك المهم منها ، وهو سلوك الطريق المستقيم ، وقطع عقبات النفس , التي هي الصفات المذمومة المانعة من الوصول إلى الله ، وظنَّ أنه على خير فهو مغرور ، وإذا مات وكان ملوثاً بتلك الصفات ، كان محجوباً عن الله , من تعلَّم كل العلوم الدنيوية

---

[337] (البقرة 218)
[338] (آل عمران 185)
[339] (السجدة 17)
[340] (النجم 39-40)
[341] (المدثر 38)

والأخروية ، ولم يزكيَّ نفسه فلن يحصل على السعادة ؛ قال تعالى : (لقد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها)[342] , و قال عيسى بن مريم(ع) : " عالم السوء كصخرة وقعت في فم الوادي ، فلا هي تشرب ولا تترك الماء يصل إلى الزرع " .

الطائفة الرابعة : (الوعاظ) , ومن هؤلاء العلماء الذين أصابهم الغرور ، بعض الوعاظ الذي يتكلم في الأخلاق ، والخوف والرجاء ، والتوكل والرضا وهو بعيد عن كل هذه الصفات ، ويزعم أنه يريد إصلاح الخلق ، ولكن إذا قام أحد غيره من العلماء ، وكان أفضل منه في الإرشاد والإصلاح ، لمات غماً وحسداً ، ولو أثنى أحدهم على غيره من العلماء لأصبح أبغض الناس إليه فلا ريب أن هؤلاء هم شياطين الأنس ، وهم شرٌّ على الناس ، ضلوّا وأضَلوا .

فلو أن هذا الواعظ علم بمكائد الشيطان ، وجاهد نفسه وهذَّبها ، وترك العباد لله وللمخلصين من العلماء ، لأنقذ نفسه من سوء العاقبة ومن رذيلة الغرور .

غرور أهل العبادة

ومنهم فرق كثيرة ، بعضهم أصابته الوسوسة في الطهارة والوضوء والخوف الدائم من النجاسة ، فيبالغوا في صب الماء وفي الغسل ، ويسرفوا في هدر الماء ، ولا يدروا أن هذه الوسوسة هي من الغرور ومن الشيطان ؛ ومنهم من شك في صلاته ، لأن قلبه محجوب عن روح الصلاة وهدفها ، فهو كل همة بكيفية إخراج الحروف ، وتصحيح عقد النية ، فهو يشوش على الجماعة ، ويضيع الوقت ، وقد يوسوس في التكبير والترديد لشدة الإحتياط ، وهو غافل عن الهدف الذي هو حضور القلب والعلاقة بالله ؛ ومنهم من إغترَّ بالصوم , فربما صام الأيام الشريفة كلها ، بل صام الدهر كله ، ولكنه لم يحفظ لسانه عن الغيبة ، ولا إحتاط من أكل الحرام لأنه إتبع هوى نفسه ، وأصابه الغرور ؛ ومنهم من يذهب إلى الحج ، دون قضاء ديونه ، ويطوف حول البيت ، بقلب ملوث برذائل الأخلاق ، وذمائم الصفات ، ويظن أنه على خير بسبب غروره ؛ ومنهم من يقرأ القرآن ، ويختمه في يوم وليلة ، وقلبه متردد في أودية الأماني ، ويتفاخر على غيره بذلك ؛ ومنهم من يقوم بعمل النوافل ، وصلاة الليل ، وغسل الجمعة ، ويزعم أن من يقوم بهذه الأعمال , هو ناج من الحساب مهما كانت أخلاقه سيئة وهذا هو الجهل والغرور ..

المتصوفة[343]

المغترون من المتصوفة أكثر من أن يحصى , منهم : " القلندرية " , وهم لا يعرفون معنى التصوف ولا شيئاً من مراسم الدين ، وصرفوا أوقاتهم في التسول من الناس ، ويظنون أنهم تاركون

---

[342] (الشمس 9)
[343] (ص 484)

الدنيا مقبلون على الآخرة ، مع أنهم لو ظفروا بشيئ من أمور الدنيا لأخذوه بجميع جوارحهم ، فهؤلاء أرذل الناس .

ومنهم : من إغتَّر بالزي ولبس الصوف ، وأطرق الرأس ، وخفض الصوت ، وتنفس الصعداء ، وتحريك البدن ، والرقص والتصفيق وإبداء الشهيق والنهيق ، وإختراع الأذكار ، والتغني بالأشعار ، وغير ذلك من الحركات القبيحة .

ومنهم : من وقع في الإباحة ، وطوى بساط الشرع والأحكام ، وترك الفصل بين الحلال والحرام ، وهو يتكالب على الشبهات والحرام ، ولا يحذر من أموال الظلمة والسلاطين ، وقال أن المال مال الله والخلق عيال الله .

ومنهم : من قال أن الله مستغني عن عملي ، فأي حاجة إلى أن أُتعب نفسي فيه ؟ وربما قال لا وزن لأعمال الجوارح وإنما النظر إلى القلوب ، فقلوبنا والهة في حب الله وواصلة إلى معرفة الله ، ومن يحتاج إلى الأعمال البدنية هم العوام ، ونحن مستغنون عن ذلك ، ويصرَّحون بإرتكاب الأمور المباحة ، فضلاً عن الخطايا والمعاصي بصدهم عن طريق الله ، فهؤلاء أشد الناس غروراً وأعظم الخلق حماقةً وجهلاً .

ومنهم : من يدَّعي غاية المعرفة واليقين ، والوصول إلى درجات المقرَّبين ومشاهدة المعبود ، ويظن أنه يتكلم عن الوحي ويخبر عن السماء ، وينظر إلى العباد والفقهاء وسائر أصناف العلماء بعين الحقارة والإزدراء ، ويدّعي أنه واصل إلى الحق ، فارغ عن أعباء التكليف ؛ فهو لم يحصل على العلم ، ولم يهذَّب صفاته ، ولم يعرف من المعارف إلا الأسماء ، يتفوه بها مع الأغنياء للوصول إلى بعض حطامهم الخبيث ، وهو عند الله من الفجار المنافقين ، وعند أرباب القلوب ، من الحمقى الجاهلين .

ومنهم : من إشتغل بالرياضة والمجاهدة ، وقطع بعض المنازل ، ووصل إلى بعض المقامات على قدر سعيه ومجاهدته ، إلا أنه لم يتم سلوكه ، وإنقطع عن باقي المقامات ، إما لإعتراض مفسد إعترضه ، أو لوقوفه ظنّاً منه ، أنه وصل إلى الله ، وهو لم يصل . فإن لله سبعين حجاباً من نور ، لا يصل السالك إلى حجاب من تلك الحجب في الطريق ، إلا وظنَّ أنه قد وصل .

وفي قصة إبراهيم (ع) إشارة إلى ذلك ، حين رأى أولاً كوكباً فقال : هذا ربي ، ثم إنتقل إلى القمر ثم عنه إلى الشمس ؛ ولكن المراد ليس بالكوكب والقمر والشمس ، فإن إبراهيم الخليل أعظم من أن يظنَّ هذه الأجسام المضيئة آلهة ؛ فالمراد من هذه الأنوار ، هي حجب من الله ، يراها السالك في الطريق ، وهي حجب من نور ، بعضها أعظم من بعض ، فإستعير لفظ الكوكب لصغره لأقل مراتبها ، والقمر لأوسطها ، والشمس لأعظم مراتبها ، والخليل (ع) لم يزل عند سيره في الملكوت ، يصل من نور إلى نور ، ويتخيل في أول ما يلقاه ، أنه قد وصل ، ثم ينكشف لهما وراءه فيترقى ، حتى يصل إلى الحجاب الأقرب فيقول هذا أكبر وقال : (لا أحب الآفلين إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض ، وإني من الموقنين)[344]؛ إن أول حجاب بين العبد وربه ، هو القلب ، الذي

[344] (الأنعام 76-79)

هو نور من أنوار الله ، تتجلى فيه حقيقة الحق كلّه ، حتى يتسع لكل العالم ويحيط به ، وعند ذلك يشرق نوره إشراقاً عظيماً ، إذ يظهر فيه الوجود كله ، على ما هو عليه ، وهو كان قبل ذلك محجوباً.

ومنهم : من يلتبس عليهم ذلك ، فيقفوا عند هذا النور ، كما نظر النصارى إلى المسيح ، فرأوا إشراق نور الله قد تلألأ فيه ، فوقفوا ولم يكملوا طريق السلوك إلى الله ، التي لن تخفى على أرباب البصيرة إذا ثابروا في الترقي وكشف الحجب .

ثم إن أكثر الملتبسين بلباس العارفين ، مع نقصانهم وجهلهم لحقيقة الأمر ، وعدم قطعهم المقامات ، يتشبهوا بالصادقين من العرفاء ، في زيّهم وآدابهم وألفاظهم ، ظانين أنهم بذلك يصلون إلى مراتبهم ، ولكن هيهات هيهات ! لأن الوصول هو التخلق الباطني بالأخلاق النفيسة دون التشبه بالظاهر .

الأغنياء وارباب الأموال [345]

المغترون من هؤلاء الطائفة ، هم أكثر من سائر الطوائف ، منهم من يحرص على بناء المساجد والمدارس وغير ذلك ، بالأموال المحرَّمة ، وعلى أرض مغتصبة ، ولا باعث لهم سوى الرياء والشهرة ، فيكتب إسمه عليها ليتخلد ذكره ، ويظن المسكين ، أنه قد إستحق المغفرة ، ولم يدرِ انه تعرَّض لسخط الله , وربما كان في جواره مسكين يكون في غاية الفقر والمسكنة لا يعطيه شيئاً . ومنهم من ينفق الأموال في الصدقات على الغرباء ، ولا يرغب في الإنفاق على فقراء بلده ، طلباً لإشتهاره بالبذل والعطاء ، وربما يعطي المال إلى رجل مشهور في البلاد ، وإن لم يكن مستحقاً ، ولا يعطي القليل إلى فقير في غاية الإستحقاق ، ولم يدر هذا المغرور ، أن هذا القصد قد أحبط عمله وأضاع ثوابه .

معالجة الغرور

بما أن الغرور سببه الجهل ، وحب الشهوات ، فضده اليقظة والعلم والزهد , فمن كان فطناً عارفاً بربه ونفسه ، وبالآخرة والدنيا ، وعالماً بكيفية سلوك الطريق إلى الله ، وما يقرّبه إليه وما يبعده عنه ، وعالماً بآفات الطريق وغوائله ، لاجتنب الغرور ، ولم يطع الشيطان في شيئ من الأمور ؛ إن من يعرف نفسه ، بكونه غريباً في هذا العالم ، وأفرغ قلبه من حب الدنيا ، فتقوى إرادته ، وتصُح نيتّه ؛ يقول الإمام الصادق(ع) : " إعلم أنك لن تخرج من ظلمات الغرور والتمني ، إلا بصدق الإنابة إلى الله ، والإخبات له ، ومعرفة عيوب نفسك ، بما لم يوافق العقل والعلم , ولا يحتمله الدين والشريعة ، وسنن القدوة وأئمة الهدى ؛ وإذا كنت راضياً فيما أنت فيه , فما أحد أشقى بعملك منك ، وأضيع عمرا ، فأورثت حسرةً يوم القيامة .

[345] (ص 486)

طول الأمل [346]

هو من يعتقد بأن بقاءه في هذه الدنيا ، مدة طويلة ، وعمر مديد ، وهذا الإعتقاد تلحقه توابع البقاء ، من مال وأهل ودار وغير ذلك ؛ ومنشأ ذلك هو الجهل والإفراط في حب الدنيا ، ويعتمد إما على شبابه أو على صحته وقوته ، فيستبعد قرب الموت ، ولا ينظر المسكين إلى كم من الناس يعيشون مدة طويلة ، أو يعمرّون ، فهم قلّة قليلة ، مقابل الكثير من الشباب والصغار الذين يموتون في عمر مبكر ، أما بالنسبة للصحة والقوة ، فالمرض قد يأتي فجأةً ، ويتبعه الموت بوقت قليل ، ولو تفكر قليلاً ، لعلم أن الموت ليس له وقت معيَّن ، وقد يأتي في أي ساعة من ليل أو نهار , ولكن الغفلة وطول الأمل ، تجعلاه يظن أن الموت بعيد عنه ، مع أنه يشيَّع الجنائز كل يوم ، ولكنه لا يتصور أن جنازته ستشيَّع ، لأنه ألِف تكرار الموت لغيره ، أما لنفسه فلم يألفه لأنه لم يقع ، و إذا وقع فلا عبرة ولا تفكر ، فيكون الدرس الأول والآخير .

وأما توابع طول الأمل من حب المال وإمتلاك العقار والبيوت وغير ذلك ، فراجع إلى الأنس بها ، فيثقل عليه مفارقتها ، ويمنع قلبه من التفكر في الموت . والإنسان بطبعه ، يكره ما يبعده عن أمنياته , من الشهوات والملذات وحب البقاء ، فيصير قلبه عاكفاً على هذا الفكر ، ويتوقف عن أي تفكير آخر ، فيلهو عن ذكر الموت ، ويوهم نفسه ، بأن الموت بعيد جداً , وإذا مرَّت بعض الخطرات له ، فهو يهرب منها ، ويؤجل إستعداده لهذه الساعة التي لا بد منها .

علاج طول الأمل

بعد أن علمنا أن طول الأمل منشأه الجهل ، وحب الدنيا ، علينا محاربة الجهل بالفكر الصافي والقلب السليم من شوائب حب الذات ورذائل الصفات ، وأن نتبّع الأنبياء والأولياء الطاهرين ؛ قال رسول الله (ص) : " إن أشد ما أخاف عليكم خصلتان : إتباع الهوى ، وطول الأمل ، فأما إتباع الهوى فإنه يصد عن الحق ، وأما طول الأمل فإنه الحب للدنيا " ؛ ثم قال : " إن الله يعطي الدنيا لمن يحب ولمن يبغض ، وإذا أحب عبداً أعطاه الإيمان ، ألا إن للدّين أبناء ، وللدنيا أبناء ، فكونوا من أبناء الديّن ، ولا تكونوا من أبناء الدنيا " .

قُصر الأمل

وهو شعار المؤمنين ، ودثار الموقنين ، قال رسول الله (ص) : " إذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء ، وإذا أمسيت فلا تحدث نفسك بالصباح ، وخذ من دنياك لآخرتك ومن حياتك لموتك ، ومن صحتك لسقمك ، فإنك لا تدري ما إسمك غداً " ؛ وكان يدعو ويقول : " أعوذ بك من أمل يمنع

[346] (ص 488)

خير العمل " ؛ وقال عيسى (ع): " لا تهتموا برزق غدٍ ، فإن يكن غداً ، فستأتي أرزاقكم مع آجالكم ، وإن لم يكن غداً من آجالكم فلا تهتموا لأرزاق غيركم " .

إختلاف الناس في طول الأمل [347]

من الناس من يأمل البقاء ويتمناه ، كما قال الله تعالى : (يود أحدهم لو يُعمَّر ألف سنةٍ) [348] , وهو الذي يحب الدنيا حباً شديداً ، ولا يفكر فيما وراء الدنيا ، ويسعى بكل طاقته وجهده ليحصل على أكثر مما يحتاج ، ومنهم من يكون الموت نصب عينيه ، وهو ينتظره ، ويصلي في كل صلاة ، صلاة مودَّع ؛ والعُجب أنه كلما يزداد السنّ ، يزداد الأمل ؛ يقول رسول الله (ص) : " يشيب بن آدم وتشيب معه خصلتان ، الحرص وطول الأمل ".

ذكر الموت مقصِّرٌ للأمل

وقد ورد في فضيلته أحاديث كثيرة : " أكثروا ذكر هادم اللذات ، قالوا : ما هو يا رسول الله ؟ قال : الموت " , وقال : " أكثروا ذكر الموت فإنه يمحي الذنوب , ويزهِّد في الدنيا " , وقال : " كفى بالموت واعظاً " , وقال الإمام الباقر (ع) : ذكر الموت يميت الشهوات ، ويمنع الغفلة ، ويطفئ نار الحرص ، ويكسر أعلام الهوى ، ويحقِّر الدنيا ".

الموت أعظم الدواهي

من علم أن الموت مصيره ، قرُب أو بَعُد ، فجدير به أن يستعد له ، وينحصر فيه فكره ، إن كل ما هو آت قريب ، والبعيد ما ليس بآت ؛ وحقيق على الإنسان الذي مصيره الموت ، أن لا يكون فكره وهمّه وقوله وفعله وسعيه وجدّه إلا فيه . قال رسول الله (ص): " لو أن البهائم يعلمون ما تعلمون لما أكلتم منها سميناً " ؛ وقال (ص) : " إذكروا الموت ، أما والذي نفسي بيده ، لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً وبكيتم كثيراً " .

إن غفلة الناس عن الموت ، لقلَّة فكرهم فيه ، وذكرهم له ، ومن يذكره أحياناً ، فليس بقلب فارغ ، بل بقلب مشغول بشهوات الدنيا ، فلا ينفع ذكره . والناس أصناف ، منهم من هو خائض في غمرات الدنيا ، يسارع للحصول على ملذاتها وشهواتها , ومنهم من هو عارف بهوانها وحقارتها ، فالأول لا يذكر الموت وإن ذكره ، فهو يذمه ويفر منه ؛ قال الله تعالى : (قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم) [349] , والثاني ، يُكثر من ذكر الموت ، ليبعث في قلبه الخوف

---

[347] (ص 490)
[348] (البقرة 96)
[349] (الجمعة 8)

والخشية ، فيسارع إلى التوبة ، ويخاف أن يختطفه الموت قبل الإستعداد ، وتهيئة الزاد ، ومن يستعد للقاء الله ، فهو لا يخاف الموت ، ولا يعد كارهاً للقاء الله .

و منهم من يذكر الموت كثيراً ، لأنه موعد للقاء الحبيب ، وهو يستبطئ مجيئ الموت ، ويحب مجيئه ، ليتخلص من دار العاصين إلى جوار رب العالمين , ومنهم من فوَّض أمره إلى الله ، لا يختار موتاً ولا حياةً ولا فقراً ولا غنى ، ولا مرضاً ولا صحةً ، بل تكون أحب الأشياء إليه ، أحبها إلى مولاه ، وهو أعلى درجات التسليم والرضا .

المعاصي [350]

هي عدم المبالاة ، من إرتكاب المحرّمات الشرعية والعقلية , والآيات والأحاديث في ذم العاصين كثيرة ؛ قال الله تعالى : (ما أصابكم من مصيبة فبما كسبتم أيديكم ويعفو عن كثير) [351].

التوبة [352]

هي ترك المعاصي والرجوع عن الذنوب ، والدافع إلى التوبة يكون ، من العلم بضرر الذنوب والعلم بكونها حجاباً بين العبد وربه ، وهي بمثابة السموم المهلكة ؛ قال رسول الله (ص) : " الندم توبة " ؛ و إن التوبة أمر واجب على كل إنسان ، بالإجماع ، والنقل والعقل , قال الله تعالى : (وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون) [353], وقال عزوجل : (يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبةً نصوحا ، عسى ربكم أن يكفّرعنكم سيئاتكم)[354].

إن الواجب الذي تفرضه الشريعة الإلهية ، هو وسيلة لسعادة الإنسان الأبدية ، والنجاة من الشقاء والعذاب . وبما أن الذنوب تحجب العبد عن ربّه وتحرمه من اللقاء والوصال معه ، فهو محروم من مشاهدة الجلال والجمال ، وهو شقي لا محالة . والإقبال على الله طلباً للأنس ودوام الذكر ، والإبتعاد عن طريق الشقاء ، لا يتم إلا بالتوبة ، وهي عبارة عن العلم والندم والعزم ، ولذلك هي واجبة , ومن يعص الله ولا يتوب ، فهو فاقد للإيمان بالله وكتبه ورسله .

والإيمان ليس باباً واحداً ، بل هو نيّفٌ وسبعون باباً أعلاها الشهادتين ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ,وإن أول ما يتميز به الإنسان عن البهائم ، هو الإيمان وقول الشهادتين , ومن فقد الشهادتين ، وهي الإعتراف بالله ورسوله ، كمن فقد روحه , ومن آمن وقال بالشهادتين ، وهما التوحيد والرسالة ، ولكنه ترك بقية الأعمال ، فهو كإنسان مقطوع الأطراف ، مفقوء العينين ، فاقد لجميع أعضائه الظاهرة والباطنة إلا أصل الروح ، وهذه الحالة هي قريبة من الموت . فكل إيمان لم يثبت في النفس أصله ، ولم تنتشر بالأعمال فروعه ، فهو مشرف على الموت ، لأن فروع الإيمان

---

[350] (ص 495)
[351] (الشورى 30)
[352] (ص 498)
[353] (النور 31)
[354] (التحريم 8)

وعدم القيام بها ، ستحجب عن الأصل . ولا بقاء للأصل دون الفرع ، ولا وجود للفرع دون الأصل فمثل العاصي الذي يتكل على إيمانه بالتوحيد والرسالة , ولا يعمل بالفروع ، كمثل الشخص الصحيح الذي يأكل الأغذية المضرة والسامّة ، ولا يخاف المرض أو الموت إتكالاً على صحته .

وكذلك المعاصي ، فالذي يرتكب الذنوب ولا يتوب ، فهو حتماً سيصل إلى سوء الخاتمة فالخائف على نهايته ومصيره ، من الهلاك الأبدي ، عليه أن يتوب ويترك الذنوب ، فشارب السم عليه أن يتقيؤه بإخراجه من معدته ؛ وسموم الذنوب ، يجب أن يرجع عنها ويتوب ما دام هناك أمل بالشفاء ، وكلما أسرع المذنب ، كان شفاءه أسرع وإلا سيخرج الأمر من بين أيدي أطباء القلوب ، فلا ينفع حينئذ ، وعظ ولا نصيحة ، وتحق عليهم كلمة العذاب , يقول الله عزوجل : (وختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة)[355] ؛ عندها تتراكم الظلمة على القلب من كثرة المعاصي ، فتصبح ديناً وطبعاً لا يقبل المحو ؛ ويقول تعالى : (وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سدّاً فأغشيناهم فهم لا يبصرون)[356] .

والتوبة يجب أن تشتمل الجميع ، كل واحد على قدر ما إرتكب من المعاصي والذنوب ، لأن كل عبد لا يخلو من معصية صغيرة كانت أو كبيرة , قال الله تعالى : (وتوبوا إلى الله جميعاً)[357] .

العمل بعد التوبة [358]

التوبة إلى الله من الذنوب والمعاصي الظاهرة واجبة في الشرع ، وهذا الوجوب على كافة الخلق ، ومكلّف به الجميع ، حتى لا يسبب فساداً في النظام الكليّ للعالم ، أما التوبة القلبية الباطنية فليست واجبة بهذا المعنى لأنها لا تؤثر في الإنتظام العام . ولا يكفي التوبة عن الذنوب ، فلا بد من محو آثارها ، التي إنطبعت في القلب ، لأن كل معصية أو ذنب ، تترك ظلمة قي القلب ، وعندما تتراكم الظلمات والمعاصي تصبح ريناً , قال تعالى : (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون)[359] , فإذا تراكم الرين صار طبعاً في النفس ، فالتائب لا بد له من محو الآثار .

إن كل طاعة ، يقوم بها العبد بعد التوبة ، هي نور يمحي ظلمة معصية ، والضد يرتفع بالضد , فمثلاً : يكفرَّ عن سماع أدوات اللهو ، بسماع القرآن ، وبحضور مجالس الذكر ، ويكفّر عن شرب الخمر بالتصدق بكل شراب حلال ، " فالحسنات يذهبن السيئات " , ويجب أن تكون التوبة بعد إرتكاب الخطيئة ، ومحو أثرها حتى لا يتراكم الرين على القلب فلا يعود يقبل المحو , قال الله تعالى :

[355] (البقرة 7)
[356] (يس 9)
[357] (النور 21)
[358] (ص 506)
[359] (المطففين 14)

(إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب) و (ليست التوبة للذين يعملون السيئات ، حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن) [360] .

فضيلة التوبة

التوبة هي أول مقامات الدين ، ورأس مال السالكين إلى الله ، وفضلها عظيم , قال الله تعالى: (إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين)[361], وقال رسول الله (ص) : التائب حبيب الله ، والتائب عن الذنب كمن لا ذنب له ". وقال الله سبحانه : (إلا من تاب وعمل صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً)[362] .

قبول التوبة [363]

قال الله تعالى : (هو الذي يقبل التوبة عن عباده)[364] , وقال :(غافر الذنب وقابل التوب)[365], و(ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً)[366], وقال الرسول(ص) : " كفارة الذنب الندامة " ؛ قال رسول الله (ص) : " من تاب قبل موته بشهر قبل الله توبته ، ثم قال : من تاب قبل موته بجمعة قبل الله توبته ، ثم قال : إذ الجمعة لكثير ، من تاب قبل موته بيوم قبل الله توبته ثم قال إن يوماً لكثير ، من تاب قبل أن يعاين ملك الموت قبل الله توبته " . وقال الإمام الباقر(ع) : " إذا بلغت النفس هذه ، وأومأ بيده إلى حلقه ، لم تكن للعالم توبة ، وكانت للجاهل توبة ". وقال الإمام الصادق(ع) : " إن الرجل ليذنب الذنب فيدخله الله به الجنّة ، قيل يدخله الله بالذنب الجنة ؟ قال : نعم ، إنه ليذنب ، فلا يزال منه خائفاً ماقتاً لنفسه فيرحمه الله ويدخله الجنة " ؛ وقال (ع) : " العبد المؤمن إذا أذنب ذنباً أجلَّه الله سبع ساعات فإن إستغفر الله ، لم يكتب عليه شيء ، وإن مضت الساعات ولم يستغفر كتبت عليه سيئة ".

ولكن المؤمن العاقل الذي ينظر بنور البصيرة ، لا يحتاج إلى بيان ذلك ، لأن قلبه السليم يعلم بفطرته الصافية ، أن الذنوب والمعاصي هي ظلام ، وأن الحسنات هي نور يمحو الظلمات ,ولا طاقة لظلام الليل مع نور النهار ، ويعلم أن أكثر المقبلين على الدنيا ، والمعرضين عن الله ، قليلاً ما

---

[360] (النساء 17و18)
[361] (البقرة 222)
[362] (الفرقان 68-70)
[363] (ص507-508)
[364] (المؤمن 3)
[365] (النساء 109)
[366] (النساء 110)

يرجعون لأن رذائل الأخلاق والمعاصي ، صارت ملكات راسخة في قلوبهم ، فهم لا ينتبهون ولا يستيقظون حتى يتوبوا .

طريق التوبة عن المعاصي [367]

تتعلق التوبة بالمعاصي ، وهي تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

أولاً : ترك الطاعات الواجبة ، من صلاة وصوم وزكاة وخُمس وغيرها .

ثانياً : إرتكاب المحرَّمات المنهيّ عنها كشرب الخمر والكذب والزنا .

ثالثاً : التعدَّي على حقوق الناس ، إما في المال ، أو في النفس ، أو في العِرض ، أو في الديّن (بأن ينسب الكفر إلى أي مسلم وبتهمة البدعة والضلالة).

والتوبة تشمل كل هذه الأمور ، وهي الندم والعودة عن هذه المعاصي ، والإلتزام بكل ما يقول به الشرع الإلهي .

تكفير الصغائر ومعنى الكبائر [368]

قسَّم الشرع الذنوب إلى كبيرة وصغيرة ، وحكم بأن من يجتنب الكبائر ، فالصغائر تكفرَّ عنه , قال الله تعالى :(إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفرَّ عنكم سيئاتكم)[369] , وقال عزوجل : (والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللّمم) [370] , وقال رسول الله (ص) : " الصلوات الخمس والجمعة تكفرَّ ما بينهن إن إجتنبت الكبائر " .

الكبائر من المعاصي

إختلف العلماء في تعيين الكبائر ، وكل ما ورد في القرآن النهي عنه ، والعقاب بالنار فهو من الكبائر ، وتخصيص ذكر المعصية في القرآن دلالة على عظمها وكبرها , ولكن الشرع لم يعيّنها ، فكانت مبهمة ، ليكون العباد على وجل منها فيجتنبون جميع الذنوب ؛ وهذه الكبائر يتعلق أمرها بحساب الآخرة والإبهام أليق بها ، حتى يكون الناس على وجل وخوف منها , والصغائر قد تكون كبائر , قال الإمام الصادق(ع) : " لا صغيرة مع الإصرار ، ولا كبيرة مع الإستغفار " ؛لأن المعصية الصغيرة قد لا تترك أثراً في القلب ، ولكنها إذا تراكمت آثارها ، صارت قويَّة بالتدريج على القلب ،

---

[367] (ص 510)
[368] (ص 511-512)
[369] (النساء 30)
[370] (النجم 32)

كمثل قطرات الماء التي تقع على الحجر ، فلا بدَّ أن تؤثر فيه إذا طال تساقطها , وقال الله تعالى : (ولم يصرّوا على ما فعلوا وهم يعلمون)[371] , والمطلوب هو تنوير القلب بالطاعات ، والحذر من تسويده بالسيئات ؛ قال رسول الله(ص) : " خير الأعمال أدومها وإن قلّ " , وقال الله تعالى : (إن تكُ مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السماوات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير)[372] , وقال الله تعالى : (ونكتب ما قدَّموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه في إمام مبين)[373] .

شروط كمال التوبة

الندم ، وقضاء العبادات ، ورد مظالم العباد ؛ قال أمير المؤمنين (ع) لأحدهم , وهو يقول : أستغفر الله , : " ثكلتك أمك ! أتدري ما الإستغفار ؟ إن الإستغفار درجة العليين ، وله ستُّ معانٍ ، أولها الندم على ما مضى ، والثاني العزم على ترك العود إليه أبداً ، والثالث أن تؤدي للمخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله وليس عليك تبِعة ، والرابع أن تعمد إلى كل فريضة عليك ضيَّعتها ، تؤدي حقها , وخامساً أن تعمد إلى اللحم الذي نبت على السحت فتذيبه حتى ينشأ لحم جديد ، والسادس أن تذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية ، فعند ذلك تقول : أستغفر الله " .

مراتب النفس(التوبة) [374]

- النفس المطمئنة : إن التائب عن المعاصي كلها إلى آخر عمره ، ولا يصدر عنه معصية إلا بعض الزلاّت التي لا يخلو منها غير المعصومين تسمى هذه التوبة ," توبة نصوح " , ونفس صاحبها هي النفس المطمئنة ، التي ترجع إلى ربها راضية مرضية .

- النفس اللوامة : الذي يتوب عن كبائر المعاصي والفواحش ويستقيم على أهم الطاعات ، إلا أنه يصدر عنه بعض الذنوب ، وعندما يقدم على ذنب يندم ويأسف ، ويجدد العهد والعزم على ألاّ يعود إليه ، فمرتبة هذه النفس ، هي " النفس اللوامة " , التي خيرها يغلب على شرَّها ولها الوعد بالحسنى من الله ، وقد قال الله تعالى عنها : (الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم ، إن ربك واسع المغفرة)[375].

- النفس المُسوَّلة : ومنهم من يقوم بالطاعات ويترك أكثر الذنوب ، ولكن تقهره بعض الشهوات ، فلا يجاهد نفسه ، ولكنه يندم بعد قضائها ، ويقول سأتوب عنها ، ولكن تسوَّل له نفسه العودة إلى الذنوب ، ويؤجل توبته يوماً بعد يوم وتسمى هذه النفس , " النفس المُسوِلة " , وقد قال الله

---

[371] (آل عمران 135)
[372] (لقمان 16)
[373] (يس 12)
[374] (ص517)
[375] (النجم 32)

تعالى عنها : (وآخرون إعترفوا بذنوبهم ، وخلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً)[376] , ويقع أمر هذه النفس المسوَّلة في مشيئة الله ، قد يدخل في زمرة السعداء ، أو يسلك مسلك الأشقياء .

- النفس الأمارة بالسوء : ومن الناس من يقوم بالذنب عمداً وقصداً ، ولا يحدث نفسه بالتوبة ، من غير أن يتأسف أو يندم ، بل ينهمك إنهماك الغافل بالذنوب ، وإتباع الشهوات ، وهو يُعدّ من المصرَّين ، ونفسه محسوبة من النفوس الأمّارة بالسوء ، إن مات على التوحيد وغلبت طاعاته على سيئاته قد يكون من أهل الجنةَّ وإن ختم حياته بالسوء كان من أهل النار ، يُعذَّب فيها بقدر زيادة سيئاته ثم يتخلص منها ويعمُّه لطف الله .

عدم الثقة بالإستقامة لا يمنع التوبة [377]

من أراد التوبة ولكنه غير واثق من نفسه بالإستقامة عليها ، فلا ينبغي أن يمنعه ذلك من التوبة ، لأن الشيطان يوسوس له ، ألا من أين له هذا العلم ؟؟ فلعله يموت تائباً قبل أن يعود إلى الذنب . المهم أن تكون النيَّة بالتوبة صادقة ، فإن وفى فقد نال مطلبه ، وإلا فإن ذنوبه السابقة قبل النيَّة قد غفرت له وليس عليه إلا هذا الذنب الذي أحدثه الآن ، وعليه أن يحاول أن لا يرتكب ذنوباً جديدة .

ومن الأمور التي تساعد على التوبة ، هي أن يتبع التائب كل ذنب بحسنة تمحو هذا الذنب ، أو بعدَّة حسنات ، فيكون قد خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، ولأن الحسنات تكفرَّ السيئات .
ومن هذه الحسنات : الندم ، التضرع إلى الله والدعاء ، إضمار الخير للمسلمين ، العزم على الطاعات ، والصدقات ، والإستغفار القلبي بصدق وإخلاص . إن النية الصادقة للتوبة ، هي حسنة بذاتها ، وإن علم المذنب أن نفسه الأمارَّة ستعود إلى هذا الذنب .

وقد عرف أرباب القلوب بنور البصيرة معرفة قطعية يقينية لا يعتريه شك أو ريب أن :
قول الله تعالى : (ومن يعمل مثقال ذرَّة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرَّة شراً يره)[378] , لأن كل ذرة خير ، عندما تجتمع وتتراكم ، يترجح ميزان الحسنات ، ويخف ميزان السيئات ، فلا يستصغر أحد ذرات الطاعات ، ولا يستحقر ذراتَّ المعاصي ؛ فثياب الدنيا ، إجتمعت خيطاً خيطاً ، وأجسام العالم مع إتساع أقطاره ، إجتمعت ذرّةً ذرّة ، فربَّ عمل قليل أجره جزيل ؛ قال الإمام الصادق(ع):
" إن الله تعالى جعل رضاه في طاعته ، وغضبه في معاصيه ، فلا تحقرَّوا شيئاً فلعل غضبه فيه ، وخبأ ولايته في عباده ، فلا تحقروا أحداً منهم فلعله وليّ الله ".

---

[376] (التوبة 103)
[377] (ص518)
[378] (الزلزلة7-8)

علاج الإصرار على الذنوب [379]

العلاج لحل عقدة الإصرار على الذنوب ، هو التوبة والعودة إلى الله ، وتذكرُ آيات القرآن والأحاديث النبوية ، عن قبح الذنوب وشدة العقوبة عليها ، وأن يتذكر الإنسان ضعف نفسه وعجزها عن إحتمال عذاب الآخرة ، وعقوبة الدنيا ، وأن يتذكر خساسة الدنيا وشرف الآخرة ، وأن الموت لا بد آتٍ ، وقد يكون قريب ، ولا يغتر بعدم العقوبة في الوقت الحاضر ، فلعله يكون من الإستدراج ، ومن لم يتفكر وينيب إلى الله ويتوب ، فهو إما معتوه أحمق أو غير معتقد بالمعاد والحساب ، وذلك هو الكفر والشقاء الأبدي ؛ وقال الله تعالى : (من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب) [380] .

الإنابة والتوبة [381]

التوبة هي الرجوع عن كل المعاصي والذنوب ، والعودة إلى الله ، والإقبال عليه في السر والعلن , قال الله تعالى : (وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له)[382] , و (من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب)[383] .

من الأمور التي تساعد على التوبة : المحاسبة , إن القرآن والسنَّة النبوية ، وإجماع الأمَّة ، دلّت على ثبوت المحاسبة يوم القيامة ، وحصول التدقيق والمحاسبة على مثقال الذرة من الخير والشر , قال تعالى : (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين)[384], وقال سبحانه : (يوم يبعثهم جميعاً فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيئ شهيد) [385], وقال :(ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين بما فيه يقولون يا ويلتنا مالِ هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً)[386], و(يوم يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم ، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرّة شراً يره)[387] , و(يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيدا)[388] , و (فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يفعلون) [389] ؛ وقال رسول الله (ص) : " حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسَبوا ، وزِنوها قبل أن توزنوا ".

---

379 (ص 520)
380 (ق 31)
381 (ص 5)
382 (الزمر 54)
383 (ق 22)
384 (الأنبياء 47)
385 (المجادلة 6)
386 (الكهف 50)
387 (الزلزلة 6-8)
388 (آل عمران 30)
389 (الحجر 92-93)

وقال الإمام الباقر (ع) : " ليس منا من لا يحاسب نفسه كل يوم ، فإن عمل حسنة إستزاد الله ، وإن عمل سيئة إستغفر الله منها وتاب إليه " .

أعمال التوبة

أولاً : المشارطة , وهي أن يشارط المؤمن نفسه في كل يوم وليلة ، ألا يرتكب المعاصي ، وأن يعمل الطاعات ، وأن يكون كل عمله خير وصلاح .

ثانياً : المراقبة , وهي مراقبة كل عمل يقوم به ، إن كان خيراً أو شراً لأن الله مطلع على الضمائر ، عالم بالسرائر ، رقيب على أعمال العباد , قال سبحانه : (إن الله كان عليكم رقيباً)[390] , وقال : (ألم يعلم أن الله يرى) [391].

ثالثاً : المحاسبة , على المؤمن أن يختار وقتاً في آخر النهار ليطالب نفسه ، ويحاسبها على ما قام به من أعمال .

رابعاً : معاتبة النفس ومراقبتها ، فإن وجد نفسه مقصَّرة في حقوق الله ، مرتكبة بعض المعاصي ، فلا ينبغي أن يهملها , قال الإمام الصادق(ع) : " طوبى لعبد جاهد نفسه وهواه " , وقال الله عزوجل : (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) [392].

الغفلة [393]

هي فتور النفس وكسلها عما ينبغي تحصيله من أمور الديّن والدنيا ، وهي تؤدي إلى الحرمان من سعادة الدارين ؛ فالغفلة عن إكتساب المعارف والأخلاق الفاضلة ، وعن القيام بالأمور الدنيويَّة للمعيشة الكريمة ، تؤديان إلى إبطال غاية وجود الإنسان ، وبلوغه إلى كماله المستعد له , وهو ما يؤدي إلى الشقاء في الدنيا والآخرة .

النيَّة وتأثيرها على الأعمال [394]

النيَّة هي روح العمل ، وهي ضد الغفلة ، وهي إنبعاث الروح وتوجهها لغاية الوجود ، وهي الواسطة بين العلم والعمل ، ولكن العلم مقدَّم على النيَّة ، والعمل ثمرتها . إن كل فعل وعمل لا يتم إلا

[390] (النساء 1)
[391] (العلق 4)
[392] (العنكبوت 69)
[393] (ص520)
[394] (ص 532)

بشوق وإرادة وقدرة . إن كل إنسان مهيء إلى أمور تناسبه ، وإلى أمور لا تناسبه وعليه أن يعرف نفسه ويعرف ما هو الضار أو النافع لها ، والعلم والنيَّة يدفعان للقيام بما يجب من عمل خير أو شر .

ولا شك ولا ريب ، أن بإمكان كل شخص ، أن يصحح نواياه ويجعلها خالصة لله وللحق , والعدل , أما الغافلون عن ذلك ، يقول عنهم الله : (إن هم إلا كالأنعام بل هم أضلُّ سبيلا)[395] , ومن تكون نواياه خالصة لله ، يصبح قلبه سليم ؛ قال الله تعالى : (يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم)[396], وقال الإمام الصادق(ع) : صاحب النيَّة الصادقة ، هو صاحب القلب السليم " , وقال رسول الله(ص) : " إنما الأعمال بالنيات " .

لماّ خرج رسول الله(ص) إلى غزوة تبوك , قال : " إن بالمدينة أقواماً ، ما قطعنا وادياً ولا وطئنا موطئاً يغيظ الكفار ، إلا شاركونا في ذلك وهم في المدينة " , قالوا : يا رسول الله كيف ذلك ؟ فقال : " حسبهم العذر , فقد شاركونا بحسن النيَّة ". وقال الإمام الصادق(ع) : " إن العبد المؤمن الفقير ، ليقول : يا رب أرزقني حتى أفعل كذا وكذا من البر وأعمال الخير ، فإذا علم الله صدق نيته كتب له الأجر ، مثل ما يكتب له لو عمله ، إن الله واسع عليم ". وسأله أحدهم عن حد العبادة ، التي إذا فعلها كان مؤدياً فقال : " حسن النيَّة بالطاعة " , وقال (ع) : " إنما خُلِدّ أهل النار في النار لأن نياتهم كانت في الدنيا أن لو خلدّوا فيها أن يعصوا الله أبداً , وخُلِّد أهل الجنَّة في الجنَّة لأن نياتهم لو بقوا فيها أن يطيعوا الله أبداً " , ثم تلا قول الله تعالى : (كل يعمل على شاكلته) [397], (يعني على نيتّه) , وقال(ع) : " من تمَّت نيتّه على طاعة الله ، تمَّ عون الله له ". والنيَّة هي حقيقة العمل وعماده وروحه ، لأن العمل من حيث هو عمل لا فائدة فيه للنفس ، وإنما فائدته للأثر الذي يصل منه إليها من النورانية والصفاء . وإذا تكررت الأعمال الصالحة ، يحصل للنفس غاية الضياء والصفاء ، ويحصل لها التجرد التام ، وتنخرط في سلك الملائكة .

العبادة [398]

المقصود والهدف من العبادة والطاعات ، هو شفاء النفوس وسعادتها في الدنيا والآخرة ، وتنعمها بلقاء الله ، وهذا اللقاء موقوف على معرفة الله وحبه وأنسه ودوام الذكر والفكر ، حتى تبتعد النفس عن الإفراط في حب الدنيا وشهواتها ؛ ولأن معرفة الله الضعيفة لا تترسخ إلا بالعبادة والطاعات وترك المعاصي ، ولأن بين الجوارح والنفس علاقة تجعل كل واحد منها يتأثر بالآخر ، فالعبادة لها مراتب . إن من أراد وجه الله ، من دون غرض دنيوي أو أخروي ، ولا رغبةً في ثواب ولا خوفاً من عقاب ، ولكن حباً وأنساً بالله وعظمته وجلاله وجماله ولطفه ، فهو فرح بعبادته ، وقلبه متوجه شوقاً لطاعته ، وجزاؤه أن الله يحبه ويجتبيه ، ويقرّبه كما قال عزوجل : (إن له عندنا لزلفى وحسن مآب)[399], وإلى هذه المرتبة أشار أمير المؤمنين (ع) بقوله : " ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنتك ، ولكن وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك " . وأما من كان غرضه نيل الثواب والتخلص

---

[395] (الفرقان 44)
[396] (الشعراء 88)
[397] (الإسراء 84)
[398] (ص 526)
[399] (ص 25)

من العقاب لأنه لا يعرف عن الله سوى كونه صانعاً للعالم قادراً قاهراً عالماً ، وأن له جنَّة ينعم بها المطيعين ، ونار يعذب فيها العاصين ، فجزاؤه بمقتضى نيته ،أن يدخله الله جنته ، وينجيه من ناره ، لأن جزاء الأعمال حسب النيات كما أخبر الله تعالى في غير موضع من كتابه الكريم ، من ترغيب وترهيب , قال سبحانه : (ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين)[400].

نيَّة المؤمن خير من العمل [401]

النيَّة الخالصة لرب العالمين ، هي أفضل من العمل ، لأن العمل قد لا يكون تاماً كاملاً ,ولهذا قال الإمام الباقر(ع) : " نيَّة المؤمن خير من عمله " , وقيل للإمام كيف تكون النيَّة خير من العمل ، قال : لأن العمل قد يكون رياءً للمخلوقين ، والنيَّة الخالصة تكون لرب العالمين ، فيعطى الأجر على النيَّة لا على العمل . والنيَّة سر لا يطلّع عليه إلا الله ، وهي ليست إختيارية كقول الذي يريد الأكل : (نويت أن أشتهي الطعام) , فالميل إلى الشيء يكون بإكتساب أسبابه , والثواب يترتب على النيَّة قبل العمل , ولذا قال سبحانه : (لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم) [402].

الشوق إلى الله وأفضل مراتبه [403]

أفضل مراتب الشوق ، هي الشوق إلى الله تعالى ، إن معرفة الله أقوى من سائر اللذات ، والشوق هو الميل والرغبة إلى الشيء عند غيبته ، فالحاضر لا يُشتاق إليه والموجود لا يُطلب ، فالشوق إلى شيء أدرِك من وجه ولم يُدرك من وجه آخر ، فما لا يُدرك أصلاً لا يشتاق إليه ، ولا يمكن لأحد أن يشتاق إلى شخص لم يره ولم يسمع وصفه ، فالشوق يختص بما أدُرك .
إن إدراك بعض كمالات المحبوب ، وعلم أن له كمالات أخرى ، ولم يدركها أو يصل إليها ، فيكون له شوق إلى إدراك تلك الكمالات .

ومن أوجه الشوق إلى الله تعالى :

الوجه الأول : لا يخلو عارف من الشوق إلى الله ، لأن ما إتضح للعارفين من الأمور الإلهية ، وإن بلغ غاية الوضوح ، فكأنه من وراء ستر رقيق ، فلا يكون متضحاً غاية الإتضاح , ويكون مشوباً ببعض التخيلات إلى بعض شواغل الدنيا ، المانعة للمعلومات اليقينية . فكمال الوضوح في الأمور الإلهية ، لا يكون في هذا العالم ، بل يكون في الآخرة ، وهذا هو سبب شوق العارفين إلى الله سبحانه ، وهو شوق لإستكمال الوضوح .

---

[400] (الأنبياء 90)
[401] (ص 538)
[402] (الحج 37)
[403] (ص 542)

الوجه الثاني : ولأن الأمور الإلهية لا نهاية لها ، وإنما ينكشف لكل عارف بعضها ، وتبقى أمور غير متناهية خفية عنه ، فهو يتشوق أن تحصل له معلومات أكثر ، متعلقة بعظمة الله وجلاله وصفاته وأفعاله .

الشوق الأول قد ينتهي في الآخرة ، عندما يحصل الشهود واللقاء المعنوي لله ، وعندما يحصل التجرد التام للنفس من موانع الطبيعة وقشورها ؛ أما الشوق الثاني ، فلا يمكن أن ينتهي ، لا في الدنيا ولا في الآخرة ، لأنه من المحال أن ينكشف للعبد كل صفات الله وأفعاله ، ولا يستطيع أن يحيط بعظمة الله ، فلا يسكن شوقه ، وما من عبد إلا ويرى فوق درجته درجات كثيرة لا نهاية لها ، ولكن أصل الوصال واللذة حاصل ، فالشوق إلى المراتب العليا لا ألم فيه ، بل اللذَّة الدائمة ، وربما كانت من لطائف الكشف والبهجة المتوالية إلى غير نهاية .

وتحصل هذه الدرجات أيضاً في الآخرة على التدريج ، فلا يزال العبد يترقى ويتصاعد إليها ، ولا يزال النعيم واللذة تتزايد إلى الأبد بدون إنقطاع ، وقد قال الله تعالى إشارة إلى هذا المعنى : (نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا) [404] , ولا يحصل ذلك للعبد الذي لم يكتسب في الدنيا أصل هذا النور, وقول الله تعالى يدل على ذلك ، حيث يقول عن الكفار وقولهم للمؤمنين :(إنظرونا نقتبس من نوركم قيل إرجعوا وراءكم فالتمسوا نورا)[405], وهذا يدل على أن الأنوار لا بد أن يتزود أصلها في الدنيا ويزداد في الآخرة إشراقاً , فأما من لم يكتسب نوراً في الدنيا ، فلن يكون له نور في الآخرة ؛ وظهر مما ذكر أنه لا ريب في ثبوت الشوق للعباد إلى الله تعالى ، والعجب ممن أنكر هذا الشوق ، لأنه في الحقيقة لا يوجد عنده أصل الحب ، فكيف يكون له شوق, وقد قال الله تعالى : (فمن كان يرجو لقاء ربِّه)[406], ولا يكون حب إلا بمعرفة وإدراك ، فلا يحب الإنسان ما لا يعرفه ولا يدركه .

الحب ومبادئه [407]

أسباب الحب متعددة ومختلفة ، وينقسم لأجلها إلى أقسام :

الأول : حب الإنسان لنفسه ووجوده وبقائه ، وهو أشد أقسام الحب وأقواها ، لأن المحبة تكون بقدر المعرفة ، ولا أحد أقوى بمعرفة الشخص من نفسه . ولهذا جعلت معرفة النفس ، مفتاحاً لمعرفة الرب كما يقول أمير المؤمنين (ع) : " من عرف نفسه فقد عرف ربه " . وكلما كان الإتحاد بين المحب والمحبوب أشد ، كان الحب مؤكد أكثر ، والحب هو غريزة في الطبع والفطرة ، وهو من سُنن الله في خلقه , يقول الله تعالى : (ولن تجد لسنَّة الله تبديلا) [408].

الحب للنفس معناه ، حب دوام الوجود ، وكره العدم والهلاك ، فالوجود محبوب ، والعدم ممقوت ؛ والخوف من الموت ، ليس فقط مما بعد الموت ، ولا لسكرات الموت ، ولكن لظن الشخص

---

[404] (التحريم 8)
[405] (الحديد 13)
[406] (الكهف110)
[407] (ص 547)
[408] (الأحزاب 62)

إن الموت إنعدام . وبما أن الوجود محبوب ، والعدم مبغوض ، فإن جميع الصفات الكمالية راجحة للوجود ، وجميع النقائص راجعة للعدم . وبما أن وجود بعض الصفات الكمالية ، هي من مراتب الوجود ، فكأن الوجود مركَّب من وجودات متعددة ، فإذا فقد بعضها ، فكأنه فاقد لبعض أجزاء وجوده ، وبذلك يظهر أن الموجود كلما كان أقوى ، كان وجوده أتم ، وكلما كانت صفاته الكمالية أقوى وأكثر، فوجوده تام وقائم بنفسه ويكون محيطاً بالكل .

إن محبة الأولاد يرجع إلى هذا القسم ، لأن الإنسان عندما يحب ولده ، ويتحمل المشاق لأجله ، لشعوره بأنه خليفته في الوجود بعد عدمه ، فكأن بقاءه ، نوع من البقاء له ، ولفرط حبه لبقاء نفسه ، يحب من هو قائم مكانه ، وبمنزلة جزء منه ، لأنه عجز عن بقاء نفسه ، وكذلك حبّه لعائلته واقاربه فهو يعود إلى حبه لكمال نفسه ، فإنه يرى نفسه كبيراً قوياً ، لأن العائلة هي الجناح المكمَّل للإنسان .

<u>الثاني</u> : هو حب الغير ، من أجل إشباع الغرائز ، كحب الطعام والشراب والملبس والزواج ، وهذا الحب مؤقت سريع الزوال ، بزوال أسبابه .

<u>الثالث</u> : حب الإحسان ، وحب الخير من مال وصحّة وعلم ، لأن بها كمال وجوده ، وهي الأسباب الموصلة إليه .

<u>الرابع</u> : حب الشيء لذاته ، كحب الجمال والحُسن ، ولأن حب الجمال هو إدراك لبعض الملذات ، ولكنه حب للظاهر ، وهناك حب أرقى ، وهو حب الصفات المدركة بالعقل ، والبصيرة الباطنة ، مثل : حسن الخلق ، والعلم الحسن ، والسيرة الحسنة ، وهذه الأمور لا تدرك بالحواس الظاهرة ، بل تُدرك بالبصيرة الباطنة وهي محبوبة . ومما يدل على حب الجمال المدرك بالعقل والبصيرة ، هو حب الأنبياء والأولياء ، مع أنهم لم يشاهدوهم ، حتى أن المحب يتجاوز حبه ، فيصير عاشقاً لما يؤمن به مستعداً أن ينفق جميع أمواله في نصرته والذب عنه ، ويخاطر بروحه في قتال من يطعن في إمامه ، مع أنه لم يشاهده قط ، ولم يرى صورته ، ولم يسمع كلامه .

هذا الحب ، هو إستحسان الصفات الباطنة ، من فضائل وقدره ، وإحاطة العلوم ، ونشر الخيرات في العالم ، فهذه الأمور كلها غير مُدركة بالحواس ، ولكنها محبوبة بالطبع . ولذلك فإن الناس لما وصفوا (حاتماً) بالسخاء ,(وأنو شروان) بالعدالة أحبتهما القلوب من دون النظر إلى صورهما المحسوسة ، بل إن كل من حُكي عنه بعض خصال الخير وصفات الكمال ، غُلب على القلوب حبُّه ، مع عدم مشاهدته ، ومن كانت بصيرته الباطنة أقوى من حواسه الظاهرة ، ونور العقل غالب على الحواس ، كان حبُّه للمعاني الباطنة أكثر من حبه للمعاني الظاهرة ؛ فشتّان بين من يحب صورة جميلة ظاهرة ، وبين من يُحب سيد الرسل (ص) لجمال صورته الباطنة .

<u>الخامس</u> : الحب بين من تجمعهم صفات خفيَّة معنوية غير ظاهرة من دون جمال الظاهر ، ولا طمع في مال ولا جاه ، بل مجرد تناسب الأرواح , كما قال النبي (ص) :
" الأرواح جنود مجندَّة ، فما تعارف منها إئتلف ومن تنافر منها إختلف " .

السادس : بين من صار بينه وبين الغير ألفة وإجتماع كالمرافق بالسفر ، لأن طباع البشر مجبولة على المؤانسة والتلاقي والإجتماع ، ولأن المؤانسة هي طبع الإنسان ، ولذلك سمي إنساناً ، فهو مشتق من الأنس ، والمؤانسة لا تنفك عن المحبة ، فتحصل المؤانسة والحب بين أهل البلد ، وبين أهل القرى ، وحتى بين أهل البلاد المتباعدة . ومن أسرار الأمر بالجمعة والجماعة وصلاة العيدين ، والحج هو إجتماع الخلق في موقف واحد .

السابع : الحب لمن يتشاركا في بعض الأوصاف ، كميل الطفل للطفل ، والشيخ للشيخ ، والتاجر للتاجر... فالإنسان يميل إلى من يشاركه الأوصاف .

الثامن : حب الفرع للأصل ، والأصل للفرع ، فكأن كل واحد منهما في حبه للآخر ، يحبّ نفسه .

وأقوى أسباب حصول المحبَّة بين الله وعباده العارفين ، ان الله هو موجدهم وخالقهم ، ومعطياً لهم كل ما إحتاجوا إليه في النشأتين , وبما أن الله تعالى تام فوق التمام ، في الذات ، وفي الصفات الكمالية ، والنفس الإنسانية التي خلقها ، جعلها مفطورة على حب الكمال المطلق ومشتاقة إليه , فالحب متبادل بين العبد وربَّه . وهذه المحبة هي فرع من من أصل ، ولذا قال سيد الرسل (ص) : " ما إتخذ الله ولياً جاهلاً قط " ؛ ومن هذا الحب المتبادل ، الذي هو محبة الفرع والأصل ، حب الأبوين لولدهما ، لأنهما يظنان أن الولد جزء منهما ، وليست محبة الإبن لأبويه كذلك ، بل هي أضعف لفقد بعض الأسباب الباعثة لهذا الحب , ولذلك أمر الله في الشريعة ، أن يحب الأولاد الآباء دون العكس . وكذلك الحب بين المعلم الذي هو الأب الروحي للمتعلم , وقد سُئل ذي القرنين : " من أحب إليك أباك أم أمك ؟ فقال معلّمي أحب إليّ لأنه سبب لحياتي الباقية ، وأبي سبب لحياتي الفانية ". وقال أمير المؤمنين (ع) : " من علمني حرفاً صرت له عبداً ". وعلى هذا ينبغي ، أن يكون حب النبي (ص) وأوصياؤه ، أهم من جميع أقسام الحب ، بعد محبة الله سبحانه ، لأنه المعلم الحقيقي ، والمكمَّل الأول ، ولذلك قال سبحانه : " لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وأهله وولده " .

التاسع : (لا محبوب حقيقة إلا الله) , من بلغ مقام التوحيد الحق ، وعلم إنتساب الكل إلى الله ، وعلم النسبة التي تربط بين الله ومخلوقاته ، فعليه أن يحب جميع المخلوقات من حيث إشتراكه معهم في المُوجد الحقيقي . إن جميع اسباب الحب مجتمعة في حق الله تعالى ، ولا توجد في غيره ، ووجودها في غيره مجتمعة ، وهمٌ ، وتخيلٌ ومجازٌ لا حقيقة له .

العاشر : محبة الأخوان والأقارب ، وكلما كان السبب أقرب كانت المحبة أكثر ، لذا تكون محبة الأخوين ، أشد من محبة أبناء الأعمام . وقد تجتمع بعض أسباب المحبة وأكثرها ، في شخص واحد فيتضاعف الحب ، كما لو أنه كان لأحد ولد جميل الصورة ، حسن الخلق ، كامل العلم ، حسن التديُّن ، محبٌ لوالديه وللخلق جميعاً ، كان حب والده له ، في غاية الشدَّة ، لإجتماع أكثر أسباب الحب فيه .

أسباب الحب لله

معلوم أن وجود كل أحد ، هو فرع لوجود ربه ، وظلٌّ له ، ولا وجود له من ذاته ، فوجوده وكماله من الله وبالله وإلى الله . فالله هو المُوجد ، وهو المُبقي له ، وهو الذي أعطاه صفات الكمال ، فالإنسان هو صرف العدم ، لولا فضل الله عليه بالإيجاد ، وهو هالك بعد وجوده . وليس في الوجود شيء له قوام بنفسه ، إلا الله القيوم المطلق الذي هو قائم بذاته . ويتضح من ذلك ، أن محبة كل شيء ترجع إلى أن هذا الشيء هو من ربّه ، وإن لم يشعر المحب به ، وكيف يُتصوّر أن يحب الإنسان نفسه ، ولا يحب ربه الذي به قوام نفسه ، لأن من أحب الظلَّ ، أحبَّ بالضرورة الشجرة التي بقوامها الظل ، ومن أحب النور أحبَّ لا محالة الشمس التي بها قيام النور، وكل ما في الوجود كالظلِّ ، إذ أن الكلَّ من آثار قدرته ، ووجودٌ تابعٌ لوجوده . فإن أحببت المحسن ، فإن المحسن الأساسي هو الله ، وهو خالق الإحسان ، وفاعل أسبابه ودواعيه ، وهو قطرة من بحار كماله وأفضاله . وإذا أحببت الحُسن والجمال والكمال ، فهو الجمال المطلق والكمال المطلق ، وما يوجد من جمال في غيره لا يخلو من نقص وخلل ، لأن النقص شامل لجميع المخلوقات ، وإنما تتفاوت في درجات النقص .

لقد تبيَّن لنا أن الجمال المعنوي ، هو الأقوى من الجمال الصُوَري ، والجمال المعنوي الكامل هو الله . فإذا كان الجمال المنقوص محبوباً ، فكيف بالجمال الخالص البحث ، فكل من أحب جميلاً ، أحب خالقه ، لكنه إحتجب تحت وجوه الأحباب . وأما محبة النفس ، فهي لا ريب مخفيَّةٌ مع باريها ومُوجدها ، وهي بارقة من بوارق جماله ولذا قال عزوجل : (الروح من أمر ربي) [409], وقال : (إني جاعل في الأرض خليفة)[410] , فالنفس الإنسانية مهيأة لأن تكون خليفة الله , وهي من روحه , ولذلك يقول في الحديث القدسي : " لا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته ، كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ولسانه الذي ينطق به ".

الشهود التام هو نهاية درجات العشق [411]

يقول أساطين الحكماء : أن الأشياء لا يمكن أن تتآلف ، ويحصل بينها الإتحاد والمحبة ، وأما الأشياء المتماثلة والمتشابكة ، يحصل بينها التآلف والحب والوحدة ؛ فالماديات لا يمكن أن يحصل بينها التآلف ، وإذا حصل فلا يكون بالحقائق والذوات . فالنفس الإنسانية بجوهرها الناطق غير المادي ، كلما تخلَّت وتطهرت عن الأمور المادية من شهوات وغيرها ، كلما إنجذبت إلى عالم القدس , وحدث لهذه النفس شوق إلى أشباهِها من الجواهر المجرَّدة ، وترتفع تدريجياً حتى تصل إلى ما هو فوق الكل ، ومنبع الخيرات وتصل إلى مقام التوحيد ، الذي هو نهاية المقامات ، فيفيض عليها من أنواره ، ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، فتجعل لصاحب هذه النفس ، ما يضمحل عنده كل بهجة ولذة دنيوية . والنفس التي بلغت هذا المقام ، لا يتفاوت

---

[409] (الإسراء 85)

[410] (البقرة 30)

[411] (ص 554)

حالها ، في حالة التعلق بالبدن أو التجرد عنه ، إذ أن إستعمال القوى البدنية ، لا يصدها عن ملاحظة الجمال المطلق ، وما يحصل لها في هذه النشأة .

وتسمى هذه المرتبة ، بالشهود التام والإبتهاج الصافي وهذا الإبتهاج الصافي ، يتوقف على تجردها الكلي عن البدن ، إلا أنها لا تخلو عن شوائب الكدرة الناشئة من الطبيعة ، ولذا تشتاق أبداً إلى رفع هذا الحجاب . وهذه المحبة هي نهاية درجات العشق ، وغاية الكمال المتصورة لنوع الإنسان ، وذروة مقامات الواصلين إلى أعلى مراتب الكمال , وما يحصل بعدها من مقام فهو ثمرة من ثمراتها .

المنكرين لحب الله [412]

قد ظهر مما ذكر ، ثبوت حقيقة المحبة ولوازمها من الشوق والأنس لله تعالى ، وأنه المستحق للحب دون غيره وبذلك ظهر فساد زعم من أنكر إمكان حصول محبة العبد لله تعالى ، وقال لا معنى لها إلا المواظبة على طاعة الله ، وأما حقيقة المحبة فمحال ، إلا مع من هو من بني جنسه .

ولما أنكروا المحبة ، أنكروا الأنس والشوق ولذّة المناجاة وسائر لوازم الحب وتوابعه ، ويدل ذلك على فساد هذا القول مضافاً إلى ما ذكر من إجماع الأمّة على أن حب الله ورسوله فرضاً ، وما ورد في الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية والأئمة الأطهار ، والآثار ، من إتصاف الأنبياء والأولياء وحكايا المحبين , من الكثرة والصراحة حداً لا يقبل الكذب والتأويل ؛ فمن شواهد القرآن , قال الله تعالى : (يحبهم ويحبونه)[413] , و(الذين آمنوا أشدّ حباً لله)[414] , وقوله تعالى : (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم... (إلى قوله) أحب إليكم من الله ورسوله...)[415] .

وأما الأحاديث الواردة : قال رسول الله (ص) : " لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه من سواهما ", وقال (ص) : " الحب من شروط الإيمان " . وروي أنه جاء أعرابي إلى النبي , فقال : يا رسول الله متى الساعة ؟ قال (ص) : وما أعددت لها ؟ قال : ما أعددت لها كثير صلاة ولا صيام ، إلا أني أحب الله ورسوله ، فقال له النبي : " المرء مع من أحب ".

وقال أمير المؤمنين (ع) في دعاء كميل:" فهبني يا إلهي وسيدي ومولاي وربي صبرت على عذابك ، فكيف أصبر على فراقك ؟ " , ودعاء الإمام الحسين(ع) يوم عرفة , في مناجاته الطويلة : " أنت الذي أزلت الأغيار عن قلوب أحبائك حتى لم يحبوا سواك ، ويلجأوا إلى غيرك " , وقال (ع) : " يا من أذاق أحباؤه حلاوة المؤانسة " . وقال زين العابدين (ع) : " إلهي من ذا الذي ذاق حلاوة محبتك فرام منك بدلا ، ومن ذا الذي أنِسَ بقربك فابتغى عنك حولا ، إلهي! فاجعلني ممن إصطفيته لقربك

---

[412] (ص 557)
[413] (المائدة 54)
[414] (التوبة 25)
[415] (التوبة 25)

وولايتك ، وأخلصه لودك ومحبتك ، وشوفته إلى لقائك ، وفرغت فؤاده لحبك " , إلى أن قال : " أسألك حبك وحب من يحبك ، وحب كل عمل يوصل إلى قربك " .

وقال الإمام الصادق (ع) : " حب الله إذا أضاء على سر عبد ، أخلاه من كل شاغل وكل ذكر سوى الله ، والمحبّ أخلص الناس سراً لله ، وأصدقهم قولاً ، وأوفاهم عهداً ، وأزكاهم عملا ، وأعبدهم نفساً ، تتباهى الملائكة عند مناجاته ، وبه يعمر الله بلاده ، وبكرامته يكرِّم الله عباده ، ويعطيهم إذا سألوه بحقه ، ويدفع عنهم البلايا برحمته ، وإذا علم الخلق ما محلَّه عند الله ومنزلته لديه ، ما تقربوا إلى الله ، إلا بتراب قدميه " . وقال أمير المؤمنين (ع) : " حب الله نار لا يمر على شيء إلا إحترق ، ونور الله لا يطلع على شيء إلا أضاء ، فمن أحب الله أعطاه كل شيء , من المُلك والمَلك " , وقال النبي (ص) : " إذا أحب الله عبداً من أمتي قذف في قلوب أصفيائه ، وأرواح ملائكته وسكان عرشه , محبته ليحبوه ، فذلك المحب حقاً ، طوبى له ثم طوبى له ! وله عند الله شفاعة يوم القيامة ".

وما ورد في حب الله ، أخبار وأدعية المعصومين أكثر من أن تحصى ، وحكايات العشاق والمحبين بلغت من الكثرة والتواتر حداً لا يمكن إنكاره . وقد روي أن داوود سأل ربَّه أن يريه بعض أهل محبته فقال له : إئتِ جبل لبنان , فإن فيه أربعة عشر نفساً فيهم شبان وكهول ومشايخ ، وإذا أتيتهم فأقرأهم مني السلام ، وقل لهم : يقول ربكم : ألا تسألوني حاجة ؟ فإنكم أحبائي وأصفيائي وأوليائي، أفرح لفرحكم وأسارع إلى محبتكم ، فأتاهم داوود ، فوجدهم عند عين من العيون ، يتفكرون في عظمة الله وملكوته ، فلما نظروا إلى داوود ، نهضوا ليتفرقوا عنه ، فقال لهم داوود : أنا رسول الله إليكم ، جئتكم لأبلغكم رسالة ربكم ، فأقبلوا نحوه ، وألقوا أسماعهم نحو قوله ، وألقوا أبصارهم إلى الأرض ، فقال داوود: ربكم يقرؤكم السلام ، يقول لكم : ألا تسألوني حاجة ، ألا تنادوني فأسمع صوتكم وكلامكم ؟ فإنكم أحبائي وأصفيائي وأوليائي ، أفرح لفرحكم وأسارع إلى محبتكم ، وأنظر إليكم في كل ساعة نظر الوالدة الشفيقة الرقيقة .

ولما قال داوود ذلك جرت الدموع على خدودهم ، وسبحَّ الله كل واحد منهم ومجدَّه ، وناجاه بكلمات تدل على إحتراق قلوبهم من الحب والشوق .

معرفة الله أقوى من سائر اللذات [416]

إدراك الأشياء ، والميل إليها ، إن كانت متعلقة بالعقل ، أو القوة العاقلة ، عُبِّر عنها بالعلم والمعرفة وقد عرفت بأنها أشد وأقوى من الإدراك بالجوارح الحسيَّة ، كالبصر والسمع والذوق والشم واللمس ؛ ثم أن هذا الإدراك الذي هو العلم والمعرفة ، يختلف بالشرف والكمال بحسب المعلوم , أي أن كلما كان ، العلم والمعرفة أجلُّ وأعلى ، كمعرفة أشرف الموجودات وأكملها ، وهو الله عزوجل ، كانت اللذات أقوى وأشد ، ولا يمكن أن يُتصوَّر أن هناك لذةٌ أهم منها . فاللذات تابعة للإدراكات ، فلذات الحواس كل واحدة منها ، تابعةٌ لقواها ، ولذتها بنيلها ما يلائمها . أما غريزة العقل ، المسماة

---

[416] (ص 560)

بالبصيرة الباطنية ، فقد خلقت لتعلم الحقائق الأشياء كلها ، فلذَّتها في العلم والمعرفة ، فالعلم الإلهي والصفات الربوبيَّة ، لأنها منتهى الكمال ، فهي أقوى اللذات والإبتهاجات .

ومن عرف هذه اللذة ، إنمحت همومه وشهواته ، وصار قلبه مستغرقاً بنعيمها ، ولا يشغله عن الله ، خوف النار ، ولا رجاء الجنة ، فكيف تشغله لذَّات الدنيا ؟ وقد عبَّر سيد الرسل (ص), عن هذه اللذة ، قائلاً عن الله عزوجل : " أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا اذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر " , وقال تعالى : (فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرَّة أعين)[417] .

رؤية الله في الآخرة ولذة لقائه [418]

إن معرفة الله إذا حصلت في الدنيا لا تخلو من كدرة ما ، ولكن إكتساب أصل هذه المعرفة في الدنيا ، تزيدها إنكشافاً في الآخرة ، بقدر صفاء القلوب وتزكيتها وتجردها ؛ والرؤية سميت رؤية ، لأنها غاية الكشف وواضحة , كما أن سنَّه الله جارية ، بأن غلق أجفان العين يمنع الرؤية ، فكذلك النفس ، ما دامت محجوبة بالبدن وشهواته ، لن يحصل لها تمام الكشف الذي هو المشاهدة القلبية بقوة البصيرة ، فإذا إرتفع بالموت حجاب البدن ، خلصت النفس وتجردت . ولكن النفوس ، منها ما تراكم عليها الريَّن ، فهم محجوبون عن ربهم إلى الأبد ، ومنهم من حصل لهم التزكية التامة ، وبين المرتبتين ، هناك درجات ومراتب ، والنفوس المتلوثة على إختلاف درجاتها ، تحتاج إلى التطهير ، لتعود وتستعد للمشاهدة واللقاء بتجلّي الحق فيها . وتطهيرها يكون بنوع من العقوبات الأخروية ، أولها سكرة الموت وآخرها الدخول في النار ، وبينهما عقوبات البرزخ , ومنها ما يعرض على النار عرضاً ، بحيث يتطهر الخبث الذي تدنست به ، وربما كان الوقت لهذا التطهر لحظة ، أو يكون سبعة آلاف سنة ، وربما اقل أو أكثر ، ولا يعلم تفصيل ذلك إلا الله سبحانه .

ثم إن النفوس القابلة للتطهير ، إذا تطهرت وتزكَّت , إستعادت صفاءها ونقاءها ، فيتجلَّى فيها الحق ، وهذا التجلّي يسمى الرؤية ، لأن الظهور والجلاء والإنكشاف كالرؤية بالبصر ، بل هو فوقه بمراتب ، إذ أن الذي يرى في البداية هو العقل ، وفي المرتبة الثانية البصر ،

وهناك فرق شاسع بين الرؤية بالعقل وبين الرؤية بالبصر, فإن للعقل نفوذ وقوة في حقائق الأشياء وبواطنها ، لا يمكن ان تكون للبصر . ولذلك لا يفوز بدرجة المشاهدة والرؤية ، إلا العارفون في الدنيا ، لأن المعرفة هي البذر الذي زرع في الدنيا وأصبح شجرةً وزرعاً ، ومن لا نواة له كيف يكون نخلاً ومن لم يُلقِ البذر ، فكيف يحصد الزرع ، ومن لم يعرف الله في الدنيا فكيف يراه في الآخرة . ولماّ كانت المعرفة على درجات متفاوتة ، فإن التجلي أيضاً على درجات ، وكلما كانت المعرفة والتجليّ والمشاهدة أقوى كان ما يترتب عليه من حب الله والأنس به أشد وأقوى ، وتبلغ هذه اللذة مرتبةً لا تؤثر عليها لذة أخرى من نعيم الجنَّة ، بل ربما بلغت حداً ، صارت تتأذى من كل نعيم سوى الله ومشاهدته ، فأصل السعادات ، هي معرفة الله التي عبَّر عنها الشرع ب (الإيمان) .

---

[417] (السجدة 17)
[418] (ص563)

من خلا من معرفة الله ، أو كانت معرفته ضعيفة ، فهو يحتقر ويقلل من لذَّة هذه المعرفة وحب الله ، فقلبه مشحون بأمور الدنيا ، ولا يدرك هذه اللذَّة ، وأما من صفت سريرته ، من علائق الدنيا ، وكمُلت معرفته ، قويت بهجته ولذَّته ، بحيث لا توازنها لذَّة ، فإن للعارفين بالله ، إبتهاجات ولذَّات لو عُرضت عليهم الجنَّة ونعيمها في الدنيا بدلاً عنها ، لما إستبدلوها بها ، فكيف بلذة اللقاء والمشاهدة . ولكن لذة المعرفة في الدنيا ، مع حجاب البدن ، ومع تسلط الشهوات ، ومع ضعف النفس وقصورها ، فالعارف لا يخلو تماماً من هذه العوائق والمشوشات ، وإن قويت معرفته ، لا يمكن أن تكمل لذَّته وتصفو بهجته ، وصحيح أن المشوشات قد ضعفت ، وبقي سالماً ، فهو عندما يلوح له جمال المعرفة تُعظم لذته ويدهش عقله ، ويكاد يتفطر قلبه لعظمة الخالق ، إلا أن ذلك الشعور كالبرق لا يمكن أن يدوم ، لأن الخلو من العوائق والمشوشات لا يدوم بل هو آني ، وهذه ضرورة في الحياة الفانية ، فلا تزال هذه اللذة منغصة إلى حين الموت ، والعيش عيش الآخرة (فإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون) . ولذا إن كل عارف كملت معرفته في الدنيا وأحب لقاء الله ، يحب الموت ولا يكرهه ، إلا من حيث إرادة إزدياد المعرفة بالله وصفاته ، وبأفعاله واسراره ، فكلما كثر البذر وحسن ، كثر الزرع وحسن .

ولا ريب أن المعرفة ، لا تنتهي إلى مرتبة , إلا تكون فوقها مرتبة ، والإحاطة بكنه جلال الله محال . أما من قال بأن رؤية الله في الآخرة بالعين والبصر ، فهو محال وباطل ، سواء كان في الدنيا أو في الآخرة ، فرؤية الله في الآخرة ، بالعقل والبصيرة لأهل البصائر , وهي غاية الإنكشاف والوضوح ، بحيث تؤدي إلى المشاهدة ولكن بغير البصر ، وكذلك تجوز رؤية الله في الدنيا بهذا المعنى ، والحجاب بين الله وبين خلقه ، ليس إلا الجهل وقلَّة المعرفة ، فإن العارفين يشاهدونه في الدنيا في جميع أحوالهم ، وإن المشاهدة في الآخرة ، أزيد إنكشافاً وأشد جلاءً ، حسب صفاء النفوس وزكائها ، وتجردها عن الدنيا ، وقد ثبت عند أئمتنا العارفين بأسرار النبوة هذا الأمر .

سئل أمير المؤمنين(ع) : " هل رأيت ربك ؟ قال : ويلك كيف أعبد رباً لم أره ، ولكن لا تدركه العيون بمشاهدة الأبصار ، ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان " .
وقال سيد الشهداء(ع) : " متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك ، ومتى بعُدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك ؟ عميت عين لا تراك عليها رقيبا ، وخسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبك نصيبا " . وأمثال ذلك مما ورد عنهم عليهم السلام أكثر من أن تحصى .

الطريق إلى رؤية الله ولقائه [419]

لتحصيل محبة الله وتقويتها ، والإستعداد للرؤية واللقاء , هناك أمران :

أحدهما : تطهير القلب من شواغل الدنيا وعلائقها ، والتبتل إلى الله بالذكر والفكر والدعاء ، ثم إخراج حب غير الله من القلب , إذ أن القلب مثل إناء مليء بالخل ، فإذا أردت أن تملأه ماءً فعليك إخراج الخل منه , " وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه" .
وثانيهما : تحصيل معرفة الله وتقويتها ، لأن قطع العلائق بالدنيا هي بمثابة ، تنقية الأرض من

[419] (ص 568)

الحشائش الضارة ، فليس كل ما في الدنيا هو ضار ، فهي مزرعة الآخرة . والمعرفة هي بمثابة البذر الذي يزرع في الأرض ، فينمو ليصبح شجرة المحبة والإيمان .

ولتحصيل المعرفة طريقان :

أحدهما : الإستدلال بالله ، وبأفعاله وآثاره ، وبما يقوله لنا في كتابه الكريم :
(أو لم يكف أنه على كل شيء شهيد)[420] .

وثانيهما : الإستدلال بالخلق الذي خلقه الله سبحانه ، وهذا الطريق هو في غاية الوضوح ، إذ ما من ذرَّة من أعلى السماوات إلى أدنى الأراضي ، إلا وفيها ، عجائب آيات وغرائب بيّنات تدل على وجود الخالق ، وكمال قدرته ، وحكمته وجلاله وعظمته فما لا نهاية له ؛ وقد قال سبحانه : (قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفذ البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي)[421] , إن عدم وصول البعض إلى معرفة الله مع كل هذا الوضوح ، هو الإعراض عن التفكر والتدبر بآيات الله التي تملأ الوجود ، والإشتغال بالأمور الدنيوية التي تخص النفس والذات . وسلوك طريق الإستدلال على الله تعالى ، وعلى كمال قدرته وعظمته ، هو بالتفكر في الآيات التي هي في الأنفس وفي الآفاق . إن عجائب ملكوت السماوات والأرض ، لا يمكن أن تحيط بها العقول ، ولكن علينا تحصيل ما نقدر عليه ، فالإنسان العادي ، هو غير العالِم ، والعالِم غير الأنبياء والأولياء ؛ ولكن كل ما أحاط به الخلائق ، هو القليل من علم الله , (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) .

تفاوت المؤمنين في محبة الله [422]

علينا أن نعلم أن المؤمنين جميعاً مشتركون في أصل محبة الله ، ولكنهم متفاوتون في قدرها ؛ إن أكثر الناس ، ليس لهم من معرفة الله إلا ما قَرَع أسماعهم من أن الله متصف بكذا وكذا ، دون محاولة معرفة معنى كلمة الله والتدبر فيها . أما العارفون، فهم يخوضون في بحر من التفكر والتدبر ، في أنواع المخلوقات ، وإستخراج ما فيها من الحِكم الخفيَّة ، وكل واحد منها هو شعلة تزيل ظلام الجهل ، وتنير طريق الهداية إلى عظمة الله وقدرته .

المؤمنون الذين يحبون الله ، ولكن لا يعلمون ولا يعرفون عنه إلا القليل ، مثلهم كمثل شخص أحبّ عالماً بمجرد أن سمع عنه أنه متعّمق في العلم , سمعته طيبة وكل صفاته جميلة , وهو محبوب جداً وإكتفى بذلك . لكن العارفون ، كمثل شخص فتَّش عن كتب هذا العالم , وقرأها وإطّلع على ما فيها من دقائق المعاني المفيدة , ومن الحكمة والبلاغة والعلم ، وإستفاد منها وعمل بها . إن عجائب القدرة الإلهية غير متناهية ، ولا يمكن لأحد أن يعرفها أو يحيط بها ، وإنما كل ينتهي إلى ما يحصَّله من معرفة ، ومراتب الحب غير متناهية ، وكل عبد يحصل على المرتبة حسب معرفته .

---

[420] (فُصِّلت 52)
[421] (الكهف 109)
[422] (ص 569)

الله أظهر الموجودات [423]

عجباً لأناس عميت قلوبهم عن معرفة الله سبحانه ، مع أنه تعالى أظهر الموجودات وأجلاها ، ولولاه لم يتحقق وجود أصلاً , قال سبحانه : (الله نور السماوات والأرض)[424] , والنور هو الظاهر لنفسه ، المُظهر لغيره وجود الله تعالى , يدل عليه كل شيء ، والسبب في خفائه مع أنه أجلى وأظهر من كل شيء ، هو شدّة وضوحه وظهوره ، فشدَّة النور تبهر الأبصار ، وضعف العقول المدركة دُهشت لعظمته . فلو كانت الشمس دائمة الإشراق لا غروب لها ، لما شعر بضوئها أحد ، ولكن الظلام بعد ذلك ، جعلنا نعلم الفرق بين الحالتين ، فعرفنا وجود النور وعدم وجوده .

والله ظاهرٌ في نفسه ، مظهرٌ لغيره ، به ظهرت الأشياء كلها ، ولو كان له عدم ، أو غيبة ، أو تغيرَّ ، لإنهدمت السماوات والأرض ، وبطل المُلك والملكوت ، عندها ندرك الفرق بين الحالتين ، ولكن وجوده دائم يستحيل خلافه ؛ قال أمير المؤمنين(ع) : " لم تحِط به الأوهام ، بل تجلى بها ، وبها إمتنع عنها " ؛ وقال : " هو ظاهر في غيب ، وغائب في ظهور ، قرب فدنا ، وظهر فبطن ، وهو دانٍ ولم يدنِ ".

علامات محبة الله [425]

الأولى : أن المؤمن يحب اللقاء والمشاهدة ، ويحب الموت ويتمناه ، لأن كل من يحب شيئاً يحب لقاءه ووصله ثم إن من يكره الموت ، فهو يكرهه بسبب حبه للدنيا والتأسف على فراق الأهل والأولاد والأموال ، لأنه يرى في الدنيا غاية مُراده ، فهو لن يتمنى الموت ، ولا يجد في قلبه شوقاً إليه مطلقاً ، ومثل هذه الكراهة للموت ، هي منافية للحب لله ، لأنه لو لم يكن كل غايته حب الدنيا ، لترك حيِّزاً من قلبه لحب الله . وحب الله متفاوت في القلوب ، وعلامة حب الله ، هو طلب المعرفة ، والجد في الأعمال الصالحة التي ترضي الله والإستعداد للآخرة .

الثانية : فمن يكون محباً لله ، فهو يمتثل لأوامره ، ويجتنب نواهيه ، ولا يكون كسولاً وبطالاً ، بل مواظباً على الطاعة ، مبتهجاً بها . وقد روي : " أن زُليخه لما آمنت , وتزوج بها يوسف (ع) إنفردت عنه ، وإنقطعت للعبادة إلى الله تعالى ، وكان يوسف يدعوها إليه ، فتماطل وتسوَّف ، فعاتبها في ذلك , فقالت : يا رسول الله ! إنما كنت أحبك قبل أن أعرف ربك ، فأما إذ عرفته ، فلا أؤثر على محبته سواه ، وما أريد به بدلا ". ثم إن العصيان ، يضاد كمال المحبة ،

---

[423] (ص 570)
[424] (النور 35)
[425] (ص 571)

لا أصلها فقط ، لذا فقد يأكل الشخص المريض ما يضره ويزيده مرضاً ، مع أنه يحب نفسه ويحب صحته ، والسبب ضعف المعرفة والإرادة ، وغلبة الشهوة , فيعجز عن القيام بمحبة النفس .

الثالثة : محب الله ، لا يخلو من ذكر الله وذكر رسوله ، وذكر كلامه الذي هو القرآن ، لأن في كلامه كمال الأنس والإلتذاذ والحب .

الرابعة : ألا يحزن ولا يتألم من فقد شيء ، ولا يفرح بوجود شيء ، سوى ما يقربَّه إلى الله ، أو يبعده عنه . فلا يحزن ولا يجزع في المصائب ، ولا يتأسف على ما يفوته من الأمور الدنيوية ، إلا ما فاته من طاعة الله التي تقربه إلى محبوبه ، أو على صدور معصية تبعده عنه ، أو على ساعة خلت من ذكره وأنسه .

خامساً : أن يكون خائفاً متذللاً ، لعظمة الله وجلاله ، وليس الخوف مضاداً للحب ، فالخوف من البعد عن الحبيب أو الإعراض عنه ، أو عدم رفع الحجب التي تحجبه عنه هو مستحسن.

سادساً : كتمان الحب والشوق ، وعدم الإدّعاء ، والمحافظة على السر ، فالحب سر من أسرار العبد ، فلا ينبغي إفشاؤه ، ولكن قد يظهر أحياناً بدون إختيار منه ، فهو معذور ، وعلى المؤمن أن لا يدّعي الوصول إلى الرتب العالية من الإيمان ، وأن يطلّع على ما كان الأنبياء والأولياء ، يعترفون به من عجز وقصور .

حب الله لعبده [426]

الآيات القرآنية تنطق بأن الله سبحانه يحب العبد , كقوله تعالى : (يحبهم الله ويحبونه)[427], وقوله تعالى : (إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين)[428] , و (إن كنتم تحبون الله ، فإتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم) [429] , وقال رسول الله (ص) : " إن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب ، ولا يعطي الإيمان إلا من يحب ", وقال(ص) : " إذا أحب الله عبداً إبتلاه ، فإذا صبر إجتباه ، وإن رضي إصطفاه ", وقال (ص): " من أكثر ذكر الله أحبه الله ". وقال (ص) : " لا يزال العبد يتقرَّب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته ، كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ولسانه الذي ينطق به " .

وقال : " إذا أحب الله عبداً ، جعل له واعظاً من نفسه ، وزاجراً من قلبه يأمره وينهاه " , وأمثال ذلك من الأحاديث لا تعد ولا تحصى ؛ ولكن حب الله ، له معنى غير الذي يكون بين النفوس الناقصة ، والتي هي بحاجة إلى غيرها ، كالبشر .

---

426 (ص575)
427 (المائدة 54)
428 (البقرة 222)
429 (آل عمران 31)

" فالله هو الوجود كله بصفاته وأفعاله " , وليس المراد من محبة الله لعبده ، هي الإبتهاج ، ولكن حب الله ، هو كشف الحجاب عن قلب العبد ، وتطهير باطنه من كل تلوث ، فيكون الصفاء وإرتفاع الحجب ، والشعور بالقرب ؛ فالتغييرُ ليس لله سبحانه ، ولكن للعبد الذي يترقى إلى مدارج الكمال ، ويتحلى بمكارم الأخلاق ، التي هي من الصفات الإلهية ، فكلما حصل على درجات ومراتب ، كلما كان أقرب إلى الله ، ودرجات القرب غير متناهية لعدم تناهي درجات الكمال ، ولأن الله هو الكمال المطلق .

الحب في الله والبغض في الله [430]

الأحاديث كثيرة في مدح الحب في الله والبغض في الله ، وفضيلته وثوابه, قال الرسول (ص) : " حب المؤمن للمؤمن في الله أعظم شِعب الإيمان ، إن من أحب في الله , وأبغض في الله ، ومنع في الله وأعطى في الله ، فهو من أصفياء الله ". وقال(ص) لأصحابه : " أي عرى الإيمان أوثق ؟ فقالوا الله ورسوله أعلم ، فقال بعضهم : الصلاة والصيام ، وقال بعضهم الحج والعمرة ، وقال بعضهم الجهاد ، فقال رسول الله(ص) : " كل ما قلتم فضل، وليس به ، ولكن أوثق عرى الإيمان الحب في الله ، والبغض في الله ، وتولّي أولياء الله والتبرّي من أعداء الله " .
وقال الإمام الباقر(ع) :" إذا أردت أن تعلم أن فيك خيراً فإنظر إلى قلبك ، فإن كان يحب أهل طاعة الله ، ويبغض أهل معصية الله ، ففيك خير والله يحبك ، والمرء مع من يحب ".
وقال الإمام الصادق(ع) : " وهل الإيمان إلا الحب في الله ، والبغض في الله ؟ ثم تلا هذه الآية : (حبب إليكم الإيمان وزيَّنه في قلوبكم ، وكرَّه إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون)[431], وقال عيسى(ع) : " تحببوا إلى الله ببغض أهل المعاصي ، وتقرّبوا إلى الله بالتباعد عنهم , وإلتمسوا رضا الله بسخطهم " .

الأنس قد يثمر الدلال [432]

قال أبو حامد الغزالي : " الأنس إذا دام وإستحكم ، ولم ينغصه خوف العبد ، أثمر نوعاً من الإنبساط و الدلال ، في الأقوال والأفعال والمناجاة ، مع الله سبحانه ، وقد يكون منكراً بحسب الظاهر ، لما فيه من الجرأة ، ولكنه محتمل ممن كان صادقاً في حبه لله ، ولكن هناك أناس هلكوا , وأشرفوا على الكفر, ومثال على ذلك القصة التالية , عن مناجاة (برخ الأسود) :

و هي أن موسى(ع) إستسقى لبني إسرائيل بعد أن أصابهم القحط سبع سنين ، وخرج مع سبعين ألفا ، فأوحى الله عزوجل لموسى : كيف أستجيب لهم وقد أظلَّت عليهم ذنوبهم ؟ وسرائرهم خبيثه ، يدعونني على غير يقين ، ويأمنون مكري ، إرجع إلى عبد من عبادي يقال له (برخ) , فقل

---

[430] (ص 576)
[431] (الحجرات 7)
[432] (ص 581)

له أن يخرج حتى أستجيب له ، فسأل عنه موسى فلم يجده ، وذات يوم كان موسى يمشي في طريق , إذ بعبد أسود ، بين عينيه تراب من أثر السجود ، وشملةٌ قد عقدها في عنقه فعرفه موسى بنور الله عزوجل ، فسلَّم عليه وقال له : ما إسمك ؟ فقال إسمي (برخ) , فقال له موسى لقد طلبناك ولم نجدك ، إخرج معنا فإستسق لنا ، فخرج , وقال في كلامه :

" ما هذا من فعالك ، ولا هذا من حِلمك ، وما الذي بدا لك ؟ إستعصت عليك غيومك ؟ أم عاندت الرياح طاعتك ؟ أم نفذ ما عندك ؟ أم إشتد غضبك على المذنبين ؟ ألست كنت غفّاراً قبل خلق الخاطئين ؟ خلقت الرحمة وأمرت بالعفو ، أم ترينا أنك ممتنع ؟ أم تخشى الفوت متعجل بالعقوبة ؟... قال فما برح حتى إخضلّ بنو إسرائيل بالمطر, وأنبت الله عزوجل العشب في نصف يوم حتى بلغ الركب , ثم رجع (برخ) فإستقبله موسى ، فقال له : كيف رأيت حين خاصمت ربي كيف أنصفني ! فهمَّ به موسى ، فأوحى الله إليه ، إن برخ يضحكني كل يوم ثلاث مرات !!

ولا ريب أن أمثال هذه الكلمات الصادرة عن الإنبساط ، والدلال ، يحتمل من بعض العباد دون البعض ، فمن إنبساط الأنس قول موسى : (إن هي إلا فتنتك)[433], وهذا الكلام إذا كان من غير موسى (ع) فهو سوء أدب ، ولكن الذي أصبح في مقام الأنس ، يحتمل منه ما لا يحتمل من غيره . فهو لم يحتمل من يونس(ع) فعوقب بالسجن في بطن الحوت في ظلمات ثلاث ، لولا أن تداركته النعمة من ربه ، فنبذ بالعراء وهو مذموم ، ونهى الله نبينا أن يقتدي به , فقيل له : (فإصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم)[434] .

وهذه الإختلافات في المقام والأحوال بين العباد ، وبين الرسل (وتلك الرسل فضَّلنا بعضهم على بعض منهم من كلَّم الله ورفع بعضهم درجات)[435] , فالأنبياء والأولياء يختلفون في الصفات والأحوال ، فعيسى كان في مقام الإنبساط والدلال , وقد قال : (والسلام علَّي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياًّ)[436] , وكيف إحتمل الله لأخوة يوسف ما فعلوا به ، فغفر لهم وعفى عنهم ، ولم يحتمل لعزير في مسألة واحدة ، سأل فيها عن القدر ، حتى قيل : لئن عاد محي إسمه من ديوان النبوَّة ، ومن فوائد هذه القصص ، أن نعرف سنّة الله في عباده الذين خلوا من قبل ، فما في القرآن من شيء إلا وفيه أسرار وأنوار يعرفها الراسخون في العلم .

العزلة [437]

---

[433] (الأعراف 155)
[434] (القلم 48)
[435] (البقرة 253)
[436] (مريم 12)
[437] (ص 583)

إن من بلغ مقام الأنس ، غلب على قلبه حب العزلة عن الناس ، لأن مخالطة الناس ، تشغل القلب عن التوجه إلى الله ، فلا بد من بيان الأفضل ، أيهما أفضل العزلة أم المخالطة .
العلماء مختلفون في ذلك ، لأن لكل واحدة منهما فوائد ومفاسد , قال رسول الله(ص) : " إن الله يحب العبد التقي الخفي " , وقال الإمام الصادق(ع) : " فسد الزمان ، وتغيرّ الإخوان ، وصار الإنفراد أسكن للفؤاد ". أما فوائد العزلة ، فهي إفراغ القلب للعبادة ، والذكر والفكر ، والبحث عن أسرار الله وحكمته ، في ملكوت السماوات والأرض ، والهروب من المعاصي ، كالغيبة والرياء وسائر آفات اللسان ، والتخلص من الفتن والخصومات وأخطارها ، ومن شر بعض الناس ، وإيذائهم عدم مشاهدة الظلمة والفسقة والحمقى ، وأخلاقهم السيئة .

أما القائلين بتفضيل المخالطة وفوائدها وما ورد في مدحها ، كقول النبي (ص) : المؤمن أَلِفٌ ومألوف ، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف ". وهناك أحاديث كثيرة تذم البعد عن الإخوان , وقوله(ص) : " عليكم بالعامة والجماعة والمساجد " .

ومن فوائد المخالطة : التعلم والتعليم ، ومجالسة أصحاب الأخلاق الفاضلة ، والإستماع للمواعظ والنصائح ، ونيل الثواب بحضور الجمعة والجماعة ، وعيادة المرضى ، وزيارة الإخوان ، وقضاء حوائج المحتاجين ، ورفع الظلم عن المظلومين ، وإدخال السرور على المؤمنين ، والأنس بأهل الورع والعبادة والتقوى وهذه الأمور تروِّح عن القلب ، وتشجعّ على العبادة ، والإستفادة من تجارب الآخرين ، في أمور الدين والدنيا . ولكل من العزلة والمخالطة ، فوائد ومفاسد ، ومن الحكمة أن لا ترجح واحدة على الأخرى . فكيف نقول أن العزلة أفضل لشخص جاهل لم يتعلم شيئاً عن أمور الدين ، أو عن علم الأخلاق ، ولا يميز بين الصفات الفاضلة وبين الرذائل , وكيف نقول بالمخالطة لشخص عالم ، وصل في علمه إلى درجة الأنس واللذة ، بالقيام بالطاعات والمناجاة ، ولا يترتب على مخالطته للناس ، شيئ من الفوائد الدينية بل يترتب عليه المفاسد الكثيرة . فعلى كل شخص ، أن ينظر إلى حاله التي تدعوه ، إلى المخالطة مع الناس ، أو الإبتعاد عنهم ، ويوازن بين الأمرين ، حتى يظهر له الأفضل والأرجح . إن الأنبياء كانوا يخالطون الناس ، مع غاية إستغراقهم في حب الله ، ولكن للأنبياء أسرار لا نعلمها إلا في قوَّة النبوة .

السخط (على قضاء الله وقدره) [438]

السخط والإعتراض على التقدير الإلهي ، هو منافٍ للإيمان والتوحيد . وما للعبد الجاهل ، من معرفة الحكمة والمصلحة والسخط على أفعال الله العليم الخبير ، إن من يعترض على قضاء الله وقدره ، هو من الجهلاء وليس لحمقه دواء , وقد ورد في الحديث القدسي : " أنا الله لا إله إلا انا، من لم يصبر على بلائي ، ولم يشكر نعمائي ، ولم يرض بقضائي فليتخذ رباً سواي" ,

وروي أنه أوحي إلى داوود(ع): " تريد وأريد ، وإنما يكون ما أريد ، فإن أسلمت كفيتك ما تريد ، وإن لم تُسَلم أتعبتك فيما تريد ، ثم لا يكون إلا ما أريد ..

[438] (ص 586)

من عرف أن العالم كله بكل تفاصيله وأجزائه ، صادر عن الله على وجه الحكمة والخير ، وهو النظام الأصلح ، ومن عرف الله بالربوبية ، وعرف نفسه بالعبودية ، يعلم أن السخط والإعراض وعدم الرضا ، هو في غاية الجهل والخطر لذلك لم يقل أحد من الأنبياء ، ليت كان كذا .
وقد قال أحد اصحاب النبي(ص): " خدمت رسول الله (ص) عشر سنوات ، فما قال لي لشيء فعلته ، لما فعلت ؟ ولا شيء لم افعله لما لم تفعله , ولا قال في شيء ليته لم يكن ، ولا ليته كان ".

الرضا [439]

الرضا هو من ثمرات محبة الله ولوازمها ، إذ أن المحب ، يستحسن كل ما يصدر عن محبوبه ، ويستوي عنده ، الفقر والغنى ، والراحة والغناء ، والبقاء والفناء ، والصحة والمرض ، والموت والحياة ، إذا أنه يعرف انه صادر عن الله سبحانه ، وقد رسخ الله في قلبه ، وهو يحب أفعاله ، ويرضى لكل ما يكون ، وصاحب الرضا هو أبداً في راحة وسرور وبهجة ، لأنه يشاهد كل شيء بعين الرضا ، وينظر في كل شيء إلى نور الرحمة الإلهية والحكمة الأزلية ، فكأن كل شيء حصل على وفق هواه ومراده ، وفائدة الرضا في الدنيا ، هي فراغ القلب ، والراحة من الهموم ، وفي الآخرة رضوان من الله .

فضيلة الرضا [440]

الرضا بالقضاء أفضل مقامات الدين ، وأشرف منازل المقرَّبين ، وهو باب الله الأعظم ، من دخله دخل الجنَّة , قال الله تعالى : (رضي الله عنهم ورضوا عنه)[441] , وعن رسول الله(ص) : " أنه سأل جماعة من أصحابه : ما أنتم ؟ فقالوا مؤمنون ، فقال : وما علاقة إيمانكم ؟ فقالوا نصبر على البلاء ، ونشكر عند الرخاء ، ونرضى بالقضاء ، فقال : مؤمنون ورب الكعبة ، ثم قال : " حكماء علماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء ". وقال (ص) : " إذا أحب الله عبداً إبتلاه ، فإذا صبر إجتباه ، فإن رضي إصطفاه " ؛ وقال : إذا كان يوم القيامة ، أنبت الله تعالى لطائفةٍ من أمتي أجنحة ، فيطيرون من قبورهم إلى الجنان ، يسرحون فيها وينعمون فيها كيف شاؤوا ، فتقول لهم الملائكة : هل رأيتم الحساب ؟ فيقولون : ما رأينا حساباً ، فتقول لهم الملائكة : هل جزتم على الصراط ؟ فيقولون ما رأينا صراطاً ، فتقول الملائكة : ناشدناكم الله ! حدثونا ما كانت أعمالكم في الدنيا ؟ فيقولون : خصلتان كانتا فينا ، كنا لا نعصي الله ونرضى بما قسم الله لنا من اليسير ".

وقال الإمام الصادق(ع) : " أعلم الناس بالله أرضاهم بقضاء الله ". وقد سُئل الإمام الصادق(ع) : " بأي شيء يعلم المؤمن أنه مؤمن ؟ قال بالتسليم لله والرضا فيما أصابه ".

---

[439] (ص 587)
[440] (ص 588)
[441] (المائدة 119)

إن من فوائد الرضا بقضاء الله وقدره ، هو الحصول على السعادة في الدنيا ، وفي الآخرة . قال سبحانه : (ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر). إن فضيلة الرضا هي أعلى درجات اليقين ، ومن فوائد هذه الفضيلة ، سكون النفس والشعور بالطمأنينة ، ومن وصل إلى هذه المرتبة من الإيمان ، يرتفع عنه الشعور بالآلام حتى لو كان فيه جراحات مؤلمة ، ويشهد على ذلك ، حكايات كثيرة عن المؤمنين ، الراضين بقضاء الله وقدره .

وروى أن عيسى(ع) دخل على رجل أعمى وهو مقعد ، لا يستطيع القيام ، ومريض بالجذام أيضاً وكان يقول : الحمد لله الذي عافاني مما إبتلى به كثيراً من الناس ! فقال عيسى : يا هذا ! أي شيء من البلاء تراه مصروفاً عنك ؟ فقال : يا روح الله ! أنا خير ممن لم يجعل في قلبه ما جعل في قلبي , من معرفة الله وحبه ، فقال : صدقت ! ودعا له بالشفاء .

الحزن [442]

الحزن هو الشعور بالتحسر والألم لفقد محبوب ، أو فوت مطلوب ، وهو إعتراض وإنكار للمشيئة الإلهية . وسبب الحزن هو شدة الرغبة في الملذات والمشتهيات وتوقع البقاء الدائم لها ، وللصحة البدنية , وعلاج هذ الشعور المؤلم من الحزن ، هو بأن يعلم الإنسان أن كل ما في هذا العالم ، هو معرَّض للفناء والزوال، وليس فيه ما هو مهيء للبقاء والدوام ، وإذا تيقن المرء من ذلك ، زال من خياله الفاسد الأماني الباطلة ، وخفتّ تعلقه بها ، وتوجَّه قلبه إلى تحصيل الكمالات العقلية ، والسعادات الحقيقية المتصلة بجوهر النفس النورانية الباطنية والباقية إلى الأبد . قال الله تعالى : (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) [443], فالعاقل ، لا يفرح بالأشياء الفانية ، التي لا تدوم وتذهب لذتها عاجلاً أم آجلاً ، فعليه أن لا يحزن لزوالها ، لأن ذلك خلاف مقتضى العقل ؛ قال أمير المؤمنين(ع) : " ما لعليّ وزينة الدنيا ، وكيف أفرح بلذة تفنى ونعيم لا يبقى " . على الإنسان أن يرضى بالموجود ، ولا يغتم ويحزن على المفقود , قال الله تعالى : (ولا تمدَّن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى)[444].

إذا نظرنا إلى البشر ، نجد أن لكل صنف منهم أشياء يفرح بها ، فمنهم من يفرح بالمال والضياع والعقار، ومنهم من يفرح بالنساء والأولاد ، ومنهم من يسعى إلى الوجاهة والمنصب .

ولكن هناك من يفرح بالكمالات النفسية وعلو الدرجات المعنوية ، والسعي للوصول إلى السعادة الحقيقية ، فيزول عنه كل فرح ، بالخيالات الباطلة .

فعلى العاقل أن يسعى ويفرح للوصول إلى هذه المرتبة وعند ذلك لا يحزن على أي شيء من أمور الحياة ، التي هي كسراب يحسبه الظمآن ماء .

---

[442] (ص 594)
[443] (يونس 62)
[444] (طه 131)

والحزن هو ليس أمر وجودي ، بل هو إختياري مكتسب يحدثه الشخص بنفسه بسوء إختياره ، لأننا إذا تأملنا نجد أن كل ما نحزن لأجله ليس موجوداً عند كثير من الناس ، وربما لم يملكون طوال حياتهم هذه الأشياء التي نحزن لأجلها ، ومع ذلك نجدهم غير محزونين .

والحزن ليس أمراً واجباً أو مفروضاً ، لأن هذا الشعور يزول ويتبدل بتغير الأحوال ، ولو كان ضرورياً ولازماً لما زال . ثم العجب من الإنسان العاقل الذي يحزن لفقد بعض الأمور التي لا يمكن بقاؤها لأحد ، فهي متداولة بين الناس (وتلك الأيام نداولها بين الناس) , فكل ما يحصل عليه الإنسان ، لا بد تاركه بعد فترة من الزمن ، والتمتع باللذات أمور مؤقتة تمر على الإنسان . والعاقل من يسعى إلى تحصيل الأمور التي تفيض وهي خالدة ، من كمالات النفس العلمية والعملية . قال سقراط : " إني لم أحزن قط ، لأني ما أحببت شيئاً حتى أحزن لفقده ".

التوكل [445]

التوكل هو إعتماد القلب في جميع الأمور على الله ، والإعتقاد الجازم ، بالعناية التامة والرحمة الإلهية بالعباد . وعدم الإعتماد على الله ، سببه ضعف اليقين ، أو ضعف القلب ، أو كلاهما ، وهذا ينافي الإيمان ، بل هو من شِعب الشرك , وقد ورد ذمه في الآيات القرآنية والأحاديث , قال الله تعالى : (إن الذين تدعون من دون الله عبادٌ أمثالكم) [446].

التوكل لا يتم إلا بقوة اليقين وقوة القلب معاً ، إذ بهما يحصل سكون القلب وطمأنينة النفس ، إن عماد التوكل ، هو التوحيد الصحيح ، ومن أراد التوكل عليه أن يسعى إلى الوصول ومعرفة التوحيد الحقيقي ، عند ذلك تنكشف للعبد بإشراق نور الحق ، بأنه لا فاعل في الوجود غير الله ، وأن ما عداه من الأسباب والوسائط , هي مُسَخرة بقدرته .

فضيلة التوكل

التوكل منزلة ، من منازل السالكين ، ومقام من مقامات الموحدين ، بل هو أفضل درجات الموقنين ، ولذا ورد في مدحه آيات قرآنية وأحاديث نبوية , قال الله تعالى : (وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين)[447], و(وعلى الله فليتوكل المؤمنون)[448], و(إن الله يحب المتوكلين) [449],

وقال : (ومن يتوكل على الله فهو حسبه)[450] , وقال : (من يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم)[451], وقال رسول الله (ص) : " من إنقطع إلى الله ، كفاه الله كل مؤونتة ، ورزقه من حيث لا يحتسب " .

---

[445] (ص597)
[446] (العنكبوت 17)
[447] (المائدة 23)
[448] (آل عمران 122)
[449] (آل عمران 159)

السعي لا ينافي التوكل [452]

والسعي والعمل ، لا ينافي التوكل ، بل هو واجب وهو عبادة , ولذا قيل لأعرابي عندما جاء إلى الرسول وترك ناقته ، وقال توكلت على الله ، قال له الرسول : " إعقلها وتوكل " , وقال الله عزوجل : (خذوا حذركم)[453], و(وأعدوا لهم ما إستطعتم من قوة ورباط الخيل) [454], وقال عن صلاة الخوف في الحرب : (وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم)[455], وقال الله عزوجل لموسى : (واسر بعبادي ليلاً) [456].

درجات التوكل

للمؤمنين درجات في التوكل ، وفي قوة اليقين وضعفه ، وفي قوة التوحيد وضعفه : فمنهم من كَمُل إيمانه ويقينه ، وتوجه بكل قلبه للواحد الأحد ، ولا يرى في الوجود مؤثراً إلا هو ، وقلبه ساكن مطمئن ، لا يعتري نفسه الإضطراب ، وتصبح عنده القدرة والجرأة بالقيام بأي عمل مهما كان صعباً وشديداً ، كعدم الخوف من الحيوانات المفترسة ، ولا من أي حادث يؤلمه ، ويكون شجاعاً بوجه الجبابرة والسلاطين ، ويستطيع أن يغلظ لهم القول ، من دون خوف ولا مبالاة ، وهؤلاء المتوكلين على الله ، يُعتبرون من الكاملين في إيمانهم ويقينهم ،وهم كالأنبياء والأولياء. وبعد الأنبياء والأولياء, هناك من هم أقل درجة في التوكل ، كل حسب إيمانه , وهناك فئة من المتوكلين ، ولكن بشكل خاطئ ، بحيث يجلس في بيته ، ويترك السعي والعمل ، وهو في الحقيقة كسل وخنوع , لا توكل .

الطريق إلى تحصيل التوكل [457]

هي بتقوية ومعرفة التوحيد الحق ، وبالإعتماد على الله وبأن الأمور مستندة إليه سبحانه ، والأحاديث والآيات التي تدل على ذلك كثيرة . إن التوكل على الله ، ينجي الإنسان ويكفيه من متاعب وآلام كثيرة . وعلى المؤمن أن يتذكر ، بأن الله خلقه وأوجده من عدم وهيأ له ما يحتاج ،

وهو أرأف به من الوالدة بولدها , وأنه متكفل به , و يستحيل أن يضيعه , أو يتركه بدون رزق أو مؤونه , أو بدون حماية , لأن الله منزهٌ عن النقص و السهو , وعلى الإنسان أن يتذكر الحكايات و العجائب في صنع الله , وكيف يوصل الأرزاق إلى أصحابها ، ويدفع البلايا عن عباده ؛ وعن

---

[450] (الطلاق 3)
[451] (الأنفال 50)
[452] (ص601)
[453] (النساء 70)
[454] (الأنفال 60)
[455] (النساء 101)
[456] (الدخان 23)
[457] (ص 605)

عجائب صنعه بالطواغيت والجبابرة , وإذلالهم بلا سبب ظاهر ، وكم من ذليل عاجز صار قوياً ، فمن يتأمل يعلم أن الأمور بيد الله سبحانه ، وأن عدم التوكل هو في غاية الجهل ، ولأن التوكل على الله هو من أهم سبل النجاح والعزّة والقوَّة ، والشعور بالطمأنينة وسكون النفس ، فعندما يعلم المؤمن ويثق بأن الله يسانده في جميع أموره ، فليس عليه إلا العمل بظاهر الاسباب ، والرضا بما يحصل له في هذه الدنيا من ربح أو خسارة ، من صحة أو مرض , فتهدأ نفسه و تسكن روحه , وهذه هي السعاده الحقيقية , و النجاح و الفوز في الدنيا و الآخرة .

الشكر [458]

الشكر منزلة رفيعة من منازل الأبرار , و لا يصل إليها إلا الكُمل من المؤمنين , وقد وردت في فضيلتها الكثير من الآيات , قال الله تعالى : (لأن شكرتم لأزيدنكم)[459], وقال : (سنجزي الشاكرين)[460] , وقال : (إذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون)[461], وقال : (ما يفعل بعذابكم إن شكرتم و آمنتم)[462], وقال : (وقليل من عبادي الشكور)[463] , وقد وصف الله نفسه بالشكر , لشدة عظمة هذه الصفة , فقال : (و الله شكور حليم)[464] , وقال الإمام زين العابدين (ع) : " إن الله يحب كل عبد حزين , ويحب كل عبد شكور " .

والشكر هو من المنجيات التي توصل إلى السعادة في الدنيا , وزيادة النعمة , وعدم الشكر , هوكفر بالنعمة , و هو من المهلكات وعقوبتها في الدنيا هي سلب النعم , قال الله تعالى : (فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع و الخوف)[465] .

ما معنى الشكر

الشكرهو بأن يستعمل الإنسان النِعم من الله ، فيما يحب ويُرضي الله ، والكفر بالنِعم ، هو إستعمال النِعم فيما يكره ، لذلك على المؤمن أن يعلم ما هي الواجبات وما هي المحرَّمات والمكروهات في أفعال العباد ، عن طريق الشرع الإلهي ، ومن لم يطلَّع على هذه الأمور في جميع افعاله ، لا يمكنه القيام بحق الشكر ؛ فالله هو خالق الكون ، وهو الذي يعلم ما يَصلُح وما يفسد ، وهو الذي أرسل الأنبياء والكتب والشرائع , لهداية البشر على أعمال الخير ، والبُعد عن أعمال الشر ، ومن خالف ذلك ، فهو كافر بنعم الله سبحانه . فمثلاً : إن الله يرزق المال الكثير والنعم لطائفة من

---

458 (ص)
459 (ابراهيم 7)
460 (آل عمران)
461 (البقرة 158)
462 (النساء 147)
463 (السبأ 13)
464 (التغابن 17)
465 (النحل 112)

الناس ، وهم الأغنياء والمترفون ، ولكنهم يحتفظون بهذ المال ولا ينفقون ما يفيض عنهم إلى الفقراء والمحرومين ، يقول عنهم عزوجل : (الذين يكنزون الذهب والفضَة ولا ينفقونها في سبيل الله , فبشرهم بعذاب أليم)[466], ومن الناس من رزقه الله وأنعم عليه ، ولكنه قام بأعمال الربا ، فهو قد كفر بنعمة الله وظلم .

ما هي الغاية من نعمة المال والرزق ؟ المال وسيلة للقيام بما يحتاج إليه الإنسان من الضروريات ، والحكمة هي أن يتصرف صاحب المال بالعدل ، فيجب إطلاق المال للتداول بين أيدي الناس , فتحصل المنافع المختلفة بين البشر ، ولكن عندما يدَّخره صاحبه ، ولا ينفق مما زاد عن حاجته ، فهو لم يكن من الشاكرين لأنعم الله , وكذلك من تعامل بالربا فقد كفر بالنعمة وظلم وهو ليس من الشاكرين . بالنسبة للغذاء ، فيجب أن يخرج الزائد منه ، من الدول الغنية إلى الفقيرة ، ومن أيدي الأغنياء إلى المحتاجين والفقراء , وإذا قسنا على ذلك جميع الأفعال ، فإننا نكون ، إما شاكرين ، وإما كافرين بالنعم .

ومثلاً : إن الله خلق لنا هذه الأرض التي نعيش عليها ومن خيراتها ، فعلينا أن نحافظ على جمالها وروعة خلقها ، فمن رمى القذارات والأوساخ وكسر أغصان الأشجار من دون حاجة مهمة ، وغير غرض صحيح ، فقد كفر بنِعم الله ، لأن الله لم يخلق اليد لتعبث ، بل لتطيع ؛ وأما الشجر فقد خلق الله له الأوراق والعروق وساق إليه الماء ، لينتفع به العباد ، فقَطْعه قبل أن يكتمل نموه ، هو حرمان للناس من الإستفادة منه ، ومن فعل ذلك ، فهو لم يكن من الشاكرين لهذه النعمة ، قال الله تعالى : (وسخَّر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً) [467], وهذه الأعمال الخيرّة إن إجتمعت ، جعلت صاحبها من المؤمنين والشاكرين بأنعم الله . أما الذين إبتعدوا كلياَ عن الشكر ، وعملوا على هواهم وما يناسب مصالحهم الذاتية ، فهؤلاء ممن إنحطت منزلتهم وغرقوا في ظلمات الجهل والمعاصي ، وإقتربوا من عالم الحيوانات والأنعام .

أقسام النعم واللذات [468]

النعمة هي عبارة عن خير ولذَّة وسعادة ، وكل ما هو مؤثر في حياة الإنسان . وهذه اللذات ليست موجودة في عالم الدنيا بكل مقوماتها , وإنما هي في الآخرة ، لأنها لذَّات دائمة لا إنقضاء لها فالسعادة بمعرفة الله ، وحب اللقاء ، وسائر لذّات الجنَّة هي باقية لا فناء لها . فالسرور يومئذ لا غمَّ فيه كما في الدنيا ، والعلم لا جهل فيه ، والغنى لا فقر بعده ، والحياة والصحة ، لا نهاية لهما , وهذه هي النعمة الحقيقية واللذَّة الواقعية , ولذلك قال رسول الله(ص) : " لا عيش إلا عيش الآخرة ".

ولكن هذه اللذات ، لها مقومات في الدنيا ، وهي أيضاً لذاَّت حقيقية ، وهي اللذات العقلية ، والتي تختص بالعقل لا بالجسم والحواس . وهي تنقسم إلى أربعة أقسام من النعم :

---

[466] (التوبة 34)
[467] (الجاثية 13)
[468] (ص 614)

القسم الأول : وهي العلم والعفّة والشجاعة والعدالة وعلم الأخلاق ، وأشرف العلوم ، هو العلم بالله وبصفاته ، وملائكته ورسله والعلم بالنشأة الأخرى . وهذه الفضائل لذيذة في الدنيا والآخرة ، ونافعة فيهما ، وتؤدي إلى الراحة والطمأنينة ، ولا تزول أبداً ، لا في الدنيا ولا في الآخرة .
أما باقي اللذات فهي مشتركة بين الإنسان والحيوان ، وبعضها مع الحشرات كلذة الجنس والأكل .
ومن تجاوز بنفسه عن هذه اللذات ، وإرتقى إلى اللذة العقلية ، فصارت عنده ، أهم اللذات هي المعرفة ، فهذه مرتبة الصدّيقين .

القسم الثاني : هي الصحة والقوة وطول العمر والجمال .

والثالث : المال والجاه والأهل والعائلة .

والرابع : هو الهداية من الله ، والتسديد ، والتأييد ، والتآلف بين إرادة العبد وبين قضاء الله وقدره ، وتقوية البصيرة ، حتى يقترب العبد من العصمة في تحرّي الخير ، وتجنب الشر .

الصبر [469]

الصبر هو ثبات النفس وعدم إضطرابها في الشدائد ، والمصائب ، والمحافظة على هدوء النفس وسكونها وعدم الشكوى . وهو عدة أنواع : كالصبر في الحرب ، والصبر في كظم الغيظ ، والصبر على الفقر ، والصبر على كتمان السر ، والصبر على المكاره والبلاءات , والصبر على مشاق العبادة ، والصبر على الشهوات والملذات بعدم إتباع الهوى , قال الله تعالى : (وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنّة هي المأوى)[470] .

مراتب الصبر

إن من صبر على المكاره والبلاءات ، وترك الشهوات ، أصبح الصبر عنده حقيقة ، ويمارسه بيسر وسهولة ، وصار له ملكة راسخة في نفسه ، وبعد ذلك يرتفع إلى مقام الرِضا الذي هو أعلى من مقام الصبر . و للصبر ثلاث مقامات أساسية : أولا , ترك الشكوى ؛ ثانياً , الرضا بالمقدّر ؛ والثالث : الحب لما يصنع به الله ، وهو درجة الصدّيقين .

وهناك مقامات للصبر ، أدنى وأقل من ذلك بكثير ، وهي صبر العوام من الناس الذين يرون ظاهراً من الحياة الدنيا ، وهم عن الآخرة غافلون .

فضيلة الصبر

---

[469] (ص 622)
[470] (النازعات 40-41)

الصبر منزلة من منازل السالكين ، ومقام من مقامات الموحدين وبه يصير من المقرَّبين ، ويصل إلى جوار رب العالمين . وقد ذُكِر الصبر في نيّف وسبعين موضعاً في القرآن ووصف الصابرين بأوصاف , فقال عزوجل : (وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا)[471], وقال : (ولنجزينّ الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون)[472], و(أولئك يأتون أجرهم مرتين بما صبروا)[473], وقال : (وإصبروا إن الله مع الصابرين)[474], وقال رسول الله (ص) : " الصبر من الإيمان ، بمثابة الرأس من الجسد ".

ويظهر من ذلك ، أن أكثر أخلاق الإيمان داخلٌ في الصبر ، لذلك لما سئل رسول الله (ص) عن الإيمان ، قال : " هو الصبر لأنه أكثر أعماله وأشرفها " . وقد عرف الصبر بشكل مجمل ، بأنه مقاومة النفس عن الهوى ، والصبر يثبّت الإيمان والمعرفة , حتى الوصول إلى اليقين ، وبالصبر يُحارب هوى النفس ، الذي هو قاطع الطريق للوصول إلى سعادة الدنيا والآخرة ، لأن الوصول إلى النفس المطمئنة الراضية ، يدخلها في زمرة العباد الصالحين ، والصدّيقين ، فتسلم هذه النفس الشريفة ، التي هي سرٌّ من أسرار الله ووديعته ، من الشياطين وتدخل في حزب الله المفلحين ، وقد أُشير في القرآن إلى هذه الحالة وقال الله تعالى : (يا أيها النفس المطمئنة)[475], ويقول عزوجل عن الحالة الثانية المعاكسة : (ولكن حقّ القول مني لأملأن جهنم من الجِنّة والناس أجمعين)[476], وعن الحالة الثالثة , بقوله : (خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم)[477] .

الصبر على السراء

كل ما يلقى العبد في الدنيا ، ما يوافق هواه ، وما يكرهه ، هو يحتاج إلى الصبر . فالحصول على الجاه والمال والأولاد والصحة ، والإنهماك ، والإغترار بهما ، قد يسبب الطغيان والبطر . يقول الله تعالى : (إن الإنسان ليطغى أن رآه إستغنى)[478] , وقال أحد العارفين : " البلاء يصبر عليه المؤمن ، ولكن النعم الكثيرة لا يصبر عليها إلا صدَّيق " , وقال سبحانه : (لا تلهكم أموالكم وأولادكم عن ذكر الله)[479], فالصبر على متاع الدنيا وملذاتها ، يكون بعدم الركون إليها ، فلا يتفاخر على إخوانه ، وعليه أن يرعى حقوق الله في مالِهِ بالإنفاق ، وأن يزكيّ بدنه بمعونة الخلق ، وبمنصبه بإعانة المظلومين ، وكذلك في سائر ما أنعم الله عليه .

---

[471] (السجدة 24)
[472] (النحل 96)
[473] (القصص 54)
[474] (الأنفال 46)
[475] (الفجر 27)
[476] (السجدة 13)
[477] (التوبة 112)
[478] (المزمل 10)
[479] (المنافقون 9)

والسر في أن الصبر على النعم أصعب وأشد من الصبر على البلاء ، لأنه في حالة البلاء ،هو مجبور على ترك ملاذ الدنيا ، والصبر على النعمة خلاف ذلك ، فهو لا يقدر عليه ، إلا بالمجاهدة . أما الصبر على ما لا يوافق الطبع والهوى , فله ثلاثة أقسام , منها :

الأول : الصبر على الطاعة والعبادة ، صعب وشديد ، إذا كانت النفس تميل إلى الكسل ، وكانت غير موقنة ومؤمنة كما يجب ، والإنفاق صعب ، بسبب البخل ، وعبادة الحج والجهاد ، فهي لا تخلو من مشاق على النفس ، ويحتاج المطيع فيها إلى الصبر ، وتتضاعف الصعوبة ، لأنها قد تحتاج إلى نيَّة صادقة ، وإخلاص في الإيمان واليقين والمعرفة ، ليكون الدافع لهذه العبادات أقوى ، وتكون النفس غير مترددة أو متزلزلة . والمعاصي إذا كانت مما يسهل فعلها ، كان الصبر عليها أشد ، كمعصية اللسان من الغيبة والكذب ، وإذا تكررت المعصية شاعت ، وصارت مألوفة للنفس ، ويثقل عليها تركها ، فعندما يغتاب أحد غيره ، وينفي عنه الصفات الفاضلة ، ويحاول أن ينسبها ويثبتها لنفسه ، عليه أن يعالج هذه الرذيلة ، بتطهير قلبه من الحسد ، والغيرة ، والحقد ، وعليه تقوية إيمانه بالله ، وبالخلق ، وإذا لم يستطع ، وجبت عليه العزلة والإنفراد ، وأن لا يتكلم مع الناس ، حتى تحصل له ملكة الإقتدار على حفظ لسانه ، والتروي في الكلام ، فإن كان الكلام خير تكلم به ، وإلا تركه , قال رسول الله (ص) : " قل خيراً أو أُصمت " .

على كل طالب للسعادة ، أن يكون داعية لنفسه ، في محاربة الوساوس والخيالات الباطلة ، وأن يشغل قلبه بهمّ واحد ، فالخيالات والخواطر ، إن كانت من الماضي فهي لا قيمة لها ولن تؤثر في حياته ، وإن كانت للمستقبل فلا بد من المقدور ، فكل هذه الخواطر تضييع للوقت ، ولكن إذا غفل القلب عن ذكر الله ، والتفكر بما ينفعه في دنياه وفي آخرته ، فهو مغبون وخاسر .

الثاني : صبر العبد على أذى الآخرين ، وهو ليس مختار في ذلك ، بل واجب ، وقد خاطب الله نبيّه (ص) , وقال : (فاصبر كما صبر أولي العزم من الرسل)[480], وقال عزوجل : (وإصبر على ما يقولون وإهجرهم هجراً جميلاً)[481], وقال : (ولتسمعنّ من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور)[482].

إن كل أنواع الصبر متوقف على الوصول إلى الإيمان الصحيح ، وإلى اليقين , ولذلك قال الرسول(ص) : " اسألك من اليقين ما يهوّن عليَّ مصائب الدنيا " .

طريق تحصيل الصبر [483]

الطريق إلى الحصول على الصبر ، يكون بتقوية الإيمان ، وبتضعيف هوى النفس ؛ ومن يتأمل ويفكر ، ما هو فضل الصبر ، وما هي عواقبه ، فهو سيكون من الصابرين في كل الأحوال .

---

[480] (الأحقاف 25)
[481] (المزمل 10)
[482] (آل عمران 186)
[483] (ص 643)

وعندما يعلم الإنسان ، أن الشدائد والمصائب مدتها قصيرة ، وهي لا بد أن تزول ، ويبقى ما يترتب على تقوية هذه الفضيلة التي هي الصبر ، من تقوية الإرادة والتمتع بالهدوء والسكينة في القلب ، والحصول على السعادة , قال أمير المؤمنين(ع) : " إن صبرت جرت عليك المقادير وأنت مأجور ، وإن جزعت جرت عليك المقادير وأنت مأثوم " ؛ والتعوّد على الصبر ، ومصارعة الهوى تدريجياً ، يعطي القوة في الإرادة ، و الشعور بالظفرعلى هوى النفس . فتقوية النفس ، كتقوية الجسد بالرياضة ، كلما زادت قوة الممارسة للأعمال الشاقة ، زادت القوة الجسدية للعامل والفلاح على العمل ، ومن تعوَّد على مخالفة الهوى فهو من يمسك زمام أمره في النهاية . ومما يساعد على تضعيف الهوى ، المجاهدة والرياضة ، من الصوم ، وقطع الأسباب المهيجّة للشهوات المختلفة ، وعدم تخيلها ، والإكتفاء بما يملك من مباحات حلال ، في كل الأمور التي يشتهيها ، وبِقدر مشروع ومقبول .

إن من كان عارفاً بالله ، وبأسرار حكمته وقضائه وقدره , وعلم يقيناً ، أن كل أمر صَدر من الله ، وإبتلى به عباده ، من ضيق أوسِعة ، أو من إبتلاء بالصحة أو المرض ، فهو مقدَّر وفق المصلحة والحكمة الإلهية وما يظنه الإنسان أنه شر له ، فهو بسبب الجهل ، لأن الغاية كلها هي خير العباد . بعد العلم بذلك ، تستعد النفس للصبر ، ومقاومة الهوى وتبتعد عن الغم والحزن ، وتشعر بالرضا والسعادة ، وتؤمن بأن قضاء الله لا يجري إلا بالخير, وقد أشار أمير المؤمنين(ع) لذلك بقوله : " إطرح عنك واردات الهموم بعزائم الصبر وحُسن اليقين " , ومن بلغ هذه الدرجة من الإيمان والصبر، صار يشعر باللذَّة بكل ما يرد عليه ، وهذه هي الثروة التي لا تنفد ، والعزّ الذي لا يُفقد ، والسعادة التي لا شقاء بعدها .

الطهارة [484]

الطهارة معناها إزالة الأوساخ ، وعلينا أن نعلم ، أن الطهارة والنظافة ، هي من أهم أمور العباد ، والطهارة الظاهرة هي وسيلة للحصول على الطهارة الباطنة ، وما لم تحصل الأولى ، لا تحصل الثانية , قال تعالى : (فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المتطهرين) [485] , وقال عزوجل : (ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهّركم) [486] , وقال رسول الله (ص) : " بني الدين على النظافة " , وقال : " الطهور نصف الإيمان " , وقال : " مفتاح الصلاة الطهور " , و" بئس العبد القذر " , وقال أمير المؤمنين(ع) : " النظيف من الثياب يذهب الهم والحزن وهو طهور للصلاة ".

وللطهارة أربع مراتب :

الأولى : تطهير الظاهر من الأوساخ .

---

[484] (ص 649- 650)
[485] (التوبة 108)
[486] (الأحزاب4)

الثانية : تطهير الجوارح من الجرائم والآثام .

الثالثة : تطهير القلب من مساوىء الأخلاق ورذائلها .

الرابعة : تطهير السر عما سوى الله ، وهي طهارة الأنبياء والصدّيقين .

عند ذلك يشرق في قلب المؤمن نور الحق ، وينكشف له جلال الله وعظمته ، وتحصل له المعرفة التامَّة والحب والأنس ، ولا يمكن حصول ذلك ، إلا بتطهير القلب ، وفق هذه المراتب الأربعة , قال عزوجل : (قل الله ثم ذرهم)[487], وعندما تحصل الطهارة ، تُزرع في القلب الأخلاق الحميدة ، والعقائد الحقّة ؛ وأما تطهير الجوارح وعمارتها بالطاعات ، لم يمكن إلا بتطهير القلب والسر من المعاصي ورذائل الأخلاق ، وهذا تمام الإيمان .

حقيقة الطهارة [488]

إن التخلص من القذارات ومن فضلات البدن ، يعطي الشعور بالراحة , وكذلك الطهارة الباطنية ، تكون بإزالة الأخلاق الذميمة التي تعد من النجاسات الباطنية ، والأقذار الكامنة ، عندما تطهّر النفس والقلب منها ومن دنسها وتعطي شعور بالراحة والصفاء ، عند ذلك يصلح الوقوف على بساط رحمة الله ، والقرب والوصول إلى حرم العِزَّة ، وعندما يصل المؤمن إلى هذا المستوى من الطهارة ، يشعر بأن حطام الدنيا كلها نوع من النجاسة والقذارة ، ويوقن بأن القناعة والتقوى يورث راحة الدارين ، فيفر من الذنوب ، ويفتح باب التواضع والندم والحياء ، ويجتهد بالأمور المطلوبة منه ، ويبتعد عن الأمور المنهي عنها ، إلى أن يشعر أنه في أمان الله وحفظه في الدنيا ، والوصول والفوز إلى دار القرار الأبدي .

حقيقة الصلاة [489]

الصلاة أجزاء وشروط ظاهرة ، ولها آداب وأسرار خفيَّة باطنة , المعاني الباطنة هي روح الصلاة وحقيقتها , وهي سبع معان :

الأول : التقرب إلى الله والإخلاص له .

الثاني : حضور القلب ، وإبعاد أي فكر دنيوي ، ويُعبرَّ عنه بخشوع القلب وخشوع الجوارح ، وبِغض البصر ، وعدم الإلتفات أو العبث بأي شيء .

الثالث : فهم الكلام ، وحضوره في معناه ، وتلقين القلب بهذا الكلام الذي هو كلام رب العالمين .

---

[487] (الأنعام 91)
[488] (ص651)
[489] (ص 658)

رابعاً : التعظيم لعزة الله وجلاله .

خامساً : الهيبة ، وهي الخوف والخشية والإجلال .

سادساً : الرجاء ، ينبغي للعبد أن يكون راجياً ثواب الله ومحبته .

سابعاً : الحياء .

حضور القلب

إن روح الصلاة وحقيقتها : تصفية النفس من كل شائبة ، ومناجاة الرب ، فإذا كان القلب غافلاً ومحجوباً عمن يخاطب ويحرّك اللسان بحكم العادة ، فهذا يبعد المصلّي عن الغاية من الصلاة ، التي هي تقوية الإيمان ورسوخه . علينا أن نقتدي في صلاتنا بالأنبياء والأولياء ، وكيف كانت صلاتهم في غاية الإقبال والخشوع والخوف ؛ قال تعالى : (الذين هم في صلاتهم خاشعون)[490], وقال عزوجل : (وأقم الصلاة لذكري)[491], وقال سبحانه : (ويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون)[492] , وقال رسول الله(ص) : " من صلى ركعتين ولم يحدّث فيهما نفسه بشيء من الدنيا غفر الله له ما تقدَّم من ذنبه " , وقال(ص) : " إنما فرضت الصلاة ، وأُمر بالحج والطواف ، لإقامة ذكر الله ، فإذا لم يكن في قلبك المقصود والمبتغى فما قيمة ذكرك ؟! " , وقال أمير المؤمنين(ع) لأحد أصحابه : " أتعلم أنه لا تقبل من صلاة العبد إلا ما أقبل عليه ! " .

إن الإقبال والحضور هو روح الصلاة ، وإن أقل ما يقبل هو حضور القلب عند التكبير والنيَّة ، وكل زيادة في التوجه هو إنبساط للروح . فليس من عبد مؤمن يُقبل على الله في صلاته ودعائه إلا أقبل الله عليه ، وأيّده وسدده . لذلك قال الفقهاء أن المقبول من العبادة ، هو ما يقرِّب العبد إلى الله ويترتب عليه الثواب ، وقد إشترط الفقهاء الإنتباه وحضور القلب على الأقل في النيَّة وتكبيرة الإحرام حتى تكون الصلاة مقبولة .

شروط الصلاة

إن من أهم شروط الصلاة ، هو حضور القلب ، ولحضور القلب أسباباً لا يتحقق بدونها :

- الإهتمام : الإنسان لا ينتبه ويُحضر قلبه وفكره ، إلا لأمر يهمه ، ولا علاج لحضور القلب في الصلاة ، إلا العلم والمعرفة ، بالإيمان واليقين ، بأن الآخرة خير للمؤمن وأبقى له من الدنيا ، وإن الصلاة هي وسيلة إليها وإذا أضيف لهذا العلم ، معرفة حقارة الدنيا ومهانتها وعذرها لمن تعلَّق بها ، حصل بعد ذلك حضور القلب .
- فهم الكلام : ربما يكون القلب حاضراً مع اللفظ ، ولا يكون حاضراً مع معناه ، فالمراد هو تفهم معاني كلام الله ، فكم من معانٍ لطيفة يفهمها بعض المصلين ولا يفهمها غيرهم ومن هذه المعاني ، النهي عن الفحشاء والمنكر .

---

[490] (المؤمنون 2)
[491] (طه 14)
[492] (الماعون 4-5)

- التعظيم : ويكون بأمرين أولهما معرفة الله وعظمته وهذه المعرفة هي من اصول الدين ، وثانيهما معرفة النفس وضعفها وحاجتها إلى هذا الرب العظيم .

- الهيبة والخوف والحياء : وهذه الأمور تتولد من العلم بالله وصفاته وأفعاله ، فتحصل عند ذلك الهيبة والخشية والحياء .

تحصيل المعاني الباطنية

يجب أن تكون العلوم والمعارف ، يقينية ليترتب عليها الأثر ، وإذا لم يحصل اليقين ، لا تكون المحبة الحقيقية لله والسعي للتقرب منه ، ويجب الإبتعاد عن هموم الدنيا المتشعبة ، حتى يصير الهم واحد وهو الإهتمام بأمور الآخرة في وقت الصلاة . إن مجاهدة النفس وتضعيف تأثير حب الشهوات عليها ، يساعدها ويعينها ، ويخفف إرهاقها وتعبها ، ويجعلها في حالة سكون وهدوء ، وبدون هذه المجاهدة ، فإن حب الدنيا سيغلبها ويؤدي بها إلى هلاك الدنيا والآخرة ، فالمجاهدة لتحصيل الإيمان واليقين ، هو العلاج الناجع والشافي ، وقد يكون طعم هذا الدواء مرّ ، لأن قطع الشهوات ليس بالأمر السهل ، ولكنه أفضل من أن تبقى العلَّة مزمنة ويصبح المرض عضالاً لا شفاء منه .

وقت الصلاة : إن وقت الصلاة ، هو موعد مع الله ، والمثول في حضرته ، والقيام بطاعته ، وهو وسيلة إلى القرب منه ، والفوز بالسعادة الأبدية ، فيجب الإستعداد بالطهارة والنظافة ، ولبس الثياب المناسبة ، والإبتداء بمناجاته ، ورجائه ودعائه ، والطلب منه كل ما نريده من خير لنا في الدنيا والآخرة .

آداب الصلاة : بعد أن قمنا بالطهارة الظاهرية ، يجب أن لا نغفل عن تطهير قلوبنا بالندم والتوبة على ما قد قمنا به من الذنوب والعزم على تركها ، فيكون ذلك عهداً مع الله , ووعداً له , فهو العالم بالأسرار وبالذنوب التي قد تخفى علينا ، ونطلب سترها وغفرانها ، وهذا هو لباس التقوى المعنوي والباطني , قال الله تعالى : (ولباس التقوى ذلك خير) [493], ومن لا يسعى إلى التوبة وغفران الذنوب ، ولا يستغيث بالله القادر على سترها وغفرانها ، فستكون له العقوبة العاجلة في الدنيا ، ويكون الخسران المبين في الآخرة .

آداب المصليَّ : أن يختار مكاناً يصلح للصلاة والتضرع ، كالمساجد الشريفة والمقامات المطهَّرة ، فإن الله جعل هذه الأماكن محلاًّ لإجابته ونزول رحمته ؛ قال الإمام الصادق(ع) : " إذا بلغت باب المسجد ، فإعلم أنك ، قد قصدت باب ملك الملوك ، لا يطاء أرضه إلا المطهّرون ، ولا يؤذن لمجالسته إلا الصدّيقون ، وإعلم أنه قادر على ما يشاء من العدل والفضل معك وبك ، فإن عطف عليك برحمته وفضله ، قبل منك يسير الطاعة ، وأجزل لك عليها ثواباً كبيراً , وإعترف بعجزك وتقصيرك وإنكسارك ، وأُعرض أسرارك عليه ، فإن علم من قلبك صدق الإلتجاء إليه , نظر

[493] (الأعراف 26)

إليك بعين الرأفة والرحمة والعطف ، ، ووفقك لما تحب وترضى , إنه كريم يحب الكرامة لعباده المضطرّين إليه , وقال عز وجل : (أمَّن يجيب المضطرَّ إذا دعاه ويكشف السوء)[494].

إستقبال القبلة والتوجه إلى الله : التوجه إلى القبلة ، هو صرف الوجه إلى جهة واحدة ، وهي بيت الله والتوجه ، هو إنصراف القلب إلى جهة واحدة , هو الله . إن الأعمال الظاهرة تحَّرك الباطن إلى ما يناسبها ، فإذا توجهت الجوارح إلى جهات متعددة ، تبعها القلب ، فأمر الله بصرفها شطر بيته الحرام ، لتتوجه القلوب جميعها إليه ، وعندما تخشع الحواس ، يخشع القلب ، وقد قال رسول الله (ص) : " إذا قام العبد إلى صلاته وكان هواه وقلبه إلى الله ، إنصرف كيوم ولدته أمه ".

القيام : قال الله تعالى : (الذي يراك حين تقوم)[495] , هو مثول المؤمن بقلبه بين يدي الله سبحانه ، فليكن الرأس مطأطأ متواضعاً ، وبريئاً من أي تكبر ، والأطراف هادئة ، والجوارح خاشعة ، وأجزاء البدن كلها في سكون .

تكبيرة الإحرام : الله أكبر ، معناها أكبر من أن يوصف ، فهو أكبر من كل شيء ، وأكبر من أن يُدرك بالحواس ، أو يقاس بالناس وكل ما في الوجود مستند إليه بالإيجاد من العدم .
وينبغي أن لا يكون القول الله أكبر باللسان ، والقلب ساهٍ . على كل حال فالإنسان يعلم من نفسه ، إذا كان صادقاً في قول الله أكبر ، لأنه سيشعر بحلاوة الكلمة ، والسرور والبهجة ، ولذة المناجاة ، وإذا كان محروماً من هذه الأحاسيس ، فعليه أن يبادر إلى معالجة قلبه وإيمانه .

دعاء الإستفتاح : أول كلمات الدعاء (وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض) , والمراد بالوجه هو القلب ، دون الوجه الظاهر ، لأن سبحانه منزَّه عن الأمكنة ، والجهات حتى يتوجه إليه الوجه الظاهر , فإذا لم يعرف المؤمن هذه المعاني ، تكون مناجاة رب العالمين غير صادقة . وإذا قال : (حنيفاً مسلماً) فيجب أن يخطر بالبال ، أن المسلم من سَلِمَ المسلمون من يده ولسانه ، وإذا قال : (وما أنا من المشركين) , فعلى المؤمن أن ينتبه من الشرك الخفي ، فإذا كان أي جزء من العبادة هو لغير الله ، فيكون قد دخله بعض النفاق ، وإذا قال : (إن محياي ومماتي لله رب العالمين) وهو حال من لا يرى لذاته أي قدرة على الحياة والبقاء ، ولا تكون كل أفعاله إلا لله رب العالمين .

الإستعاذة : إذا قال المؤمن (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) , عليه أن يعلم أن الشيطان أعدى أعدائه ، فهو مترصد لصرف قلب المؤمن عن الله حسداً له على مناجاته وسجوده له ، لأنه لُعن وطُرد من مقام القرب ، عندما لم يسجد لآدم ، فلتكن الإستعاذة منه بصدق ، لا مجرد قول ، كمن يترصد لعدوَّ أو حيوان مفترس يريد أن يقتله , وليترك الشهوات التي يحبها الشيطان ، ويكرهها الله ليدخل في حصن الله ؛ يقول عزوجل بالحديث القدسي : " من قال لا إله إلا الله ، فقد دخل حصني ، ومن دخل حصني أمِنَ من عذابي " , وهذا لا يكون بالقول ، بل هو إذعان قلبيّ ، ويقين قطعيّ ، بأن كل معبود سوى الله باطل ، ومن إتخذ إلههُ هواه ، فهو يسرح في ميدان الشيطان ، لا في حصن الله ، ومن مكائد الشيطان ، أن يُشغل المؤمن ويبعده عن الإقبال على الله ، وعن فهم معاني القرآن .

---

[494] (النمل 62)
[495] (الشعراء 218)

سورة الفاتحة : إذا قال المؤمن (بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ) فهو التبرَّك بإسم الله في إبتداء الصلاة ، وإذا قال (الحمد لله) فهو الشكر على النعم ، وتذكر رحمة الله ولطفه ونعمه ، وإذا قال : (مالك يوم الدين) فالعظمة والخشية ، لأنه لا ملك إلا هو وهو الذي يحاسب يوم الجزاء ، ثم قول (إياك نعبد وإياك نستعين) ، هو تجديد للإخلاص وطلب العون والتوفيق للطاعة ، وإذا قال (إهدنا الصراط المستقيم) , وهو طلب أهم الحاجات ، وهي الهداية إلى النهج القويم الحق الذي يوصله إلى جوار الله والأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين ، بخلاف من غضب الله عليهم من الكفَّار والمنافقين ؛ وبعد إنتهاء قول الفاتحة ، يقول المؤمن سمع الله لمن حمده ، ويكفي بذلك غنيمةً ، أن الله يستمع إلى عبده ويثني عليه ، فلا يعد يغفل عن أمر الله ونهيه ، ووعده ووعيده ، ومِننه وإحسانه . إن الصلاة هي مفتاح القلوب ، فيها تنكشف الأسرار والمعاني ، وبقراءة الآيات القرآنية ، يقال للمؤمن يوم القيامة : إقرأ وإرقى ، فكلما قرأ آية صعد درجة .

الركوع والسجود : الركوع هو تواضع وخضوع وخشوع ، والسجود أعلى درجات التواضع . والوجه هو أعز الأعضاء ، وهو يسجد على التراب ، ليتذكر أن الإنسان خلق من التراب , وإلى التراب يعود , ويقول : " سبحان ربي الأعلى وبحمده " , وبالتكرار يرق القلب ويطهر ، فتسارع رحمة الله إلى العبد ، فلا تكبّرُ ولا بطر ، بل تواضع وإستغفار من الذنوب ، وطلب الحاجات من الله ، وقد سؤل أميرالمؤمنين(ع) عن السجدة على الأرض فقال : " اللهم أنك منها خلقتنا (يعني الأرض) ومنها أخرجتنا , وإليها تعيدنا "؛ قال الإمام الصادق(ع) :" ما خسر والله قط من أتى بحقيقة السجود ، ولو كان في العمر مرّةً واحدة ، ولا قرُب إليه أبداً من ساء أدبه بتعليق قلبه سواه ".

التشهد : قال الإمام الصادق(ع) : " التشهد ثناء على الله ، فكن عبداً خاضعاً له بالفعل ، كما أنك عبد بالقول والدعوى ، وصل صدق لسانك بصفاء صدق سرّك ، فإنه خلقك عبداً ، وأمرك أن تعبده بقلبك ولسانك وجوارحك وأن تحقق عبوديتك له ، وربوبيته لك ، وتعلم أن نواصي الخلق بيده ، فليس لهم نفس ولا لحظة إلا بإرادته " ؛ قال الله عزوجل : (وربك يخلق ما يشاء ويختار ، ما كان لهم الخيرة ، سبحان الله وتعالى عما يشركون)[496] .

التسليم : بعد التشهد ، يكون الحضور بحضرة سيد المرسلين ، والملائكة المقربين ، وبقية أنبياء الله والأئمة (ع) , والحفظة من الملائكة المحُصين للأعمال ، فيكون حضورهم جميعاً في البال ، فيسلم المؤمن على النبي الكريم بقوله : (السلام عليك ايها النبي ورحمة الله وبركاته) , ثم يتوجه إلى الجميع ويسلم ويقول : (السلام عليكم), فلا خطاب من دون حضور المخاطب ، وإلا يكون السلام من العبث واللعب ، فكيف تسلم على من لا يسمع الخطاب ؟ ولما كان ذلك واجباً فرضه الله تعالى على المصلين ؛ قال الإمام الصادق(ع) : " معنى التسليم في نهاية كل صلاة الأمان ، أي من أتى أمر الله وسنة نبيّه (ص) , خاضعاً له خاشعاً منه ، فله الأمان من بلاء الدنيا ، والبراءة من عذاب الآخرة ، والسلام إسم من اسماء الله تعالى أودعه خلقه ، ليستعملوا معناه في المعاملات والأمانات والإنصافات ، وتصديق مصاحبتهم فيما بينهم ، وصحة معاشرتهم ، فإذا أردت أن تضع السلام موضعه ، وتؤدي معناه ، فإتق الله تعالى ليسلم منك دينك وقلبك وعقلك , ولا تدنسها بظلمة المعاصي

---

[496] (القصص 68)

, ولتسلم منك حفظتك ، ثم مع صديقك ، ومع عدوك ، ومن لا يضع السلام مواضعه هذه فلا سلام ولا تسليم وكان كاذباً في سلامه , وإن أفشاه في الخلق ".

إفاضة الأنوار على المصليَّ [497]

إن تخليص الصلاة من الآفات ، وإخلاصها لله ، وأدائها بالشروط الباطنية المذكورة ، من حضور وخشوع وتعظيم ، تسبب حصول أنوار في القلب ، تكون تلك الأنوار مفاتيح للعلوم الباطنة ، يفيض منها على كل مصلٍّ على قدر صفائه ، من كدورات الدنيا ، ويختلف ذلك بالقلة والكثرة ، وبالقوة والضعف ، والجلاء والخفاء ، فينكشف لبعضهم من صفات الله وجلاله ، ولبعضهم من عجائب أفعاله ، كلٌّ حسب إهتمامه وما يطلبه ؛ وقد أشار الرسول(ص) إلى ذلك وقال : " إن العبد إذا قام للصلاة ، رفع الله الحجاب بينه وبين عبده ، وقامت الملائكة يصلون بصلاته ويؤَمِّنون على دعائه ، وإن أبواب السماء تفتح للمصلين " , قال الله تعالى : (قد أفلح المؤمنون , الذين هم في صلاتهم خاشعون)[498] , وقال سبحانه : (والذين هم على صلواتهم يحافظون , أولئك هم الوارثون , الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون)[499].

إمام الجماعة : ينبغي لإمام الجماعة أن يختص لمزيد من صفاء القلب ، والإقبال على الله والخشوع ، لأنه القدوة ، فلا يكون باعثه لإمامة الناس إلا التقرب إلى الله ، فلو كان في بعض زوايا قلبه باعث للشهرة والمنزلة في القلوب ، أو من أجل مال أو رزق ، فيكون قد خلَّ وهلك وأهلك.

صلاة العيدين : على من يحضر صلاة الجمعة والعيدين ، أن يعلم أن هذه الأيام شريفة , وعظيمة ومباركة ، قد خصَّ الله بها هذه الأمَّة ليقربهم فيها إلى جواره ، وقد وجب الإهتمام بصلاتها زيادة على سائر الصلوات .

الصلاة عند ظهور الآيات : إذا ظهرت الآيات ، مثل الكسوف والخسوف ، والزلازل وغيرها , عليه أن يكثر الدعاء والإبتهال , بمزيد من الخشوع والهيبة والخوف ، للنجاة من تلك الشدائد ، وأن يكون المؤمن مستشعراً عظمة الله وجلاله . إن أداء الصلاة عند ظهور الآيات من شعار أهل الإيمان , قال الإمام الرضا(ع) : " إنما جعلت للكسوف صلاة ، لأنه من آيات الله تعالى ، لا يدري الرحمة ظهرت , أم العذاب ، فأحب النبي(ص) أن ترجع الأمة إلى خالقها وراحمها عند ذلك ، ليصرف عنهم شرّها ويقيهم مكروهها ، كما صرف عن قوم يونس(ع) حتى تضرعوا إلى الله .

فضيلة الأذكار [500]

---

[497] (ص 678)
[498] (المؤمنون 1-2)
[499] (المؤمنون 9 - 11)
[500] (ص 682)

الأذكار كثيرة ، كالتهليل ، والتسبيح ، والتحميد ، والتكبير ، والحوقلة يعني (لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم) , والتسبيحات الأربع ، وأسماء الله الحسنى وغير ذلك . وقد وردت في فضيلة كل منها أخبار كثيرة ، والمواظبة عليها توجب صفاء النفس وإنشراح الصدر ، وهي تدل على غاية العظمة والجلال والعزَّة والكمال ، والعارفين السالكين إلى الله يعلمون أن ذكر أسماء الله تعالى تبعث في القلب، ما لا يمكن التعبير عنه ، من صفاء وراحة .

الدعاء

الدعاء هو مخ العبادة ، وقد ورد في فضله الكثير من الآيات والأحاديث ، فليس هناك حاجة أو مطلب ، إلا قد وردت به أدعية ، فمن أراد منها شيئاً ، فليأخذها من كتب الأدعية . ولكن هناك شروط للدعاء للحصول على الإستجابة والفائدة والنورانية للنفس , وهي : أن يترصد الأوقات الشريفة ، والأماكن المباركة ، وأن يكون متطهراً ، ويستقبل القبلة ، رافعاً يديه بحيث يُرى تحت إبطيه ، وأن يكون في غاية التضرع والخشوع والرهبة ، وأن يجزم ويوقن بإجابة الدعاء ، وأن يلح في الدعاء ويكرره ثلاثاً ، وأن يفتتح الدعاء بذكر الله وتمجيده ، وإذا بكى يكون دليل الصدق والتوجه ، وأن يكون عارفاً بطرق نجاته وهلاكه ، فلا يدعو الله بشيء ، عسى أن يكون فيه هلاكه وهو يظن أن فيه نجاته ؛ قال تعالى:(ويدعو الإنسان بالشر دعاؤه بالخير وكان الإنسان عجولا)[501], وأن يترك الأمور لله ليختار له الأفضل ، فإذا تحققت هذه الشروط فأبشر بإحدى ثلاث : إما أن يعجل لك ما سألت ، وإما يدَّخر لك ما هو أفضل ، وإما أن يصرف عنك البلاء ولو أرسله عليك لهلكت . سئل الإمام الصادق(ع) : " ما لنا ندعو ولا يستجاب لنا ؟ فقال : لأنكم تدعون من لا تعرفونه ، وتسألون ما لا تفهمونه ".

تلاوة القرآن

لا حدَّ لثواب تلاوة القرآن ، والأحاديث الواردة في عظم أجره لا تحصى لكثرتها ، وكيف لا يعظُم أجره وهو كلام الله ، حمله روح الأمين إلى سيد المرسلين ، فكلام الله هو معجزة في فصاحته ، وفي معناه حقائق المعارف والأحكام ، وهو يخبر عن دقائق صنع الله ، وعن المغيبات ، وعن القصص الواقعة في القرون والأعوام التي مضت ، فالعقل والنقل والتجربة ، تشهد على عظم ثوابه وتصفيته للنفس .

الآداب الظاهرية والباطنية التي يجب ذكرها عند تلاوة القرآن

الآداب الظاهرية هي : الوضوء ، وإستقبال القبلة ، والترتيل ، وتحسين القراءة ، والسجود لله تعالى إذا مرَّ القارىء بآية السجود ، وإذا مرَّ بآية العذاب إستعاذ بالله ، والإفتتاح بـ (أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم) , والقول في نهاية كل سورة : (صدق الله العليّ العظيم).

وأما الآداب الباطنية , فمنها :

---

[501] (الإسراء 11)

فهم عظمة الكلام : الذي أنزله الله ، وكيف أن الله منّ بلطفه مع خلقه ، جعل هذا الكلام مفهوماً ، ليوصل المعاني إلى عباده ، فالبشر عاجزين عن معرفة صفات الله ، وأفعاله وقد أعطى سبحانه الأمثلة لإيصال معنى كلامه ، وكلام الله عالي المنزلة ، رفيع الدرجة ، نافذ الحكم في الحق والباطل ، يأمر وينهى ، ولا طاقة للبشر بالوصول إلى الحكمة الكاملة ، كما لا طاقة لهم أن ينفذوا بأبصارهم ضوء عين الشمس ، ولكنهم ينالون منها ما تقدر به أبصارهم . وكلام الله هو مفتاح الخزائن النفيسة ، وشراب الحياة الذي من شرب منه لم يمت ، ودواء من سقي منه لم يمرض .

تعظيم المتكلم : على القارىء عند الإبتداء بالتلاوة ، أن يُحضر في قلبه عظمة المتكلم ، ويعلم أن هذا الكلام ليس كلام البشر ، بل هو كلام خالق الوجود كله ، فعلى من أراد أن يقرأ كلام الله ، أن يطهرَّ قلبه ، من رذائل الأخلاق والصفات ، وأن ينيره بنور المعرفة ، وأن لا يكون غافلاً عن المعاني العظيمة ، الذي يقصدها رب العزَّة , قال عزوجل : (.. وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد)[502].

الترتيل والتدبر : على قارىء القرآن ، أن يرتله ترتيلاً ، ليجد حلاوة مخاطبة الله , عزوجل لعباده الصالحين ، فيكون الأثر في النفس أقوى وأرق ، وكأنه يناجي ربه بدون واسطة , فيشعر بالأنس ، وصفاء الروح ؛ ويكون ذلك مضافاً إلى تدبر وفهم الكلمات والآيات , قال سبحانه: (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب اقفالها)[503].

ومنها التفهم : وهو أن يفهم القارىء كل آية وما يليق بها ، فالقرآن يشتمل على ذكر صفات الله عزوجل ، وذكر افعاله ، وذكر الجنّة والنار ، وأحوال النشأة الأخرى ، وذكر أحوال الأنبياء ، وأحوال المكذّبين , وكيف أُهلِكوا ، وذكر الأحكام والنواهي والأوامر , وغير ذلك ؛ كقوله تعالى : (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير)[504], وكقوله تعالى : (الملك القدوس السلام)[505] , إلى آخر الآية . وعندما يتأمل القارىء ، في معاني هذه الآيات من أسماء وصفات لله عزوجل ، تنكشف له اسرارها ؛ قال أمير المؤمنين(ع) : " ما اسَّر إليَّ رسول الله (ص) شيئاً كتمه عن الناس ، إلا أن يُؤتي الله عزوجل عبداً فهماً في كتابه ".

إن من عرف الله الحق ، رآه في كل شيء ، لأن كل شيء منه وبه وإليه وله ، فهو الكل وحده ، ومن لايراه في كل ما يراه ، فكأنه ما عرفه ، ومن عرفه فقد عرف أن كل شيء ما خلا الله باطل ، وأن كل شيء هالك إلا وجهه , قال عزوجل : (قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفذ البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي)[506] .

التخلي عن موانع الفهم : وهي التقليد والتعصب لمذهب ، فهذه حُجُب تمنع الإنسان من الفهم والتأثر بما يخالف معتقداته ، والجمود على تفسير الظاهر ، والإصرار على الذنوب الظاهرة

---

[502] (فصلت 41-42)
[503] (محمد 24)
[504] (الشورى 11)
[505] (الحشر 23)
[506] (الكهف 109)

والباطنة ، ومتابعة الشهوات تحرم القلب من إنكشاف الاسرار والحقائق فيه ، وتمنع إشراق المعارف الحقة في القلب ؛ قال رسول الله (ص) : " إذا عظَّمت أمتي الدنيا والدرهم تُنزع منها هيبة الإسلام ، وإذا تركوا الأمر بالمعروف حرموا بركة الوحي ".

التخصيص : على القارىء أن يعتبر كلام الله يخصُّه وهو خطاب له ، بما فيه من وعد ووعيد ، فعندما يسمع قصص الأولين ، فعليه أن يعتبر ، فما من قصَّة إلا وفيها الفائدة والعبرة ؛ ولذلك قال الله تعالى : (ما يثبِّت به فؤادك)[507] , فالقرآن جميعه ، هدى وشفاء ورحمة ونور, وموعظة وبصائر للعالمين ؛ قال أحد العلماء الكبار : " هذا القرآن رسائل أتتنا من قبل ربنا ، فعلينا تدبرها وتنفيذها ، في الطاعات والسنن " .

التأثر : وهو أن يتاثر القلب ، بحسب إختلاف الآيات ، فإذا سمع الوعيد ، إضطرب القلب وخشع ، وإذا سمع الآيات التي فيها الرحمة والمغفرة ، فرح وإستبشر ، وإذا سمع وصف الجنَّة ، إشتاق إليها ، وإذا سمع عن صفات الله وأسمائه ، فليخضع لجلاله وعظمته , وحق تلاوة القرآن ، أن يشترك فيها اللسان والعقل والقلب.

الترقيَّ : وهو أن يقصُر همّه وفكره وقلبه على المتكلم ، وهي درجة المقرّبين والصدَّيقين , قال الإمام الصادق(ع) : " والله قد تجلَّى الله عزوجل لخلقه في كلامه ، ولكن لا يبصرون ".
إن طهارة القلب ، والإخلاص لله ، تجعل القارىء يترقىَّ إلى مشاهدة المتكلم ، وهذا هو التوحيد الحق للعبد .

التبرَّي : وهو أن لا يزكيَّ العبد نفسه ، وأن يكون بريئاً من نفسه ومن التكبر والغرور ، فإذا قرأ آيات القرآن ، من الوعد ومدح الأخيار ، أن يتبادر إلى ذهنه ، أهل الصدق واليقين ، وأن يتشوق ليلحق بهم ، وإذا قرأ آيات الوعيد للعصاة والمقصّرين ، ظن نفسه أنه منهم ؛ وقد أشار أمير المؤمنين إلى ذلك حيث قال عن صفات المتقين : " وإذا مرَّوا بآية فيها تخويف ، أصغوا إليها مسامع قلوبهم وظنوا أن زفير جهنم في آذانهم ". لأن المؤمن إذا رأى نفسه في موقع التقصير ، كان هذا الشعور سبب قربه ، فيسوقه الله إلى درجة أعلى من القرب ، وإذا رأى نفسه ، أنه قد قام بما يجب عليه وإكتفى بذلك ، يفضي به هذا الشعور إلى درجة أسفل مما هو عليه ، وصار محجوباً ، فمن تجاوز نفسه ، ولم يشاهد إلا الله تعالى في قراءته ، كُشف له سر الملكوت بحسب أحواله ، فعندما يقرأ عن الجنة ، تنكشف له صورتها ويشاهدها ، كأنه يراها عياناً ، وإن غلب عليه الخوف ، كشف الله له عن أنواع عذابها كأنه يراها ، فالمستمع الواحد ، والقارىء في حالات مختلفة من التأثر والتفاعل ، تنكشف بهما أنوار كلام الله العزيز الحكيم .

---

[507] (هود 120)

الصوم [508]

عن رسول الله(ص) : قال الله تعالى : " الصوم لي وأنا أُجزي به " , والصوم هو الكف عن الطعام ، وكسر الشهوة لتقوى النفس على الصبر وترتقي عن الشهوات الحيوانية ، إلى التشبه بالملائكة الروحانية .

لكن لا تحصل هذه المعاني ، إذا إستمرت العادات عند معظم الصائمين ، بأن يصوموا في النهار ، ويأكلوا أضعافاً عند الإفطار ، وتتنوع الأطعمة وتزداد ، بحيث ما يأكله الصائم في شهر رمضان ، بقدر ما يأكله في عدة شهور ، فتنبعث الشهوات وتقوى بعد أن كانت راكدة لو تُركت على عادتها ، فلا يحصل ما هو المقصود والمبتغى من الصوم ، وهو تضعيف القوة الشهوية التي هي من وسائل الشيطان . يجب التقليل من الطعام ، وهو أن يأكل الصائم في وجبة الإفطار , ما كان يأكله في وجبة العشاء لو لم يكن صائماً ، ولا يزيد عليها ، حتى ينتفع بالصيام . إن روح الصوم وسرّه ، والغرض الأصلي منه ، هو تربية النفس والتخلق بأخلاق الأنبياء والأولياء القريبة من أخلاق الله تعالى ، والإقتداء بالملائكة في الكف عن الشهوات بقدر الإمكان ، وهذا يحصل بتقليل الأكل ، ولا جدوى من تأخير الأكل ومضاعفته , فالجوع هو الذي يحقق الهدف والمبتغى من الصيام ، وفائدته تعم جميع الناس ، والجوع يجعل الأغنياء يدركوا ما يعاني منه الفقراء ، فيدفعهم إلى مواساتهم بالأموال والأقوات . والصوم لا يكون عن الطعام فقط ، بل هو أيضاً صوم الجوارح كلها ، والبعد عن المعاصي . في الصوم طهارة للقلب والجوارح ، وعمارة الظاهر والباطن والشكر على النعم ، والإحسان للفقراء ، وزيادة التقرب إلى الله ، والتضرع والإلتجاء إليه ، وبالصوم فوائد لا تعد ولا تحصى .

من صام شهر رمضان إخلاصاً لله وتقرُّباً ، وطهرَّ قلبه من ذمائم الأخلاق ، ولم يفرط في الأكل ، وواظب على بعض المستحبات ، بالإضافة إلى الواجبات من صلاة ودعاء وآداب روحية ، إستحق المغفرة والفوز بسعادة الدنيا والآخرة ، وحصل له من صفاء النفس ، وطهارة القلب ، ما يوجب إستجابة دعائه ، وإن كان من أهل المعرفة ، إبتعد الشيطان عنه ، وإنكشف له شيء من أسرار الملكوت ، لا سيما في ليلة القدر التي تنكشف فيها الأسرار ، وتفيض الأنوار ، على القلوب الطاهرة والنفوس الزكية , والعُمدة في ذلك كله على التقليل من الأكل ، بحيث يشعر الصائم بألم الجوع ، لأن من كانت معدته ملأى بالطعام على الدوام ، فهو محجوب عن عالم الأنوار ، ولا يمكن أن ينكشف له شيء من عالم الأسرار .

الحج [509]

الحج أعظم أركان الدين ، وهو من أهم وأفضل التكاليف الإلهية ، وأصعبها للبدن ، وللحج أحكام وشروط ظاهرية ، وله أسرار ومعاني خفيَّة وآداب باطنية يبحث عنها أصحاب القلوب النيّرة .

الغرض من إيجاد الإنسان

---

[508] (ص 690)

[509] (ص 692)

الغرض الأصلي من إيجاد الإنسان ، هو معرفة الله والوصول إلى جنة الأنس به ، وهذا الوصول يتوقف على صفاء النفس وتجردها عن المادة ، فكلما كانت النفس أصفى وأشدّ تجرداً ، كان لأنسها وحبها بالله أكبر وأشد . وصفاء النفس وتجردها ، موقوف على التنزُّه عن الشهوات ، والكف عن اللذات ، وعدم التعلق بحطام الدنيا ، وتحريك الجوارح ودفعها للتعود على الأعمال الشاقة ، ولذلك شُرِّعت العبادات والتي تشتمل على هذه الأمور :

- إنفاق المال وبذله ، (كالزكاة والخُمس والصدقات) .

- الكف عن الشهوات واللذات (كالصوم) .

- التفرغ وقتاً معيناً لذكر الله وتحريك الأعضاء وتعبها ، (كالصلاة) .

- ومن هذه التكاليف المهمة جداً : (الحج) , ففيه تعب الأبدان وترك الأوطان ، وإنفاق الأموال ، وتحمل المشاق ، وفيه التفرغ لذكر الله ، وإقامة الشعائر ، من عبادات وطاعات وهي كلها تكاليف متعبة وصعبة . والقيام بفريضة الحج ، هو إمتثال لأداء الواجب وطاعة لله ، ففي هذه العبادة ، قد لا يهتدي العقل إلى كل المعاني ، والأسرار ، ولكن القيام بها تزكية للنفس وللقلب . وقد يعجب بعض الناس ، من القيام بهذه الشعائر ، ولكن مصدر ذلك هو الجهل بأسرار العبادات ومنافعها . ففي كل عمل من أعمال الحج ، دلالة على معنى هذه الشعائر .

إن في إجتماع الخلق في موضع محدد ، تكرَّر فيه نزول الوحي ، وهبط جبرائيل وغيره من الملائكة المقرَّبين على الرسول الأكرم(ص) , ومن قبله إبراهيم الخليل(ع) , إن هذا الموضع هو بيت الله الحرام ، وهو منزلاً لجميع الأنبياء من آدم إلى خاتم الرسل ، وهو مهبطاً للوحي ، ومحلاً لنزول الملائكة ، وقد ولد فيه سيد الرسل (ص), ووطأت قدماه الشريفتان ، تلك الأرض المقدسة ، وقد سمّي بالبيت العتيق ، وقد شرَّفه الله ونسبه إلى نفسه وقال (بيتي العتيق) , ونصبَّه مقصداً لعباده ، وجعل ما حوله حرماً له ، وجعل أرض عرفات كالميدان على فناء حرمه ، وأكَّدَ حرمة الموضع بتحريم صيده ، وقطع شجره ، فقصده الزوار من كل فج عميق ، شُعثاً غبراً متواضعين لرب العالمين ، ومستكينين له خضوعاً لجلاله ، وإستكانة لعزَّته وعظمته ؛ وفي هذا الموضع ، تحصل المؤالفة ، والمصاحبة والمحبة ، لمجاورة الأخيار من الحجاج المجتمعين من أقطار العالم ، فتتعاون النفوس والقلوب ، على التضرع والإبتهال والدعاء الموجب لسرعة الإجابة .

يتذكر الناس النبي (ص) , الذي جاهد وسعى ونشر الدين ، وأحكام الله ، فتحصل الرقة والصفاء للقلوب والنفوس ؛ وبما أن الحج هو من أهم التكاليف وأصعبها ، فقد جُعل بمنزلة الرهبانية في الأديان السابقة , وفي الأمم الماضية ، كانوا إذا أرادوا القيام بأصعب التكاليف , وأشقَّها على النفس ، إبتعدوا عن الخلق وإنفردوا بأنفسهم ، وذهبوا إلى قمم الجبال ، وآثروا الوحدة والبعد عن الناس ، لطلب الأنس بالله ، وألزموا أنفسهم الرياضات الشاقة ، طمعاً في الاخرة . وقال الله تعالى : (ذلك بأن منهم قسيسين ، ورهبانا وأنهم لا يستكبرون)[510], وقال : (.. ورهبانية ابتدعوها ما كتبنها

[510] (المائدة 82)

عليهم إلا إبتغاء رضوان الله)[511], وقد مضت وإندرست ، هذه العادات والطقوس ، وأقبل الخلق على إتباع الشهوات ، وهجروا التفرغ للعبادة ، وبعث الله عزوجل محمداً (ص) لإحياء طريق الآخرة ، وتجديد سُنَّة المرسلين ، فسأله أهل الأديان السابقة عن الرهبانية والسياحة في دينه فقال : " أُبدلنا بالرهبانية الجهاد والحج ، وأبدلنا بالسياحة , الصوم " .

قال رسول الله(ص) : " الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنَّة " , فقيل يا رسول الله ، ما برَّ الحج ؟ قال: " طيب الكلام وإطعام الطعام ، وحُسن الخلق ، وليس حُسن الخلق مجرد كف الأذى ، بل إحتمال الأذى ".

الطواف : روح الطواف وحقيقته ، هو طواف القلب بحضرة الربوبية.

إستلام الحجر الأسود : الحجر الأسود هو بمثابة يمين الله , قال رسول الله(ص) : " إستلموا الركن فإنه يمين الله في خلقه , يصافح بها ويشهد لمن إستلمه بالموافاة " .

الوقوف في عرفات : يُذكّر هذا المشهد ، بما يُرى من إزدحام الخلق ، وإرتفاع الأصوات ، وإختلاف اللغات ، بيوم القيامة وإجتماع الأمم مع أنبيائهم والأئمة ، وإقتداء كل أمة بنبيهّم والطمع في شفاعتهم ، فالموقف عظيم والناس مجتمعة ، والقلوب منقطعة إلى الله سبحانه ، فلا بد للرحمة أن تصل من ذي الجلال بواسطة القلوب العزيزة المقدسة والشريفة ، من الأخيار الصالحين وأرباب القلوب والمتقين ، إلى كافة الخليقة ، فلا يخيب سعي أحد ، فإن بحر الرحمة أوسع من أن يظن أحد ، أن لا يُغفر له ، ويكون هذا الظن من أعظم الذنوب , قال تعالى : (ولله على الناس حجُّ البيت من إستطاع إليه سبيلاً)[512].

زيارة المشاهد [513]

إن النفوس القويّة القدسية ، لا سيما نفوس الأنبياء والأئمة (ع) , إذا تجردوا من أبدانهم الشريفة ، وصعدوا إلى عالم الملكوت ، وكانوا في غاية الإحاطة على هذا العالم ، فأمور عالمنا منكشفة لهم وظاهرة ، ولهم القوة وإمكانية التأثير ، والتصرف في موارد هذا العالم ، فكل من يحضر مقابرهم لزيارتهم يطلعون عليه ، وتشاهده أرواحهم المقدسة ، ومحال حضور أشباحهم البرزخية النورية ، فإنهم هناك يشهدون , قال الله تعالى : (بل أحياء عند ربهم يرزقون)[514] , فُهم بما آتاهم الله فرحون ، ولهم تمام العلم والإطلاع بزائري قبورهِم ، وحاضري مراقِدهم ، وما يصدر من زوارهم من السؤال والتوسل ، وطلب الشفاعة ، والتضرع ، فتهب على الزوار ، نسمات ألطافهم ، وتفيض عليهم رشحات أنوارهم ، ويشفعون إلى الله ، في قضاء حوائجهم وإنجاح مقاصدهم ، وغفران ذنوبهم ، وكشف همومهم وكروبهم . فهذا هو السر ، في إستحباب زيارة قبور

---

[511] (الحديد 27)
[512] (ال عمران 97)
[513] (ص 702)
[514] (آل عمران 169)

النبي والأئمة (ع) وتجديد العهد معهم ، وإحياء أمرهم ، والصلة معهم ، وبرَّهم ، وإجابتهم ، وإدخال السرور عليهم ، وإعلاء كلمتهم .

وكيف لا تكون زيارتهم من أقرب القربات ، وأشرف الطاعات مع العلم بأن زيارة المؤمن ، فيها عظيم الأجر وجزيل المثول ، وقد ورد الحث والترغيب الشديد من الشريعة الطاهرة ، ولذلك كثر تردد الأحياء إلى قبور أمواتهم للزيارة ، فهي صلة دائمة بينهم ، وقد صارت سنَّةً طبيعية .

وقد ثبت وتقرر جلالة قدر المؤمن عند الله ، وثواب صلته وإدخال السرورعليه ، وإذا كان الحال مع المؤمن هكذا فكيف بمن عصمه الله من الخطأ وطهره من الرجس ، وبعثه إلى الخلائق أجمعين ، وجعله حُجَّةً على العالمين ، وإرتضاه إماماً للمؤمنين ، وقدوةً للمسلمين ، ولأجله خلق السماوات والأراضين ، وجعله صراطه وسبيله ، وعينه ودليله ، وبابه الذي يؤتى منه ، ونوره الذي يستضاء به ، وحبله المتصل بينه وبين عباده ، من رسل وأنبياء وأئمة وأولياء .

إن الأحاديث والأخبار، الواردة عن الرسول(ص)والأئمة الأطهار(ع) , مما لا يحصى كثيرةً : قال رسول الله(ص) : " من زار قبري ، بعد موتي كمن زارني في حياتي " , وقال الرسول لأمير المؤمنين(ع) : : يا ابا الحسن ، إن الله جعل قلوب الصفوة من العباد تحن إليكم ، يكثرون زيارة قبوركم تقرّباً منهم إلى الله ، ومودَّة لرسوله ، أولئك ستنالهم شفاعتي ، ومن زاركم خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه " , قال الله تعالى : (قل لا اسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى)[515] , وقال الإمام الرضا(ع) : " إن لكل إمام عهداً في عنق أوليائه ، وإن من تمام الوفاء بالعهد ، زيارة قبورهم ، فمن زارهم تصديقاً بما رغبوا فيه ، كان أئمته شفعاءه يوم القيامة ".

إن زيارة النبي(ص) والأئمة المعصومين لها فضل عظيم وهي مذكورة في كتب الأدعية والزيارات .

زيارة المدينة المنورة [516]

بعد ان عرفنا فضل زيارة الرسول والأئمة (ع) , وعظم قدرهم وجلالة شأنهم وحقهم ، وتقديّر جدّهم وسعيهم في إرشاد الناس وإعلاء كلمة الله ؛ فإذا إقتربنا من المدينة المنورّة ، تذكرنا هذه البلدة التي إختارها الله لنبيّه ، وجعل إليها هجرته ، والتي فيها شُرّعت أحكام الله وسننه ، والتي جاهد فيها رسول الله (ص) وأظهر بها دين الله ، وبها سكن إلى أن توفاه الله وجعل مدفنه فيها ، ونتذكر أن أقدام رسول الله وطأت هذه الأرض المباركة ، ونتذكر عظمة هذا النبي العظيم وخشوعه ووقاره وتواضعه لربّه ، وما أودع الله في قلبه من معرفته ، حتى قرنه بذكر نفسه ، وأنزل عليه كلامه العزيز ، وأهبط عليه الروح الأمين وسائر ملائكته المقرّبين ، وأحبط عمل وقد قال عليه الصلاة والسلام : " من صلىّ عليَّ مرّة صلّيت عليه عشراً " ، فهذا جزاء من صلى عليه بلسانه ، فكيف بالحضور لزيارته بنفسه الشريفة .

---

[515] (الشورى 23)

[516] (ص 703)

زيارة النجف وكربلاء [517]

إذا أردنا الدخول إلى أرض النجف لزيارة أمير المؤمنين ، وسيد الوصيين(ع) , علينا أن نذكر وادي السلام ، وهي مجمع أرواح المؤمنين ، وقد شرَّفها الله وجعلها أشرف البقاع ، فما من مؤمن مخلص لله ، إلا وتأتي روحه إليها بعد الموت ، وتتنعم فيها مع سائر المؤمنين , إلى أن يدخلوا دار كرامته العظمى في القيامة الكبرى ، وقد تأكدت شرافتها وعظم قدرها ، بأن جعلها مدفن وصي رسوله ، بعد أن كانت مدفن آدم أبي البشر ونوح شيخ المرسلين ؛ وإذا أردنا أرض كربلاء لزيارة سيد الشهداء(ع) , فعلينا أن نتذكر الأرض ، التي قتل فيها سبط رسول الله وأولاده ، وأقاربه وأصحابه ، وأُسِر فيها أهل بيته ، مما يستدعي الحزن والبكاء ، ثم إذا دخلنا الحائر , مكان ضريح سيد الشهداء ، والمستشهدين معه مجتمعين معه في جواره ، ونذكر ما جرى عليهم من البلايا , ومحن نشعر في قلوبنا الحزن والألم والإجلال والتعظيم .

هذا آخر كتاب جامع السعادات ، أسأل الله أن يجعلنا من العاملين به ، وأن ينفع به جميع عباده السالكين إليه وقد إنتهى جمعه وتأليفه سنة 1196 من الهجرة النبوية ، على صاحب هذه الهجرة الف سلام . (هذا ما كتبه المصنف (قدس) في آخر الكتاب .)

---

[517] (ص 704)